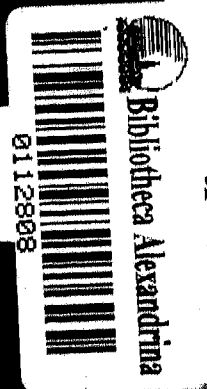


أنور أحمد

خطباء
صنعوا التاريخ



خطباء صنعوا التاريخ

بقلم
أنور أحمد

مكتبة الطبع والنشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد فريد - القاهرة

الفهرست

صفحة

٣	هذا الكتاب
٥	ديموسطين
٢٣	الإمام علي
٤١	زياد ابن أبيه
٥١	الحجاج
٦٧	عبد الله بن الزبير
٧٧	ميرابو
٩٩	وليم پت الكبير
١١٥	وليم پت الصغير
١٣١	عبد الله نديم
١٥٧	مصطفى كامل
١٩٣	سعد زغلول
٢١٧	خطباء الحروب
٢٢٧	نابليون بوناپرت

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إهداء

إلى روح الزعيم الخطيب « مصطفى كامل » الذي أيقظت
خطبه روح أمته فانطلقت تكافح لصنع تاريخها الحديث .
المؤلف

هذا الكتاب

ليس هذا الكتاب ترجمة لحياة هؤلاء الخطباء بالمعنى المؤلف للتأليف ، ولكنه محاولة لدراسة فهم الخطابي وإلقاء الضوء على الشخصية الخطابية لكل منهم ، وبيان ملامح هذه الشخصية والعوامل التي ساعدت على تكوينها وتحديداتها . فهو بهذا لا يعتبر من كتب التراجم ، لأنه لا يسرد تاريخ حياة الخطيب ويتتبع أحداثها إلا بالقدر الذي يتصل بحياته الخطابية ويساعد على جلائها وتوضيحها .

وقد اخترت طائفة من الخطباء الذين كانت العبقرية الخطابية أبرز صفاتهم أو من أبرزها ، وكانت وسيلة معظمهم للوصول إلى الحكم والسلطة أو مراكز القوة التي تمكنوا من خلالها أن يسيطروا على الأحداث ويسهموا بذلك في صنع التاريخ .

ولم أتقيد في هذا الاختيار بعصر محدد أو بيئة معينة ، وإنما اخترت من كل بيئة وعصر أعظم شخصية خطابية فرضت نفسها على الأحداث وأصبحت جزءاً من تاريخ عصرها .

وأبادر إلى القول بأن هذا الكتاب لم يستوعب كل العباقرة من خطباء التاريخ الذين أسهموا في صنعه ، فهذا جهد يحتاج إلى موسوعة ضخمة ، وإنما اخترت بعض النماذج الفريدة ، ليس من بينها أحد من المعاصرين .

والواقع أن فكرة هذا الكتاب كانت تراودني وتلح عليّ منذ زمن طويل . ذلك أنه رغم ما للخطابة من جليل الأثر وعظيم الخطر في حياة الأمم ، فقد لاحظت أن المكتبة العربية تكاد تخلو من الدراسات والبحوث الخاصة بالخطباء ، على كثرة ما تقذف المطابع كل يوم إلى سوق الأدب .

— ٤ —

ولست أزعم أن هذا الكتاب الصغير سوف يسد هذا الفراغ ، ولكنني
أرجو أن يلفت أنظار الكتاب إلى هذا المجال البكر ، فتتظفر المكتبة العربية
منهم بما يشفي الغليل بعد أن أسهمت فيه بجهود المقل .
القاهرة يوليو ١٩٦٩

المؤلف

ديموسستين

« إننا عندما نسمع ديموستين لا نفكر في كلماته ، فهو يُبرق ويرعد »
« وهو سيلٌ يجرف كل ما يعترض سبيله ، فلا نستطيع أن نفقده »
« أو نُعجب به ، لأننا نكون قد فقدنا السيطرة على مشاعرنا . »

المؤرخ فنيان

ديموستين

تعتبر حياة «ديموستين» نموذجا فريدا للخطيب المبقري في كل زمان ومكان. كانت حياته أسطورة تشبه الأساطير الأغريقية القديمة، وكانت عبقريته الخطابية أبرز معالم شخصيته، فكانت خطبه موضوعا لدراسة الخطباء في الأجيال التي تعاقبت بعده، حتى لقد قال «كونفيليان» إن طلاب البلاغة يجب عليهم ألا يدرسوا خطبه فحسب، بل أن يحفظوها عن ظهر قلب.

ولد «ديموستين» في أثينا عام ٣٨٤ قبل الميلاد، وتوفي أبوه وهو في السابعة من عمره، وترك له ثروة كبيرة ومصنعين أحدهما لصنع الأسلحة. ولكن أوصياءه الثلاثة بددوا ثروته، فلما بلغ الثامنة عشرة من عمره طالب برفع الوصاية عنه، كما طالب الأوصياء بحساب عن الثروة، ودخل معهم في نزاع قضائي دام ثلاثة أعوام.

وإذا كان «ديموستين» لم يكسب من هذا النزاع مالا كثيرا، فقد اكتسب معرفة بالقانون وإجراءات القضاء، وامتلاّت نفسه بغضا لكل ظلم واعتداء. أراد أن يدرس القانون لكي يتمكن من محاسبة أوصيائه ومناقشتهم، فتتلمذ على «إساييس» الذي كان من علماء القانون اشتهر بالفصاحة والأسلوب الأنيق.

ولاحظ أثناء مرافعاته الأولى في قضيته عجزه واضطرابه وخفوت صوته وتلعثمه في الكلام، فصمم على أن يستكمل ما ينقصه ليكون خطيبا قادرا على الكلام والمرافعة. لقد أدخلته أمه المدرسة في طفولته فنال حظا من التعليم، ثم قرأ كتب التاريخ والأدب، وأعجبته فصاحة الخطباء، وفننه ما يحظون به من تصفيق الناس وإعجابهم، فتأقت نفسه أن يكون خطيبا. وكانت بلاد اليونان

مقسمة في ذلك التاريخ إلى ولايات ومدن مستقلة ، وكانت أثينا أعظم حضارة ومدنية ، كما كانت تتمتع بنظام ديمقراطي ساذج ، فكان لها مجلس للشورى أو « جمعية وطنية » تتألف من خمسمائة عضو من افراد الشعب ، يرجع إليهم الأمر في شئون الحكم . وكان النظام القضائي يتيح لأي شخص أن يطلب إلى القضاء محاكمة من يرى أنه ارتكب أمراً يستحق عليه العقاب ، ويقوم الطالب في هذه الحالة بمهمة المدعى العام .

وفي ظل هذا النظام تزكو الخطابة ، ويستطيع الخطيب الفاني أن يكون ذا شأن كبير ؛ وإنه ليطمح إلى أن يكون خطيباً يشترك بفصاحته في إدارة شئون الحكم والسياسة ، ولكنه يرى أن محاولاته الأولى لا تبشر بخير ، فهو ضعيف الصوت ، قصير النفس ، مرتبك في إشارته ، وبأسائه لثقة تزيد في ارتباكها عند الكلام . وفي غمرة يأسه وحيرته صادفه « ساتيروس » الممثل الشهير الذي استكشف ما يتمتع به « ديموستين » من عقل يتوقد ذكاء ، وقلب يشتعل حماسة ، ونفس تضطرم بالطموح ، فشجعه ونفخ فيه من روحه وأعاد إليه الثقة بنفسه ، وأقنعه أن لديه مواهب الخطيب ولا ينقصه إلا حسن الإلقاء وإجادة النطق ، وهو شيء يكسب بالمران .

ويتحدث الرواة عن الجهود المصنية التي بذلها « ديموستين » في تذليل ما اعترضه من صعاب ، فقد شعر بأن الطبيعة وهبته نفساً طموحة إلى التحليق ولكنها قصت من جناحيه ، فصمم على أن يناضل حتى يصل إلى القمة التي يريد ، وبدأ رياضة شاقة بعزيمة لا تعرف اليأس .

وبروى المؤرخ « بلوتارك » أن « ديموستين » شيد لنفسه حجرة تحت الأرض كان ينفرد فيها ليمرن على الخطابة ، وكان يقف أمام المزاة ليتخير الأشارات المناسبة وقت الإلقاء ، وكان يضع الحصى في فمه وهو يتسكلم ليحل عقدة لسانه ، ويصعد الجبل عدواً وهو ينشد أبياناً من الشعر بصوت مرتفع ، أو يقف

على ساحل البحر ويرفع صوته بالكلام حتى يغطي على هدير الأمواج ، وكان يخلق نصف رأسه ليرغم نفسه على ملازمة حجرته الشهر والشهرين لا يرى الناس منقطعا إلى دراسته وتربيته .

وبعد سنوات من هذه الرياضة الشاقة تكال جهاده بالفتاح ، ولم يعد يخشى الجمهور ، فلما ارتقى بعد ذلك منبر الخطابة ملك الأسماع والقلوب ، ولم يلبث أن أصبح خطيب الجمعية الوطنية ، بل خطيب أئمتنا الأعظم .

ومن عجب أن هذا اللسان الذى كان يثقل في فمه ، أصبح لسان أئمتنا الذى ينفث السحر ويلهب الحماسة ، حتى قال عنه « فنيلون » للمؤرخ الكبير :

« إننا إذ نسمع ديموستين لانسكر في كلماته ، فهو يبرق ويرعد ، وهو سيل يحرف كل شئ يعترض سبيله ، فلا نستطيع أن ننتقده أو نمجبه ، لأننا نكون قد فقدنا السيطرة على مشاعرنا . . »

والواقع أن من يقرأ خطب « ديموستين » اليوم يشعر فيها بصدق اللهجة والإخلاص الذى يوحى إليه الثقة فى الخطيب ، ويروعه منها التدفق وغزارة المادة والمطلق السليم ، وبجدها مزاجا رائعا من الموضوعية التى تقنع العقل والحماسة التى تثير الشعور . وكانت هذه أخص خصائص أسلوبه الخطابى .

وكانت عبقرية ديموستين متشعبة متعددة الجوانب ، مما جعله فريدا فى العالم القديم ، فقد جمع فى شخصه بين الوطنى المتحمس والسياسى البعيد النظر ، والفنان النابغ الذى لا يشق له غبار .

وقد خصص « دايونيسيوس » Dionysius بحثا عنه فقال إنه سما بالثر اليونانى إلى حد السكال بما قام به من مزج رائع بين عناصر كانت لاتزال متفرقة فى ذلك الوقت بل لقد فاق المتخصصين فى كثير من الفنون . فاق درسة « أنتيفون » Antiphon فى الوضوح والصفاء ، ومدرسة « إيسياس » Lysias

في الحماسة ، ومدرسة « إيزوكرات Isocrates في التنوع والقوة والشعور العميق .
هذا هو « ديموستين » وقد نضجت عبقريته ، واكتملت قوته ، فها هو
الدور الذي هيأ له القدر ليلعبه على مسرح الحياة ؟

لقد سخر مواهبه وعبقريته لخدمة وطنه ، وقضى حياته كلها مجاهدا في
سبيل مثل أعلى في السياسة وحكم الشعوب ، ومات في سبيل ذلك كما يموت
الأبطال والشهداء .

* * *

عندما درس « ديموستين » القانون كان يهدف إلى الانتفاع بذلك في
مباشرة قضيته وشئونه الخاصة ، ولسكنه لم يلبث أن اتخذ مهنة يتكسب بها ،
واحترف كتابة الخطب والمرافعات لمن يطلبها لإلقائها في المحافل أو أمام
المحاكم ، ثم نال أجازة رسمية في الحقوق ، وطفق يترافع بنفسه في مجالس
القضاء ، وجمع ثروة كبيرة .

وأخذ « ديموستين » يهتم بالسياسة ، وكانت مناقشات المجلس الأثيني
العام ، — وهو البرلمان الشعبي الذي يعقد في سوق المدينة ويشترك في مناقشاته
كل مواطن حر متمتع بحقوقه المدنية — ودراسته لتاريخ أثينا الحافل بالأجساد ،
تدفعه إلى الاهتمام بشئون السياسة والمشاركة في مناقشة قضايا وطنه .

وكانت المرحلة الأولى لكفاحه السياسي موجهة إلى النهوض بروح الشعب
الأثيني الذي كان قد نهذ تقاليده ، وخدت حميته وأنغمس في اللهو . كان
يرى أن أثينا هي الزعيمة الطبيعية لمدينة اليونان التي يجب أن تعيش في تعاون
فلا تعتدى إحداها على الأخرى . ولكي تضطلع أثينا بهذا الدور يجب أولا
أن تكون جديرة به ، ولهذا قدم ديموستين برنامجا عمليا لإصلاح الأنظمة
السائدة بصورة تبرز الديمقراطية ، وتزيد في ثروة الدولة ، وتضاعف قوتها

العسكرية . وأخذ يطالب بإصلاح القوانين وإجراءات التقاضي ، ويهاجم محترفي السياسة والمتطفلين على التشريع ، وينادى بأن تقتصر أثينا لسكل مدينة يعتدى عليها حتى تسود العدالة السياسية ويزول الظلم والطغيان . ومن كلماته قوله « إن الظلم والخداع ونقض العهد لا يمكن أبداً أن يؤدي إلى قوة حقيقية . إنها قد تؤدي إلى سيادة وقتية ، ولكن الزمن لا يلبث أن يعصف بما شيدته من أحلام . وكأ أن الطبقات السفلى للمنزل يجب أن تكون قوية متينة ، كذلك يجب أن تقوم كل سياسة على دعائم من الصدق والشرف . . . » .

ولكن جهاد « ديموستين » الأكبر الذي وقف عليه حياته ، ومات في سبيله ، كان في تنبيه الأثينيين إلى خطر « فليب » ملك مقدونيا ، وحشهم على الاستعداد للقائه ثم تحريرهم بعد ذلك على مقاتلته .

وكان « فليب » والد الاسكندر الأكبر ملكاً لمقاطعة مقدونيا في شمال بلاد اليونان ، وكان يريد أن يسط نفوذه على بلاد اليونان كلها ، فهب ديموستين واتخذ من فصاحته سلاحاً شهرة في وجه فليب ليصد عنه سلب الأغريق حريتهم واستقلالهم ، وقضى بقية حياته يستنفر شعب أثينا للقتال ، ويحث شعب الأغريق على الثبات والنضال . وقد اشتهرت هذه الخطب باسم الخطب الفيليبية أو الفيليبات Philipics

فلنستمع إليه في الخطبة الفيليبية الأولى يحاول أن يشعل الحماسة الوطنية في شعب أثينا فيقول :

أيها الأثينيون . حتى متى سكونكم وإخلادكم إلى التواني ؟ متى تدب الحياة في عروقكم ، ويسرى الشعور بالواجب في أعصابكم ؟ ماذا تنتظرون ؟ هل تنتظرون معجزة تهبط عليكم من السماء ؟ أي دافع للنفوس الأبية لعمل الواجب

أقوى من تهديد مجدها بالزوال وشرها بالتمزق وكلتها بالتفريق ؟ إنه لعار لن يفارقكم ولن يحويه الموت يوم يوارىكم في قبوركم .

هل الوطنية أن تكتفوا بالذهاب هنا وهناك يسأل بعضكم بعضاً عما جاءه من أنباء فيليب ، فيقول واحد إنه مات ، ويقول الآخر بل هو مريض !! يا محبها . !! عجباً يمزق القلب . أى نبأ هناك غير أن مقدونيا يسمى لقهر أثينا وسحق مجدها واستعباد اليونانيين جميعاً . ماذا عسى أن تصيبوا من المغنم لومرض فيليب أو مات أو انقضت على رأسه مصيبة من السماء ؟ وحق الآلهة لئن لم تهبوا من رقادكم ليسلطن عليكم فيليب آخر ليس دون هذا في الشدة عليكم . فإن فيليب ما قوى اليوم إلا بضعفكم ولا تحرك إلا بسكونكم .

ثم يستنكر ديموستين فكرة الاعتماد على الجنود المرتزقة للأجورين فيقول :
— لا تقولوا المرتزقة . نريد رجالاً أحراراً أنبتهم تربة أثينا يرون سعادتهم في عزها وشقاءهم في ذلها ، من أرضها كانت بدايتهم ، وفي أرضها نهايتهم ، منها خلقوا وإليها يعودون كرة أخرى . أولئك هم أباة الضيم الذين يبذلون دماءهم لتخليص شرفها من الأذى . »

ثم يحذرهم من الحرب المباغثة ويدعو إلى الاستعداد لها قبل وقوعها ويقول :
— إن الحروب لا ضابط لها ولا قانون . فهل تريدون الانتظار حتى يأتىكم نبأ الإغارة المفاجئة فيضيع الوقت في المشاورة وحشد الجيوش وتدبير نفقاتها حتى تقوت الفرصة ، وتسقط المواقع التي تريد الدفاع عنها في يد أعدائنا قبل أن نحفر لنجدتها . إذا كنا فعلنا ذلك فيما مضى فلا أنه لم تكن لنا تجارب ولم نسكن قد ابتلينا بمثله . أما الآن وقد عظم الخطب ، وتفاقم الأمر ، وأصبح فيليب على أبوابنا ، فقد وجبت علينا المبادرة إلى تغيير هذه الخطة الخرقاء . »
وقد كانت هذه الخطبة ، وتهيو فيليب للاستيلاء على حصن اللاثينيون بالقرب

من بيزنطة ، باعنا لحمه أثينا ، فأصدرت قراراً بتحيز عدة أساطيل لحماية ذلك الحصن ، فعدل فيليب عن عزمه ، ولسكنه هاجم بعد ذلك « أولنتوس » وهي المدينة الوحيدة من مدن بحر إيجه التي بقيت وسعها أن توقف زحفه ، فاستنجدت بأثينا ، فأسرع ديموستين إلى المنبر يدعو إلى نجاتها ، ويصف سياسة فيليب ويرميه بالنفاق ، ويؤكد لأهل أثينا أن مصالحتهم تقضى عليهم بمقاومة طغيان فيليب ويقول :

— إنكم لا يمكن أن تكونوا أخطأتم أيها الأثينيون إذا أخذتم على عاتقكم عبء القتال من أجل الحرية والسلامة للجميع . لا وحق أبائنا الأولين الذين قبلوا العدو عند « ماراثون » ، لا وحق بحارة « سالاميس » ، لا وحق أولئك الأبطال من الرجال الشجعان الذين ترقد عظامهم في أرض الوطن ، والذين كللوا هاماتنا بالجد . أقسم بهم جميعاً ، وبكل من مات في سبيل البلاد . . . »

وقد استجابت أثينا لندائه ، وأرسلت حملة عسكرية تضم ثلاثين سفينة وألفين من الجنود المرتزقة ، غير أن سلوك القواد أضاع فائدة هذا المدد ، وبذل « فيليب » الأموال لقضاة « أولنتوس » ففتحو له أبوابها وسلموه المدينة ، فأباحها للنهب والسلب ، وباع أهلها ببيع السلع ، وأقام حفلات نخمه حضرها كثيرون من أنحاء اليونان ، فأحسن لقاءهم وملك قلوبهم بالمال والعطاء ، وعادوا إلى بلادهم فكانوا دعاة للهزيمة وأعواناً لفيليب .

وبسقوط أولنتوس وفشل أثينا في إنقاذها ، قوى في أثينا الحزب الذي يدعو إلى مسالمة فيليب ، والذي يضم خليطاً من الزعماء ، منهم الخلق ، ومنهم المفاقي ومنهم الخائن مثل « ديمادس » الذي كان صنيعة فيليب .

وكان ديموستين قد انتخب عضواً في مجلس الخمسة ، وأخذ يعلن فيه آراءه السياسية التي فرضتها عليه الأوضاع الجديدة ، واضطر إلى مسيرة دعاة

السلم ، فأرسلت أثينا وفداً للصلح مع فيليب ، وقد نص اتفاق الصلح على أن يكف الطرفان عن الحرب مع احتفاظ كل منهما بما تحت يده من البلاد .

ولكن هذا الصلح ما كان ليديم مادام فيليب لا يعدل عن أطماعه ، فقد أخذ يعمل لعزل أثينا عن باقي المدن الأغريقية ، وعاد ديموستين يحجوب أنحاء اليونان ليكشف عن نيات فيليب ، ويحث المدن اليونانية على التحالف مع أثينا ويحرض الأثينيين على الاستعداد والتأهب للقتال ، ويقول لهم :

— إن الصداقة التي تعقد بين الجمهوريات وبين الطغاة ليست بالصداقة الوثيقة التي يركن إليها . ماذا تريدون ؟ الحرية ؟ ألا ترون إذن أن ألقاب فيليب نفسها هي إنكار لهذه الحرية التي تنشدونها ؟ إن كل حاكم مستبد هو عدو للحرية وعدو للقانون . إنكم تحاولون تجنب الحرب ، ولكنني أخشى أن تقودكم هذه المحاولة إلى الوقوع تحت نير الاستعباد . . . »

ومضى « ديموستين » يخطب ويخطب ، ومهما حاولنا نقل بعض ما جاء في خطبة فستظل كلماتها رماداً متخلفاً عن نار الحياة وحرارتها بعد أن قام بينها وبين العالم ستار الموت والخلود ، وسيظل الحجاب قائماً بيننا وبين الخطيب ومنصته ، والجمهور وحماسته ، والزعيم وحرارته .

هذا هو ديموستين يرسم لأهل أثينا سياسة عملية فيقول من خطبة له في المجلس :

— إن منكم يا أهل أثينا من يعتقد أنه يخرج الخطيب إذا سأل : فماذا نفعل ؟ ولكنني أتلقف هذا السؤال وأجيب عليه فأقول لكم لا تفعلوا شيئاً مما تفعلونه الآن وافعلوا كل شيء لم تفعلوه ! وإنه لجواب حق وصدق . ولكنني سأزيد لكم الأمر إيضاحاً ، ولعل أولئك الذين سارعوا إلى السؤال يسارعون أيضاً إلى العمل . أذكروا أولاً أن فيليب قد نقض عهدكم ، وهذه حقيقة لا مرأى فيها

ولا محل للخلاف عليها . ثم أذكروا أيضاً أنه عدو أثينا الألد ، عدوها الذى يكره أرضها وأسوارها ، بل ويكره أولئك الذين يظنون منكم أنهم نالوا حظوة لديه . إن أعظم ما يخشاه فيليب ويمتقته هو حريقنا ونظامنا الديمقراطي ، وإنه ليهيئ أشراكه لكى يقضى على هذه الحرية وهذا النظام ، لأنه يعلم جيداً أنه لو أخضع جميع بلاد الأغريق فسوف يظل غير آمن مادامت ديمقراطيتكم سليمة لم تمس . وهو يعلم أنه لو أصابته الأقدار بهزيمة فإن جميع هذه البلاد التى قهرها سوف تسارع إلى الانضمام إليكم لاستعادة حريتها . إن فيليب لا يطبق الصبر على هذه الحرية الأثينية التى تقف موقف الجاسوس يرقب شروره وآثامه ، فهو يعبىء جيوشه وينصب أشراكه لقتالنا .

والآن ماذا يجب عليكم أن تفعلوا ؟ يجب أن يسارع كل منكم إلى التبرع بنسبة ما يملك ، ثم انهمضوا بالجيش واحتفظوا بقوات مسلحة قوية حتى إذا نهياً فيليب لغزو الأغريق وجدتم الجيش اللازم لصدده وامداد حلفائكم . لا تحدثوني عما يحتاج إليه هذا العمل من نفقات ومتاعب ، فإنى لست أنكرها ولكنهم تهون كلما إذا نظرنا إلى الخطر الذى يهددنا .

هل تظنون أن فيليب لن يفاكم بأذى إذا ظلتم وادعين لا تحفلون بما يعمل ؟ لو أكد لكم ذلك أحد الآلهة فأنى لا أشير به عليكم ! أجل .. لأنه لخير لى أن أهلك من أن أشير عليكم بهذا ، فليشر به من يشاء غيرى ، واستمعوا لأقواله إذا أردتم ، أما إذا كنتم تشعرون بما أشعر به ، وترون معى أنه كلما امتدت فتوحات فيليب كان فى ذلك تقوية له وسدد يشد أزره علينا حين نضطر إلى مكافحته .. إذا كنتم ترون ذلك فلم تترددون ؟ وماذا تنتظرون ؟ هل تنتظرون حتى تقع الواقعة ويضيع الشرف ؟ هل تنتظرون حتى تشاهدوا رجال فيليب فى طرقات أثينا يلقونكم بالصفع والجلد ؟ ألا لا قدرت الآلهة .. فإن مجرد النطق بهذه الكلمات ذل ومهانة .. »

بهذه الكلمات التي تنقد حماسة وإخلاصاً كان ديموستين يدعو الإثنيين إلى القتال، ولم تكن هذه الخطب مجرد عبارات حماسية تستهوى السامعين، ولكنها كانت تحوى من أدلة الأفتناع ما جعل فيليب نفسه يقول عن ديموستين « إنى لأعطيته صوتى ليعلم الحرب على بلادى وأسلمه قيادة الجيوش .. »
وما أعظم هذه الشهادة من عدوه الذى كان هدفاً لسهام بلاغته، والفضل ما شهدت به الأعداء .

. . .

ولا يتسع المجال هنا للتفصيل ما كان من نزاع وحروب بين مقدونيا وأثينا وحسبنا أن نذكر أن الحوادث كانت تجدد ديموستين دائماً فى انتظارها، وأن الخطوب كانت تلقاه مترصداً لها يلقاها أقوى ما يكون إيماناً، وأثبت جناناً، وأفصح لساناً، لا يخشى العدو الظافر الذى كان يكتسح البلاد من حوله، بل كان ذلك يزيد إيماناً بصحة فكرته، وصدق دعوته. وعبثاً حاول « فيليب » أن يشتريه بالمال كما اشترى غيره من زعماء أثينا وخطبائها .

وقد جرد فيليب الحملات على تراقيا واحتل كثيراً من مدنها، ولما رأت بلاد الفرس تقدم « فيليب » وتوغله عملت على محاربته، فقام ديموستين يحث أثينا فى الخطبة الفيلبية الأخيرة على انتهاز الفرصة وتحليص بيرنثوس وبيزنطة من فيليب، فسيرت أثينا إليها أسطولا ضخماً، تبرع ديموستين بشراء وتجهيز إحدى سفنه من ماله الخاص، فلم ينجح فيليب فى الاستيلاء على بيزنطة واضطر إلى رفع الحصار عنها والعودة خائباً. وارتفعت مكانة ديموستين فى أعين أهل أثينا، فأهدوه تاجاً من الذهب اعترافاً بفضله وتقديراً لجهاده .

ولكن فيليب عاد فاستولى على بعض المدن التى تفتتح أمامه الطريق لجنوب اليونان، وهدد بذلك أثينا، فدعا ديموستين إلى الحرب، وسافر إلى بيوتيا،

وحملها بسحره على التحالف مع أثينا ، والتقى الجيشان ، ولكن فيليب هزمهما هزيمة ذكراه ، وإن كان قد قتل بيد أحد ضباطه وهو يحتفل بانتصاره وخلفه ابنه الإسكندر الأكبر .

وعندما ذاع خبر قتل « فيليب » عمت الفرحة بلاد اليونان ، وحمل أهل أثينا ديموستين على الأعناق وأدخلوه إلى المجلس العام وعلى رأسه أكليل من الزهر ، فهاجم سياسة مقدونيا ، ودعا مواطنيه إلى الثورة على الإسكندر . وأرسلت أثينا بناء على نصيحة ديموستين سفراءها إلى البلاد اليونانية تدعوها إلى مقاومة خليفة « فيليب » والثورة عليه ، فتمردت مدينة « ثيبا » وأعلنت العصيان .

ولكن الإسكندر أسرع بالعودة من آسيا الصغرى لأخذ حركات التمرد ، وزحف على « ثيبا » وسحق ثورتها ، ونسكل بأهلها ، ودمر جميع منازلها ولم يبق منها غير منزل واحد هو منزل الشاعر « بيندار » .

وبدأت « أثينا » تستعد للحصار وقد عصفت بها الرعب ، ولكن الإسكندر لم يزحف عليها ، واكتفى بارسال وفد يطلب باسمه تسليم عدد من الزعماء والقواد اعتبرهم مسئولين عن الحركات المعادية له ، وكان في طليعتهم ديموستين .

واستولت الخيرة على أثينا بشأن هذا الطلب ، وتناقش فيه مجلسها ، واشترك ديموستين في المناقشة ، وروى قصة قال فيها إن الذئب عاهدت الرعاة مرة على ألا تهاجم القطيع إذا سلموها كلاب الحراسة ، فقبل الرعاة ، ولكن الذئب عندما رأت الخطيرة بعد ذلك خالية من كلاب الحراسة هاجمت القطيع وفيتكت به .

ورفض المجلس طلب تسليم الزعماء والقواد ، وأرسل إلى الإسكندر وفدا يلتمس منه العفو عن خصومه ، فنجح الوفد في مسامحه ، وتم الصلح بين أثينا والإسكندر المقدوني .

(م ٢ — خطباء)

واندفع الاسكندر يتابع سياسة أبيه ، وحقق انتصارات كبيرة في كل مكان ، ثم انحدر بجيشه الظافر حتى بلغ الهمد .

وكان « ديموستين » في خلال ذلك يتبع سياسة الخذر حتى لا يعرض أثينا لما تعرضت له « أثينا » من دمار . وامتزجت حياة ديموستين في هذه الفترة بقصة غريبة . ذلك أن « هاربال » الذي كان وزيراً للمالية الاسكندر تمرد عليه ، وانتهز فرصة انشغاله بالحرب في آسيا فاستولى على مبالغ طائلة من أمواله ، وجهرز أسطولا من ثلاثين سفينة ، وحيشاً من المرتزقة ، وهرب إلى شاطئ أثينا ليشعل الثورة على الاسكندر . ولما كان أثينا رفضت قبوله بنصيحة ديموستين ، فذهب « هاربال » بمفرده إلى « أثينا » وأعلن في مجلسها العام أنه يضع نفسه وأمواله وجنوده ومراكبه تحت تصرفها ، موها إياها أن قواد الاسكندر يتحفظون للتمرد عليه . وانقسم أهل أثينا إلى فريقين ، فكان فريق يرى التعاون مع « هاربال » وإعلان الحرب على الاسكندر الذي كان مشغولاً بحربه في آسيا بينما رأى فريق آخر على رأسه ديموستين ابعاد « هاربال » وعدم الزج بأثينا في حرب لا تملك فيها من القوى ما يؤهلها لمواجهة قوى الاسكندر التي بلغ من تعاضمها أنها أطمعت صاحبها في غزو العالم كله . وفي غمرة هذه الحيرة أرسلت أم الاسكندر والقائد المقدوني « أنتيباتر » الوصيين على مقدونيا ، وفدا إلى المجلس الأثيني العام يطلبان منه تسليم « هاربال » والمال الذي في حوزته . واقترح « ديموستين » القبض على « هاربال » وحراسته حتى يعود الاسكندر ، وحفظ المال الذي معه في الأكربول ، فوافق المجلس على الاقتراح . ولما كان « هاربال » هرب بعد ذلك من المعتقل ، وتبين أن نصف المال الذي كان مودعا في الأكربول قد اختفى . ولما كان هذا المال محفوظاً تحت إشراف لجنة يرأسها ديموستين ، فقد اتهمه خصومه بالاهمال الجسيم في مراقبة الحراس ، وأناروا الشك حوله ، فطلب ديموستين من المجلس تكليف لجنة لتحقيق الموضوع

وأعلن أنه يقبل حكم الموت إذا تبين أنه أخذ شيئاً من هذا المال. وانتهى التحقيق بادانة ديموستين ، دون تقديم دليل مادي على هذه الإدانة ، فحكم عليه بأن يدفع غرامة قدرها خمسون وزنة .

ولكن ديموستين هرب إلى إحدى الجزر حيث أقام في منفاه بعيداً عن أثينا .

ولم تمض شهور على مغادرة ديموستين وطنه ، حتى توفي الاسكندر في مدينة بابل عام ٣٢٣ ق . م بتأثير الحمى . وهبت أثينا مرة أخرى للتخلص من النفوذ المقدوني ، وانهارت مكانة صفائح مقدونيا ، وأصدر المجلس العام قراراً بدعوة ديموستين للعودة إلى بلاده ، فعاد إلى أثينا كما يعود الأبطال الظافرون ، وخرج لاستقباله الأهالي يتقدمهم القضاة والحكام والسكبان .

وبهذا الاستقبال سقطت عن ديموستين العقوبة المعنوية ، ولجأ المجلس العام إلى نوع من الحيلة لأعفائه من الغرامة الضخمة التي حكم بها عليه والتي لم يكن يحيز القانون إلغائها . فقد كان من المعتاد أن يمنح الرجل الذي يقدم الضحية لمذبح الآله « زيوس » مبلغاً من المال ، فعهد المجلس إلى ديموستين القيام بهذه المهمة في مقابل « خمسين وزنة » وهي قيمة الغرامة .

وكانت الحرب قد اشتعلت بين أنتيباتر Antipater الذي حلف الاسكندر على حكم مقدونيا واليونان ، وبين البلاد الأغريقية النائرة على حكمه وعلى رأسها أثينا ، وحقت البلاد النائرة بعض الانتصارات اللامعة في أول الأمر ، ولكنها لم تلبث أن هزمت في موقعة كرانون Crannon سنة ٣٢٢ ق . م ، واقتربت الجيوش المنتصرة من أثينا .

وبدأت البلاد المحاربة ترسل وفودها إلى القائد المقدوني لمفاوضته في الصلح واستعداد الحزب الموالي لمقدونيا في أثينا نفوذه القديم فأرسلت أثينا تطلب الهدنة من أنتيباتر .

وأعلن انقيباتر استعدادده للتوقف عن مهاجمة أثينا بشرط أن تخضع لمطالبه ومنها تسليم عدد من الزعماء الوطنيين في مقدمتهم ديموستين .
واستطلاع «ديمادس» أكبر خصوم ديموستين أن يحمل المجلس على قبول شروط القائد المنتصر .

وأدرك الخطيب العظيم أنها النهاية . فهرب إلى جزيرة كالوريا ، ولجأ إلى معبد الاله «بوسيدن» الذي كان حرماً يقدسه أهل اليونان .

وكان «أنقيباتر» قد أرسل عملاقاً من أتباعه يدعى «أركياس» الذي بدأ حياته ممثلاً للقبض على ديموستين ، لخاصر المعبد مع فرقة من فرسان تراقيا ، وحاول أن يحمل ديموستين على الخروج من المعبد المقدس ، فأخذ يؤكد له أن القائد المقدوني سيعفو عنه لو سلم نفسه .

وجلس ديموستين صامتاً يحرق في الأرض وكأنما كان يدبر في رأسه أمراً ثم نظر إلى أركياس وقال له متهمكها :

— إنك يا أركياس لم تستطع يوماً أن تؤثر في بتمثيلك ، وإن استطعت اليوم أن تؤثر في بوعودك !

فغضب أركياس ، وبدأ يهدد ويتوعد ، فقال له ديموستين :

— إنك تتكلم الآن كمقدوني ، أما قبل ذلك فقد كنت ممثلاً زائفاً .

ولمعت عينا ديموستين بعزم رهيب ، فقال لرسول انقيباتر :

— انتظر حتى أكتب لأصدقائي .

ثم انسحب إلى داخل المعبد ، ولسكنه كان ظاهراً لمن في الخارج ، وتناول قصاصة ورق ، ثم جلس أمام منضدة في الهيكل كأنه يريد الكتابة ، ووضع القلم في فمه وعض عليه بأسنانه كما كانت عادته عند الكتابة ، ثم تقلصت

عضلات وجهه فمال برأسه إلى الخلف ، وسحب عباءته فغطى بها وجهه . ورأى ذلك الواقفون بباب المعبد، فظنوا أن الخوف قد استولى على الخطيب العظيم ، ودخل إليه أركياس يريد أن يشجعه على النهوض ويكرروعوده ومساوماته .

وكان ديموستين قد شعر بأن السم الذي امتصه من القلم بدأ يسرى في أوصاله ، فأزاح العباءة عن وجهه وقال لأركياس :

— يمكنك الآن أن تلعب في المأساة دور « كريون » كما تشتهي ، ويستطيع أعداء أثينا أن يطرحوا جثتي للجوارح بغير اكتراث ، ولسكني أيها الآله الكريم « بوسيدن » أترك معبدك وما زلت حيا كي لا أسمح لأنتيبار ورجاله أن يدنسوا قداسته .

وتحرك ديموستين نحو الباب وهو يناديهم ويطلب إليهم أن يساعدوا خطواته المترنحة . ولم يكده يتخطى عتبة معبد الآله حتى انهارت قواه فسقط ، وفي صيحة أخيرة أسلم الروح .

الإمام عليّ

« لا يفتينّ أحد في المسجد » وعلىّ « حاضر »
عمر بن الخطاب

الأمام علي

كان « علي بن أبي طالب » إمام الفصحاء ، وسيد الباغاء ، وكان كلامه أبلغ كلام بعد القرآن والحديث . وقد فاضت كتب التاريخ العربي بالكثير المأثور عن فصاحته ومنزلته العلمية ، ومقدرته الخطابية :

قال « عبد الحميد بن يحيى » :

— حفظت سبعين خطبة من خطب الأ صلح ، ففاضت ثم فاضت .. !

وقال ابن نباته :

— حفظت من الخطابة كنزاً لا يزيده الإنفاق إلا سعة وكثرة . حفظت مائة فصل من مواعظ علي بن أبي طالب .

وكان الأمام علي رضي الله عنه واسع المعرفة ، فما سمعنا بعلم من العلوم الإسلامية أو العلوم القديمة لم ينسب إليه ، فكان أ برع الصحابة في علوم الدين ، إماماً في الفقه والتفسير ، حجة في الفتيا . وكان عمر بن الخطاب يرجع إليه في كثير مما يشكل عليه من المسائل ، وروى عنه أنه كان يقول « لولا عليّ لهلك عمر » ، ويقول « لا بقيت لمعضلة ليس لها أبو الحسن » . كما روى عنه أنه قال « لا يفتين أحد في المسجد وعليّ حاضر » .

وكان النبي عليه الصلاة والسلام يقول « أقضاكم عليّ » ، وكان النبي قد دعا له عندما بعثه قاضياً إلى اليمن فقال « اللهم أهد قلبه وثبت لسانه » .

والأمام علي هو الذي ابتدع علم النحو ، وأملى أصوله الأولى على أبي الأسود الدؤلي ، وقد اتصلت الحلقات بينه وبين علماء الكلام والتوحيد ، كما اتصلت بينه وبين علماء الفقه والشريعة ، وعلماء الأدب والبلاغة ، فهو أستاذ هؤلاء جميعاً ، وكان لذلك أحق الأئمة بلقب الأمام .

سئل عبد الله بن عباس ، وكان من أعلم الصحابة في الفقه والدين والتفسير « أين علمك من علم ابن عمك ؟ » فقال « كنسبة قطرة المطر إلى البحر المحيط .. » .

وكانت هذه الثقافة الواسعة ، والإحاطة الشاملة مادة خصبة تغذى خطبه وأحاديثه فتضفي عليها الجدد والرصانة ، وتهيء له الحكمة وفصل الخطاب .

وكان رضى الله عنه يعتز بعلمه ، ويؤثر عنه أنه كان يقول « أسألوني قبل أن تفقدوني ، فوالذى نفسى بيده ، لا تسألوني فى شىء فيما بينكم وبين الساعة ، ولا عن فئة تهدى مائة وتضل مائة ، إلا أنبأتكم بناعقها وقائدها وسائقها ومناخ ركابها ومحط رحالها .. » .

أما أسلوبه فى الكتابة فكان أسلوب الأديب الذى سبق غيره إلى التفنن والتجويد ، وأضفى على الكتابة صبغة الأنشاء الذى يقتدى به فى الأساليب . وقد نسب إليه ديوان من الشعر يحوى ألفا وأربعمائة بيت أكثرها فى الحكمة والزهد والابتهاال ، غير أن هذا الشعر مشكوك فى صحته نسبه إليه . أما النثر فقد وصل إلى أيدينا الكثير مما جمعه الرواة ، وهو يشمل على خطبه وكتابه فى الحكم والمواعظ والأمثال وغير ذلك . وأشهر هذه الكتب « نهج البلاغة » وهو ما جمعه الشريف الرضى من خطب الإمام ورسائله وكتابه ، وإن كان يشتمل بدوره على جزء مشكوك فيه ، مما أقجمه الرواة على كلام الإمام .

هذا هو الإمام العالم الفقيه الأديب ، ومن هذه العناصر يبرز الإمام الخطيب . فإذا قرأنا خطبه ، تمثل لنا الإمام خطيبا نادر المثل . عقل ذكى ، واسع الأفق ، يلم بشتى العلوم ، ومعرفة دقيقة بخصائص الأشخاص وخصائص الأشياء ، وأسلوب يمتاز بالجزالة والفحولة ، يتدفق بالقول البليغ المقنع ، يخاطب العقول والقلوب .

وكانت له من الصفات ما يلزم الخطيب في مثل عصره والمجتمع الذي عاش فيه . فكان شجاعاً تضرب الأمثال بشجاعته ، ويروى عنها ما يشبه الأساطير . فكان الخطيب الصريح الجريء الذي يجهر بما يعتقده حقاً لا يعرف نفاقاً أو رياء ، يجبه الناس برأيه واضحاً صريحاً ، ويخاطبهم وقد تناقلوا عن نصرته وحرب أعدائه فيقول لهم : « يا أشباه الرجال ولا رجال ، يا طعام الأحلام ، يا عقول ربات الحجال !.. »

ويقول لهم من خطبة في غارة الضحاك بن قيس على الحيرة :

— أيها الناس المجتمعة أبدانهم ، المختلفة أهواؤهم . كلامكم يوهى الصم الصلاب ، وفعلكم يطمع فيكم الأعداء . ماعزت دعوة من دعاكم ، ولا استراح قلب من قاساكم . أعاليل بأضاليل ! أي دار بعد دراكم تمنعون !؟ ومع أي إمام بعدى تقاتلون ؟

المغرور والله من غررتموه ، ومن فاز بكم فقد فاز والله بالسهم الأخيب . أصبحت لا أصدق قولكم ، ولا أطمع في نصركم ، ولا أوعد العدو بكم . ما بالكم ؟ ما دواؤكم ؟ ما طبيكم ؟ القوم رجال أمثالكم . أقولا بغير علم ، وغفلة عن غير ورع ، وطمعاً في غير حق .. ؟ »

وكان حاضر البديهة ، سريع الجواب ، يسعفه علمه الواسع بالرد المطلوب . كان يخطب على المنبر في الكوفة ، فسأله رجل عن نصيب الزوجة في ميراث ميت ترك زوجة وأبوين وابنتين ، فأجابه على الفور « صار ثمنها تسماً . » . ومضى في خطبته .

وقد اشتهر عليه السلام بساحة الخلق ، وطلاقة الوجه ، وكثرة الابتسام ، وهي صفات محبوبة في الخطيب . وقد روى عن عمر بن الخطاب أنه كان يقول له « لله أبوك لولا دعاة فيك .. ! »

وقد حاول عمرو بن العاص استغلال هذا الأمر في محاربة عليّ ، فأخذ يردد بين أهل الشام أن علياً ذو دعاية شديدة ، ليقدم بذلك في صلاحيته للخلافة ، حتى اضطر الأمام إلى الرد عليه ، فقال في إحدى خطبه :

— « عجبا لابن النابغة ، يزعم لأهل الشام أن فيّ دعاية ، وأنى أمرؤ تلعبه ^(١) . لقد قال باطلا ، ونطق آثما . إنه ليقول فيكذب ، ويمد فيخلف ويسأل فيلحف ، ويسأل فيبخل ، ويخون العهد ، ويقطع الآل .. الخ »
ولكن هذه الدعاية المنسوبة إليه إن صحت ، كانت تقربه إلى القلوب ولا تفتقص من هيئته .

قال معاوية لقيس بن سعد :

— رحم الله أبا الحسن ، لقد كان هاشما بشا ذا فكاكة .
فقال قيس :

— أما والله لقد كان مع تلك الفكاكة والطلاقة أهيب من ذي لبدتين ^(٢)
قد مسه الطوى ^(٣) .

وقال « ضرار » من كلام له في وصفه رضى الله عنه ، عندما ألح عليه معاوية أن يصفه ، قال :

— كان يقول فصلا ، ويحكم عدلا ، يتفجر العلم من جوانبه ، وتنطق الحكمة من نواحيه . كان فينا كأحدنا ، يجيبنا إذا سألناه ، وينبئنا إذا استنبأناه ونحن مع تقريبه إيانا وقربه منا ، لا نكاد نكلمه لهيئته ، ولا نبذنه لعظمته .

هذه بعض صفات الأمام الخطيب ، وملامح نفسه التي تشترك في تكوين شخصيته كخطيب .

(١) كثير اللعب والمزاح (٢) كناية عن الأسد (٣) الجوع

أما ملامح جسمه فقد ذكر من وصفوه أنه كان ربعة في الرجال ، أسمر اللون ، أصلع الرأس ، طويل الراحية ، له عينان دججوان واسعتان ، حسن الوجه ، واضح البشاشة ، عريض المنكبين ، قوى العضل ، يميل إلى السمرة في غير إفراط ، يتسكفاً في مشيته على نحو يقارب مشية النبي (ص) وكان رائع الصوت قويه ، يصيح الصيحة في الحرب فتنخلع لها قلوب الشجعان .

هذه هي عليّ ، الفارس الشجاع ، والفقير العالم ، والخطيب البليغ ، تترج هذه الصفات كلها بنفسه ، لتكمل لنا ملامح الخطيب ، فإذا هو سيد المقابر في عصره ، ونموذج رائع للخطيب العظيم في كل العصور .

فما هي العوامل التي هيأت له هذه المنزلة الرفيعة في عالم البلاغة والخطابة؟

هذا سؤال يسهل الجواب عليه لمن ينظر في نشأة الأمام وتاريخه .

فالأمام عليه السلام كان من البيت الهاشمي ، أكرم عناصر قريش ، وأفصح العرب لساناً ، وكان جده « كعب بن لؤي » وهو الجد السابع له وللنبي ، من أقدم خطباء العرب ، ولما مات أكبروا موته وأرخوا به حتى كان عام الفيل . وكان أجداده قصي وهاشم وعبدالمطلب ، وأبوه أبو طالب ، كلهم من خطباء العرب المعدودين .

ولما بلغ « علي » السادسة من عمره أصابت قريشا أزمة وقحط . فأشار النبي على عميه حمزة والعباس أن يعاونوا أبا طالب في تربية أولاده ، فكان « علي » من نصيب النبي عليه الصلاة والسلام . وهكذا نشأ « علي » في بيت النبوة ، ينعم برعاية ابن عمه العظيم ، حتى إذا أظهر الرسول دعوته ، كان (علي) أول من آمن به من الصبيان ، وكرم الله وجهه عن السجود للأوثان .

شب علي في حجر النبي ، أفصح الناس وأبلغهم ، فكان النبي أستاذه الأول ، ثم تعلم الكتابة وهو صغير ، ودرس الكلام البليغ من روايات

الألسن وتدوين الأوراق . ولما نزل القرآن كان من كتاب وحى النبى ، وكان أول من حفظ القرآن كله ، واشتغل بجمعه وتدوينه ، فتمت له بعد الرسول على القرآن ، أبلغ كلام عربى عرفه الناس ، وجعله موضوعاً للدرس والتفكير ، ومصدراً للاقتباس والإلهام .

ولقد ساعده على ذلك أنه بقى نحو ثلاثين سنة بعيداً عن مشاغل الحكم والسياسة ، متفرغاً أو يكاد يتفرع لفنون البحث والدراسة ، ثم بويج بالخلافة بعد فتنة من أروع الفتن الدامية فى تاريخ الإسلام ، وهى مقتل الخليفة عثمان بن عفان . ومنذ اليوم الأول لخلافته لم تهدأ الفتن ، بل زادت وأستفحل أمرها ، وثارت فى وجهه عناصر مختلفة الأغراض والأهداف ، ولكونها كلها تجتمع على مقاومته وحربه ، وهكذا قضى أيام خلافته كلها يجاهد العناصر النائرة ، ففجرت هذه الأحداث والخطوب فى قلبه يذابيع البلاغة ، وجرت على لسانه الخطب الخالدة فيما اقتضته تلك الظروف العصبية من أغراض ، واتسع المجال أمام فصاحته للظهور .

* * *

هذه لمحة عن العوامل التى هيأت للامام « على » الوصول إلى تلك المنزلة الرفيعة من البلاغة بحيث كان أفقه العلماء ، وأبلغ الخطباء فى زمانه . فما هى الأغراض التى كانت تدفع به إلى المنبر ، ليلقى فى سمع التاريخ تلك الكلمات البليغة الخالدة ؟

كانت الأغراض التى تناوّلها الإمام فى خطبه مختلفة متنوعة . وإن من يطالع مجموع هذه الخطب ليأخذ العجب من تنوع أغراضها ، وتعدد نواحيها ودواعيها . وقد سبق غيره إلى الكلام فى موضوعات لم يطرّقها الخطباء ، ولم يدون لأحد من الخلفاء والصحابه مثل مادون له من خطب كثيرة تدل على

اتساع أفق تفكيره ، وشمول ثقافته . كما أن الاحداث العصبية التي واجهها في سنوات خلافته ، فتحت أمامه أبوابا جديدة للخطابة ، فكان « نهج البلاغة » كما قال الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده :

« حاويا جميع ما يمكن أن يعرض للكاتب والخطيب من أغراض الكلام فقد تعرض للمدح والذم الأدبي ، وللترغيب في الفضائل ، والتنفير من الرذائل والمحاورات السياسية ، والمخاضات الجدلية ، ولبيان حقوق الراعى على الرعية وحقوق الرعية على الراعى ، وأتى على الكلام في أصول المدنية ، وقواعد العدالة ، وفي النصائح الشخصية والمواعظ العمومية . . . »

ولقد جاء الإسلام ففرض على الناس صلاة الجمعة ، ومن أركانها خطبة يلقها الإمام قبل أن يصلى بالناس . والغرض من هذه الخطب وعظ الناس وإرشادهم إلى ما ينفعهم في أمور دينهم ودنياهم . وإننا حين نقرأ أخطب الإمام في هذا الغرض نجد أنه قد طبعها بطابعه ، وأفاض عليها من علمه وتفكيره . فهو يتحدث فيها عن الله سبحانه وتعالى حديث المفكر المتأمل ، يستدل على وجوده تعالى ببدائع صنعه ، وعجائب مخلوقاته ، فتراه يصف السامعيه في بعض خطبه الطاووس والخفاش والتملة وصفاً هو آية في الدقة والبلاغة ، ليعين لهم حكمة الله ومقدرته ، ويذكر في بعض هذه الخطب من صفات الله ما كان في الواقع أساساً لعلم التوحيد وهو يعظ السامعين ليزهدهم في التكالب على الدنيا ، ويحبب إليهم التزود للآخرة بالعمل الصالح ، والجهاد في سبيل الله . ويصف لهم الأنبياء السابقين ، والقرون الماضية ، والعهود الخالية ، ويستخلص من ذلك العبرة والموعظة الحسنة ولهذا كانت خطب الأمام في الوعظ فريدة في بابها . كانت مزيحاً من حرارة إيمانه ، وغزير علمه ، وعمق تفكيره . وكان يلقى ذلك كله على الناس في أسلوب جزل بليغ .

فمن كلامه فى خطبة طويلة سميت بالخطبة الغراء يعظ الناس ويحذرهم
وسوسة الشيطان :

— أوصيكم بتقوى الله الذى أعذر بما أنذر، وحذركم عدوا نفذ فى الصدور
خفياً ، ونفث فى الأذان نجياً ، فأضل وأردى ، ووعد فمى ، وزين سيئات
الجرائم ، وهون موبقات العظائم ، حتى إذا استدرج قريفته ، واستغلق رهيئته
أنكر مازين ، واستعظم ما هون .

ومنها يصف خلق الإنسان :

« أم هذا الذى أنشأه فى ظلمات الأرحام ، نطفة دهاقا ، وعلقة محاقا ،
وجنيناً وراضعاً ، ووليداً ويافعاً ، ثم منحه قلباً حافظاً ، ولساناً لافظاً ، حتى
إذا قام اعتداله ، واستوى مثاله ، نفر مستكبراً ، وخبط سادراً ، ماتحافى
غرب هواه^(١) ، كادحاً سعياً لذيها . . »

ثم يصف لهم سكرة الموت ، ووحشة القبر ، وعذاب الآخرة ، حتى قيل
فى خبر هذه الخطبة ، إنه لما خطبها اقشعرت الجلود ، وبكت العيون ،
ورجفت القلوب .

ومن خطبة له فى وصف الله سبحانه وتعالى :

— لا يشغله شأن ، ولا يغيره زمان ، ولا يحويه مكان ، ولا يصفه لسان .
لا يغرب عنه عدد قطر الماء ، ولا نجوم السماء ، ولا سوافى الريح فى الهواء ، ولا
ديب النمل على الصفا ، ولا مقيل الدر^(٢) فى الليلة الظلماء ، يعلم مساقط الأوراق ،
وخفى طرف الأحداق .. الخ .

(١) متج الماء نزع ، والغرب هو الدلو ، أى لا يستقى إلا من هواه .

(٢) الدر صغار النمل

ومن كلام له يذكر فيه حكاية أخيه « عقيل » عندما جاءه يطلب منه أن يعطيه من بيت المال ما يستعين به على إطعام أولاده. وكان عقيل قد كبر وكف بصره ، فأحى الأمام حديدة وقدمها إليه ، فظنها عقيل صرة مال ، فأهوى إليها بيده فأحرقها ، قال :

— والله لقد رأيت عقيلًا وقد أملق حتى استأخى من بُركم^(١) صاعا ، ورأيت صبيانَه شعث الشعور ، غبر الألوان من فقرهم ، وعادوني مؤكدا ، وكرر على القول مرددا ، فأصغيت إليه سمعى ، فظن أنى أبيع ديني وأتبع قياده مفارقا طريقتي . فأحيت له حديدة ثم أدنيتها من جسمه ليعتبر بها ، فضج ضجيج ذى دَنَف^(٢) من ألمها ، وكاد أن يحترق من ميسمها^(٣) . فقلت له ثكالك الثواكل يا عقيل ، أتئن من حديدة أحماها إنسانها للعبه ، وتجرنى إلى نار سجرها^(٤) جبارها لغضبه ؟ أتئن من الأذى ولا أئن من اللظى ؟

والله لو أعطيت الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها على أن أعصى الله فى نملة أسلمها جلب شعيرة ما فعلت . وإن دنيا كم عدى لأهون من ورقة فى فم جرادة تقضمها . ما لعلى ولنعم يقنى ، ولذة لا تبقى ؟! نعوذ بالله من سبات العقل ، وقبح الزلل ، وبه نستعين .

وقال فى خطبة له يصف بها المتقين ، وكان صاحب له يدعى « هام » قد ألح عليه أن يصف له المتقين حتى كأنه ينظر إليهم ، فقال :

— « المتقون هم أهل الفضائل ، منطقهم الصواب ، وملبسهم الاقتصاد ،

(١) البر بضم الباء القمع (٢) المرض الشديد

(٣) الميسم المسكواة (٤) أحماها

الدنيا فلم يريدوها ، وأسرتهم ففقدوا أنفسهم منها . . « إلى أن قال :

— ومن علامة أحدهم أنك ترى له قوة في دين ، وحزما في لين ، وإيمانا في يقين ، وحرصا في علم ، وعلمًا في حلم ، وقصداً في غنى ، وخشوعا في عبادة ، وتجملا في فاقة ، وصبرا في شدة ، وطلبا في حلال ، ونشاطا في هدى ، وتحرجا عن طمع ، يعفو عن ظلمه ، ويعطى من حرمه ، ويصل من قطعه . نفسه منه في عناء ، والناس منه في راحة ، أتعب نفسه لآخرته وأراح الناس من نفسه . الخ »
بمثل هذه الكلمات البليغة القوية كان يعظ الناس . وعندما بويع بالخلافة في المدينة ، خطب الناس ، فكان مما قاله في خطبته :

— ذمى بما أقول رهينة ، وأنا به زعيم . إن من صرّحت له العبر عما بين يديه من الملمات ، حجزته التقوى عن تقحم الشبهات . إلا وإن بليتكم قد عادت كهيئتها يوم بعث الله نبيكم صلى الله عليه وآله . والذي بعثه بالحق ، لتبليبلن بلبلة ، ولتغربلن غربلة ، ولتساقطن سوط القدر ، حتى يعود أسفلكم أعلاك ، وأعلاك أسفلكم . ألا وإن الخطايا خيل شمس ، تحمل عليها أهلها ، وخالت لجهنم ، فتتحممت بهم النار . ألا وإن التقوى مطايا ذلل تحمل عليها أهلها ، وأعطوا أزمته فأوردتهم الجنة .

* * *

لم تكن خطب الإمام « على » وعظا وإرشادا فحسب ، فإن أروع خطبه تلك التي تتصل بالفتن التي امتزجت بسنوات خلافته . ذلك أنه لم يكذب بيباع بالخلافة حتى بدأت متاعبه ، فتجلت في الخطابة مواهبه . فقد نقض طلحة والزبير البيعة ، وانضمت إليهما السيدة عائشة ، وخرج عليه معاوية بالشام ، ثم انقسم أتباعه بعد موقعة « صفين » وعصته فئة سميت بالخوارج . ووقف الإمام (م ٣ — خطباء)

وسط هذه العواصف الهوج يكافح ويناضل، ويجاهد بيده ولسانه ، ورويت عنه في هذا الكفاح أروع خطبه .

فعندما أحاط الثأرون بالخليفة الشهيد عثمان بن عفان وقتلوه ، أتجه الناس إلى علي بن أبي طالب ليبايعوه بالخلافة ، فتردد الإمام في قبول الخلافة ، وخطب فيهم قائلاً :

— دعوني والتمسوا غيري ، فإننا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان ، لا تقوم له القلوب ، ولا تثبت عليه العقول . إن الآفاق قد أغامت ، والحجة قد تنكرت ، واعلموا أني إن أحببتكم ركبت بكم ما أعلم ، ولم أصغ إلى قول القائل وعتب العاتب . وإن تركتموني فأنا كأحدكم ، ولعلي أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم . وأنا لكم وزيراً ، خير لكم مني أميراً .. »

كانت هذه كلمات الإمام لمن أرادوه على البيعة . رأى الأفق يضطرب بالأحداث فزهد في الخلافة بعد أن كان يرى أنه أحق الناس بها بعد وفاة النبي . إن الآفاق قد أغامت . ! هكذا قال لهم الإمام . وقد أغامت الآفاق حقاً ، وبدأت متاعبه منذ اليوم الأول لخلافته ، وقضى عليه أن يقضى سنوات خلافته القصيرة في نضال متصل مع خصومه والخارجين عليه ، وفاضت بلاغته في هذه الفترة بأروع خطبه الخالدة .

عندما نقض طلحة والزبير بيعتهما وخرجا من المدينة إلى البصرة حيث انضم إليهما خلق كثير ، أسرع إليهم الإمام بجميشه ، وظفر بهم في الموقعة المعروفة بموقعة الجمل .

وكان معاوية والياً على الشام ، فلما بوع لعل بالخلافة أيقن أنه سيعزله ، فامتنع عن مبايعته ، واتهمه بالإشتراك في قتل عثمان . وخرج « علي » لحربه ، والتقى بجميش معاوية في سهل « صفين » . فلنستمع إليه يخطب جنوده ويأمرهم

بما يتفق مع المبادئ الإنسانية ، وآداب الفروسية فيقول :

— « لا تقاتلوا القوم حتى يبدؤكم ، فأنتم بحمد الله على حجة ، وترككم إياهم حتى يبدؤكم حجة أخرى لكم . فإذا قاتلتموهم فهزمتموهم فلا تقتلوا مُدبراً ، ولا تجهزوا على جريح ، ولا تكشفوا عورة ، ولا تملأوا بقتيل . فإذا وصلتكم إلى رحال القوم فلا تتهكوا سترها ، ولا تدخلوا داراً إلا بإذن ، ولا تأخذوا شيئاً من أموالهم إلا ما وجدتم في عسكرهم ، ولا تهيجوا امرأة بأذى وإن شئتم أعراضكم ، وسببن أمراءكم ، فأهن ضعاف القوى والأنفس .. »

وبعد مناوشات طويلة اشتد القتال بين الجيشين . وكان « على » يخرج كل يوم فيقف بين الصفين ثم ينادى :

— يا معاوية ... علام يقتل الناس ؟ أبرز إلىّ وأبرز إليك ، فيكون الأمر لمن غلب .

ولكن معاوية لم يخرج إليه ، ورجعت كفة جيش الإمام ، وكاد أن يكسب المعركة ، لولا الحيلة المشهورة التي أشار بها « عمرو بن العاص » على صاحبه « معاوية » فرفع جيشه المصاحف على أطراف الرماح ، ونادوا بتحكيم كتاب الله . فلما رآها أصحاب « على » اختلفوا ، ورأى فريق كبير منهم قبول التحكيم ، فخطب فيهم « على » قائلاً :

— عباد الله .. أمضوا على حقكم وصدقكم وقتال عدوكم ، فإن معاوية وعمرا وأصحابهما ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن . أنا أعرف بهم منكم ، فقد صحبتهم أطفالاً ، وصحبتهم رجالاً ، فكانوا شر أطنال وشر رجال . ويحكم إنهم ما رفعوا المصاحف إلا خديعة ومكيدة .. ! »

ولكن هذه الصيحات ذهبت أدراج الرياح ، واضطره أصحابه إلى السكف عن القتال وقبول التحكيم . وكان بعد ذلك ما هو معروف من

اختيار الحكيمين ، وكتابة العهد بينهما ، واتفاقهما على الاجتماع بدومة الجندل في شهر رمضان ليحكم بين الفريقين . ورجع « على » إلى الكوفة التي اتخذها مقراً لخلافته ، وجيشه في شقاق واختلاف . ولم يلبث أن انشق عليه من أصحابه جماعة الخوارج ، رموه بالكفر لأنه قبل ذلك التحكيم ، وزعموه قبولاً للتحكيم في كلام الله وفي دماء المسلمين ! وقام « على » يخطب الناس ويقول :

— الحمد لله وإن أتى الدهر بالخطب الفادح والحدث الجلل . أما بعد ، فإن معصية الناصح الشفيق العالم المحرب تورث الحيرة ، وتعقب الندامة . وقد كنت أمرتكم في هذه الحكومة أمرى ، ونحلت لكم مخزون رأيي ، لو كان يطاع لتصير أمر ، فأيتهم على إباء المخالفين الجفافة ، والمناذرين العصاة ، حتى ارتاب الناصح بنصحه ، وضنّ الزند بقدره ، فكنت وإياكم . كما قال أخوه وازن :

أمرتكم أمرى بمنعرج اللوى % فلم تستبينوا الرشيد الاضحى الغد وهل أنا إلا من غزية أن غوت % غويت وأن ترشد غزية أرشد . ولما بُئس « على » من توبة الخوارج خرج إليهم بجيشه فسحقهم .

أما التحكيم فقد فشل عندما اجتمع الحكمان ، وانتهى بمهزلة محزنة ، فأراد « على » أن يتوجه لحرب « معاوية » بعد أن قضى على الخوارج ، ولكن أصحابه تناقلوا عن الحرب ، وانتحلوا المآذير لعودتهم ، وطلبوا تأجيل الحرب فترة يستعدون فيها ، ولكنهم لم يخرجوا بعد ذلك أبداً .

ورأى « معاوية » ضعفهم فكان يرسل جيوشه إلى أطراف الأقاليم التابعة له ليغير عليها وتقتل من فيها من الجند وتنهب الأموال . وقضى « على » هذه السنوات يحرض أصحابه على القتال ، وهم يتناقلون ويسوفون . وقد روى

عن الإمام في هذه الفترة أروع خطبه التي تنضح بالمرارة ، وتم عن ضيقه بأصحابه ويأسه منهم ، وتفيض باللوم والتأنيب والتقريع .

هذا هو الإمام يقارن في إحدى خطبه بين أصحابه وأصحاب معاوية فيقول :

-- أما والذي نفسى بيده ليظهرن هؤلاء القوم عليكم ، ليس لأنهم أولى بالحق منكم ، ولكن لإسراعهم إلى باطل صاحبهم ، وإبطائكم عن حق . ولقد أصبحت الأمم تخاف ظلم رعاتها ، وأصبحت أخاف ظلم رعيتي . استنفرتكم للجهاد فلم تنفروا ، وأسمعتكم فلم تسمعوا ، ودعوتكم سراً وجهاً فلم تستجيبوا ، ونصحت لكم فلم تقبلوا . أشهود كغيباب ؟ وعبيد كأرباب ؟ أتلو عليكم الحكم فتنفرون منها ، وأحسكم على جهاد أهل البغي فما آتى على آخر القول حتى أراكم متفرقين أيدي سباً . أيها الشاهدة أبدانهم ، الغائبة عقولهم ، المختلفة أهواؤهم ، المبتلى بهم أمراؤهم ، صاحبكم بطيع الله وأنتم تعصونه ، وصاحب أهل الشام يعصى الله وهم بطيعونه . لوددت والله أن معاوية صارفني بكم صرف الدينار بالدرهم ، فأخذ مني عشرة منكم وأعطاني رجلاً منهم . يا أهل الكوفة .. منيت منكم بثلاث واثنتين ، صم ذوو أسماع ، وبكم ذوو كلام ، وعى ذوو أبصار . لا أحرار صدق عند اللقاء ، ولا أخوان ثقة عند البلاء . يا أشباه الأبل غاب عنها رعاتها ، كلما جمعت من جانب تفرقت من جانب آخر » ..

وجاءته الأنباء يوماً بأن خيلاً لمعاوية أغارت على « الأنبار » ، وأن المغيرين قتلوا عاملاً له ، فخرج الإمام مغضباً يجر ثوبه حتى أتى النخيلة ، وتبعه الناس ، فرق رباوة من الأرض وارتجل هذه الخطبة الخالدة .

قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

— « أما بعد ، فإن الجهاد باب من أبواب الجنة ، فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذل ، وشمله البلاء ، ودَّيْتُ^(١) بالصغار وقد دعوتكم إلى حرب هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً ، وسراً وإعلاناً ، وقلت لكم أغزوهم قبل أن يغزوكم فوالذي نفسي بيده ما غزى قوم في عقر دارهم إلا ذلوا ، فتخاذلتم وتواكلتم ، وثقل عليكم قولي ، حتى شنت عليكم الغارات . . »

وبعد أن وصف لهم الحادث كما باغته قال :

— يا عجباً كل العجب ! عجب يمت القلب ، ويشغل الفهم ، ويكثر الأحزان ، من تصافر هؤلاء القوم على باطلهم ، وفشلكم عن حقكم . فقبحاً لكم وتركاً حين صرتم غرضاً ترمون ولا ترمون ، ويُغار عليكم ولا تغفرون ، ويعصى الله وتترضون . إذا قلت لكم أغزوهم في الشتاء ، قاتم هذه حمارة^(٢) القر ، أنظرونا حتى ينصرم الحر عنا . وإذا قلت لكم اغزوهم في الصيف ، قاتم هذه حمارة^(٣) القيظ ، أنظرونا حتى ينصرم الحر عنا . فإذا كنتم من الحر والبرد تفرون ، فأنتم والله من السيف أفر . يا أشباه الرجال ولا رجال ، وباطغام الأحلام ، وياعقول ربات الحجال . وددت أن الله قد أخرجني من بين ظهرائكم ، وقبضني إلى رحمته من بينكم . والله لوددت أني لم أركم ولم أعرفكم ، معرفة جرت ندماً وملأت صدرى غيظاً . لقد أفسدت على رأيي بالعصيان ، حتى قالت قريش إن ابن أبي طالب شجاع ولكن لا علم له بالحرب . لله أبوهم . . ومن ذا يكون أعلم بها مني أو أشد لها مراساً ؟ لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين ، ولقد نيفت اليوم على السنتين . ولكن لا رأي لمن لا يطاع . »

* * *

هذه أمثلة من خطب الإمام في الحث على الجهاد ، وهي كثيرة يمكن الرجوع إليها في « نهج البلاغة » لمن يريد المزيد .

ولقد ظل الإمام يهدر بالقول البليغ محاولاً استنهاض المهمل لحرب معاوية الذي استقل بالشام ، حتى قرر أخيراً أن يخرج لحسم هذا الأمر الذي طال . وأعلن عزمه هذا في آخر خطبة رويت عنه قبل مقتله . فقد روى عن « نوف البكالي » أنه قال :

« خطبنا هذه الخطبة أمير المؤمنين بالكوفة ، وهو قائم على حجارة نصبها له جمعة بن هبيرة المخزومي ، وعليه مدرعة من صوف ، وحائل سيفه ليف ، وفي رجله نعلان من ليف . وقد بدأ الإمام بذكر الله وأفاض في صفاته ، وحديثهم عن الحياة والموت حديثاً بليغاً ، ثم ختم كلامه قائلاً :

— أيها الناس . . إني قد ثبتت لكم المواعظ ، وأدبتكم بسوطي فلم تستقيموا ، وحدوتكم بالزواج فلم تستوسقوا ، والله أنتم !! أتتوقعون إماماً غيري يبطأ بكم الطريق ويرشدكم السبيل !! ألا إنه قد أدبر من الدنيا ما كان مقبلاً ، وأقبل منها ما كان مدبراً ، وأزعم الترحال عباد الله الأخيار ، وباعوا قليلاً من الدنيا لا يبقى ، بكثير من الآخرة لا يفنى .

ثم نادى بأعلى صوته :

— الجهاد الجهاد عباد الله . ألا وإني معسكر في يومى هذا ، فمن أراد الروح إلى الله فليخرج .

قال « نوف البكالي » :

— وجهز الإمام جيشه ، فعقد للحسين في عشرة آلاف ، ولقيس بن سعد في عشرة آلاف ، ولأبي أيوب في عشرة آلاف ، ولغيرهم على أعداد آخر ، وهو يريد الرجعة إلى « صفين » . فمادرت الجمعة حتى ضربه « ابن ملجم » ،

فتراجعت العساكر . فكنا كأغنام فقدت راعيها تختطفها الذئاب من كل مكان .

* * *

ونختم الحديث عن الإمام الخطيب . بالخطبة القصيرة المؤثرة التي ألقاها عند دفن زوجته السيدة فاطمة ، بنت النبي صلى الله عليه وسلم . لقد تزوجها الإمام وعاش معها لا يقرن بها زوجة أخرى ، حتى ماتت بعد موت النبي بستة أشهر ، ولم تبلغ الثلاثين من عمرها ، فدفنها إلى جوار أبيها العظيم ، وألقى عند دفنها هذه الكلمات التي تصور حزن الرجل القوى المؤمن ، وكيف يثبت للمصائب الكبار ، فلا يخرج الحزن عما يحمل به من وقار : قال :

— السلام عليك يا رسول الله عنى وعن ابنتك النازلة في جوارك والسريفة اللاحاق بك . قلَّ يا رسول الله عن صفيته صبرى ورقَّ عنها تجلدى . إلا أن لى فى التأسى بعظيم فرقتك ، وفادح مصيبتك موضع تعزٍّ . فلقد وسدتك فى ملحودة قبرك ، وفاضت بين نحري وصدرى نفسك . إنا لله وإنا إليه راجعون ، فلقد استرجعت الوديعة ، وأخذت الرهينة . أما حزنى فسرمد ، وأما ليلى فمسهد ، إلى أن يختار الله لى دارك التى أنت بها مقيم . وسقنبئك ابنتك بتضافر أمتك على هضمها ، فاصفها السؤال ، واستخبرها الحال . هذا ولم يطل العهد ، ولم يحل منك الذكر ، والسلام عليكما سلام مودع لا قال ولا سيم . فإن أنصرف فلا عن ملالة ، وإن أقم فلا عن سوء ظن بما وعد الله الصابرين .

نرياد ابن ابيه

« ما سمعتُ متسكلاً على منبر قط تنكلم فأحسن »
« إلا أحببتُ أن يسكت خوفاً أن يسيء إلا »
« زيادا فإنه كلما أكثر كان أجود كلاماً »

الشعبي

زياد ابن أبيه

خطيب من دهاء العرب وساستها ، اشتهر بالذكاء والشجاعة ، كما اشتهر بالفصاحة والبلاغة ، حتى لقد روى عن «الشعي» أنه قال: «ما سمعت مثكماً على منبر قط تكلم فأحسن إلا أحببت أن يسكت خوفاً أن يسيء» ، إلا زيادا ، فإنه كلما أكثر كان أجود كلاماً .

ذلك هو زياد بن عبيد ، أو زياد ابن أبي سفيان ، كما سمي نفسه عندما ألحق معاوية نسبه بوالده أبي سفيان ، أو زياد ابن أبيه كما يسميه المتورعون ، وهو الاسم الذي اشتهر به في التاريخ .

كان للحارث بن كلدة ، الطيب النقي ، جارية تدعى «سمية» فزوجها من عبد رومي له يدعى «عبيدا» ، فولدت له زيادا هذا في السنة الأولى من الهجرة ، وقد نشأ هذا الغلام شجاعاً قارئاً كاتباً ، واشتهر بالذكاء والفصاحة ، وعرف ذلك عنه ، فاستعمله «المغيرة بن شعبة» كاتباً له ، ثم كتب لأبي موسى الأشعري عندما ولاه عمر بن الخطاب البصرة ، فأظهر ذكاء نادراً كان محسوباً عليه ، إذ عزله ابن الخطاب من عمله وهو يقول : «إنني لم أعزله لعجز أو خيانة ، وإنما كرهت أن يحمل على الناس فضل عقله» .

ومع ذلك فقد ظل عمر بن الخطاب يكلفه ببعض المهام فيقوم بها خير قيام ، وحدث أن استكفاه أمراً فقام فيه مقاماً مرضياً ، وعاد إلى الخليفة وعنده المهاجرون والأنصار ، فأمره «عمر» أن يخطب الناس على المنبر بما لديه من أنباء ، فخطب خطبة رائعة حتى قال عمرو بن العاص :

— لله هذا الغلام . . . الو كان أبوه من قريش لساق العرب بعصاه .

وكان بين الحاضرين أبو سفيان بن حرب يجلس إلى جوار علي بن أبي طالب ،
فهمس أبو سفيان في أذن الإمام علي بأنه يعرف أباه الحقيقي ، فسأله
الإمام علي :

— من هو ؟

قال أبو سفيان :

— أنا أبوه .

وروى أبو سفيان كيف اشتملت عليه أمه « سمية » منه وهو مشرك في
رحلة له بالطائف ، فقال له الإمام علي :

— فما يمنعك أن تدعيه ؟

قال أبو سفيان :

— أخشى هذا الجالس أن يخرق عليّ إهابي .

يقصد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب .

ولما بويع لعلي بن أبي طالب بالخلافة ، وعُيِّن « ابن عباس » والياً على
البصرة أرسل معه زيادا ، وعيَّنه على الخراج وبيت المال ، وأمر « ابن عباس »
أن يسمع منه ويستشيرَه .

وعندما قتل عامل الإمام علي بلاد فارس ، واضطرب عليه أهلها وطعموا
في التخلص من الخراج وثاروا بعماله ، استشار الإمام علي أصحابه فيمن يوليه
فارس ، فقال له « جارية بن قدامة » :

— ألا أدلك يا أمير المؤمنين على رجل صلب الرأي ، عالم بالسياسة ، كاف

لما ولى ؟

قال الإمام :

— من هو ؟

قال قدامة :

— زياد .

فأمره الإمام بالمسير إليها ، وهناك تمكن زياد بدهائه من إيقاع النفور بين زعماء المشاغبين ، وأخذ يضرب بعضهم ببعض ، حتى قضى عليهم بأيديهم ، واستتب له الأمر بغير حرب ، وهكذا أخضع بلاد الفرس بذكائه ودهائه لعلى بن أبي طالب ، حتى قال أهل فارس « ما رأينا سيرة أشبه بسيرة كسرى أنوشروان من سيرة هذا العربي في اللين والمداراة والعلم بما يأتي » .

ولقد ساء ذلك « معاوية » الذي كان قد خرج على الإمام على ، وأسس الدولة الأموية بالشام ، فكتب إلى زياد بهدده ويفريه بالانضمام إليه . فلما رأى زياد كتاب معاوية قام في الناس خطيباً فقال :

يا عجباً كل العجب من ابن آكلة الأكباد ورأس النفاق . . . ! يتهددني ويخوفني بقصده إياي ، ويبنى وبينه ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم في سبعين ألفاً من المهاجرين والأنصار يحملون سيوفهم على عواتقهم ، أما والله أني خلص إلى ليجدني أحمر مخشياً ضراباً بالسيف . « .

ولكن الأحداث تتتابع بسرعة ، ويقتل الإمام على ، ويستتب أمر الخلافة لمعاوية ، ويلقى ببصره إلى فارس فيهمه أمر زياد ويخيفه . ويصبح « معاوية » فيكاشف المغيرة بن شعبه بمخاوفه ويقول له :

— إنني ذكرت زيادا واعتصامه بفارس فلم أتم ليلتي ، وإنه لداهية العرب ، معه أموال فارس يدبر الحيل ! ما يؤمنني أن يبايع لرجل من أهل هذا البيت فإذا هو قد أعاد الحرب جدّة^(١) .

(١) أي أعادها جديدة كما بدأت

فعرض عليه المغيرة أن يكون رسوله إلى زياد ، ويفد عليه فيتلطف له ،
وينصح له بالشخص إلى الخليفة الذي يكتب له بأمانه .

ووفد زياد على معاوية فأحسن لقاءه ، وثبته على فارس .

وأراد معاوية أن يوثق صلته بزياد ويستميله ويظفر برضاه ، فادعاه أخاً له
والحقه بنسب أبيه ، وبعث القصة القديمة وأشهد عليها الشهود فأصبح زياد
يسمى بزياد بن معاوية .

وقد ولاه معاوية بعد ذلك البصرة وخراسان وسجستان ، ثم جمع له السند
والبحرين وعمان ، ثم ضم إليه الكوفة ، فأصبح والياً على العراقيين وهو أول
من جمع له بينهما .

* * *

عندما ولي زياد البصرة ، كانت قد فشت فيها المنكرات واستمقظت الفتن ،
فاستعمل في حكمها شدة لم يألها العرب ، وقسوة لم يعهدوها ، حتى خافه الناس
خوفاً شديداً . وزاد في شرطته فجعلها أربعة آلاف رجل ، وكان يأخذ بالشبهة
ويعاقب بالظفة ، حتى استتب الأمن ! فكان الشيء يسقط من يد الرجل أو
المرأة فلا يعرض له أحد حتى يأتي صاحبه فيأخذه . وكان يقول : « لوضاع حبل
بينى وبين خراسان لعرفت أخذه . . » .

وكان يعلق في مجلسه عنوان سياسته مجملة في هذه العبارة « شدة في غير
عنف ، ولين في غير ضعف ، الحسن يجازى بإحسانه ، والمسيء يعاقب بإساءته »
ولا شك في أن زيادا قد أسرف على الناس ، وقد قيل بعد ذلك في رواية
عن أبي الحسن المدائني « تشبه زياد بعمر فأفرط ، وتشبه الحجاج بزياد
فأهلك الناس » .

ولقد اشتهر زياد منذ حادثته بالفصاحة ، وكان خطيباً بليغاً ، إذا وقف

للكلام تدفق بالقول تدفق السيل . وكان طويل النفس ، كلما أطال كان أجود كلاماً .

ولم يحفظ لنا التاريخ كثيراً من خطبه ، ولكن القليل الذى وصل إلينا يكفي للدلالة عليه .

عندما قدم البصرة وإلياً لمعاوية ، ارتقى المنبر ، وخطب خطبة لم يبدأ كلامه فيها بحمد الله على عادة الخطباء فسميت خطبته الخطبة البتراء . وقد يصح أن نذكر بتعبيرنا الحديث أنه أعلن في هذه الخطبة الأحكام العرفية ، وفرض « حظر التجول » ليلاً ، واصطنع سياسة لم يسبقه إليها حاكم في الإسلام . ولكن الخطبة البتراء نموذج فريد من الفصاحة والبلاغة ، تدل على عبقرية زياد كحاكم وخطيب .

إنه يبدأ باستعراض الفساد الذى ساد واستشرى فيقول :

— إن الجهالة الجاهلاء ، والضلالة العمياء ، والغى الموفى بأهله على النار ، ما فيه سفهاؤكم ، ويشتمل عليه حماؤكم ، من الأمور العظام ، ينبت فيها الصغير ، ولا يتحاشى عنها الكبير ، كأنكم لم تقرأوا كتاب الله ، ولم تسمعوا ما أهد الله من الثواب الكريم لأهل طاعته ، والعذاب الأليم لأهل معصيته فى الزمن السرمدى الذى لا يزول . . !

إنه ليس منكم إلا من طرفت عينه الدنيا ، وسدت مسامعه الشهوات ، واختار الفانية على الباقية ، ولا تذكرون أنكم أحدثتم فى الإسلام الحدث الذى لم تسبقوا إليه .

ما هذه المواخير المنصوبة ، والضعيفة المساوبة فى النهار المبصر والعدد غير قليل . . ؟ ! ألم يكن منكم نهاية تمنع الغواة عن دجل الليل وغارة النهار ؟ حرام على الطعام والشراب حتى أسويها بالأرض هدماً وإحراقاً . ثم يمضى

زياد موضعاً سياسته الرهيبة لمحاربة الفساد والقضاء عليه فيقول :

إني رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما يصلح به أوله : لين في غير ضعف ،
وشدة في غير عنف . وإني أقسم بالله لأخذن الولي بالمولى ، والمقيم بالظاعن ،
والمقبل بالمدير ، والمطيع بالعاسي ، والصحيح منكم في نفسه بالسقيم ، حتى يلقي
الرجل منكم أخاه فيقول « أنج سعد فقد هلك سعيد » أو تستقيم لي قناتكم .
إن كذبة المنبر بقاء مشهورة ، فإذا تعلقتم على بكذبة فقد حلت لكم
معصيتي . من نقب منكم عليه فأنا ضامن لما ذهب منه . وإياي ودليج^(١) الليل ،
فأني لا أوتي بمدايح إلا سفكت دمه . وإياي ودعوى الجاهلية ، فأني لا أجد
أحداً دعا بها إلا قطعت لسانه .

وقد أحدثتم أحداثاً لم تكن ، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة : فمن غرق
قوماً أغرقناه ، ومن أحرق قوماً أحرقناه ، ومن نقب بيتنا نقبنا عن قلبه ، ومن
نبش قبراً دفناه حياً فيه ، فكفوا عن أيديكم وألسنتكم أكفف عنكم
يدي ولساني .

ولا يتركهم زياد قبل أن يؤكد لهم أن عواطفه الشخصية لن يكون لها
تأثير في أحكامه أو تقديره للأمر ، فيقول هذه العبارات الرائعة :

وقد كانت بيني وبين أقوام إحن^(٢) ، فجعلت ذلك دبر أذني وتحت قدمي
إني لو علمت أن أحكم قد قتله السل من بغضي لم أكشف له قناعاً ولم أهتك له
سترأ ، حتى يبدي لي صفحته ، فإن فعل ذلك لم أناظره . فاستأنفوا أموركم ،
وأعينوا على أنفسكم ، قرب مبعثس بقلومنا سيسر ، ومسرور بقلومنا سيبتئس
أيها الداس :

(١) السر بالليل

(٢) جمع إحنة أي أحقاد وضحايا

إنا أصبحنا لكم ساسة ، وعنكم ذادة ، نسوسكم بسلطان الله الذى أعطانا
ونذود عنكم بنىء الله الذى خولنا ، فلنأعليكم السمع والطاعة فيما أحببنا ، ولكم
سليتنا العدل فيما ولينا . فاستوجبوا عدلنا وفيثنا بمناصحتكم لنا . واعلموا أنى
مهما قصرتم فلن أقصر عن ثلاث : لست محتجبا عن طالب حاجة منكم ولو
أتانى طارقا بليل ، ولا حابسا عطاء ولا رزقا عن إبانة^(١) ، ولا مجرأ^(٢)
لكم بعثا .

ثم ختم زياد خطبته بهذه الجملة .

— وأيم الله إن لى فيكم لصرعى كثيرة .. فليحذر كل امرىء منكم أن
يكون من صرعاى . . !

ويروى أنه عندما انتهى من خطابه قام إليه رجل فقال :

— أشهد أيها الأمير أنك قد أوتيت الحكمة وفصل الخطاب فقال
له زياد :

— كذبت .. ذاك نبي الله ، داود عليه السلام .

فقام الأحنف بن قيس فقال :

— إنما الثناء بعد البلاء ، والحمد بعد العطاء ، وإنا لن نثنى حتى نبتلى .

فقال له زياد :

صدقت

وقام رجل من الخوارج وهو يهمس :

— أنبأنا الله بغير ما قلت . قال الله عز وجل « وإبراهيم الذى وفى ، ألا

(١) أوانه (٢) لأحبس جيشا عن العودة أكثر من الوقت الضرورى
(م ٤ — الخطابى)

تزر وزارة وزر أخرى ، وأن ليس للانسان إلا ما سعى » ، وأنت تزعم أنك تأخذ البرىء بالسقيم ، والمطيع بالعاصى ، والمقبل بالمدبر !
فسمع زياد قوله فقال له :

— إنا لن نبلغ ما نريد فيك وفى أصحابك حتى نخوض إليكم الباطل خوفاً .
وخطب زياد مرة فقال :

— استوصوا بثلاثة منكم خيراً : الشريف ، والعالم ، والشيخ . فوالله لا يأتينى شيخ بشاب قد استخف به إلا أوجعته ، ولا يأتينى عالم بجاهل استخف به إلا نكلت به ، ولا يأتينى شريف بوضع استخف به إلا انتقمته له منه .

وعندما وصل زياد إلى الكوفة واليا عليها خطب الناس ، فحصبهم بعضهم وهو على المنبر ، فدعا خاصته وأمرهم فأخذوا أبواب المسجد ، وجلس على كرسي الباب ، ثم دعا الناس أربعة أربعة يحلفون « ما منا من حصبك » ، فمن حلف أطلقه ، ومن لم يحلف حبسه ، حتى حبس ثلاثين ، وقيل ثمانين ، فقطع أيديهم جميعاً .

وحكم زياد ثمانية أعوام ، وتوفى بالكوفة ، وروى أنه أصيب بالطاعون فى يده ، وأشير عليه بقطعها ، فأبى ومات سنة ٥٣ هجرية . وكان زياد فيه حمة فى وجهه ، وفى عينه اليمنى انكسار ، أبيض اللحية مخروطها ، عليه قميص ربما رقعته ، وهو أول من لبس الخفاف الساذجة ، وثياب الكتان .

روى ابن عبد ربه فى « العقد الفريد » :

— قالوا أن الدهاة أربعة ، معاوية للروية ، وعمر بن العاص للبدية ، والمغيرة بن شعبة للمعضلات ، وزياد لكل صغيرة وكبيرة .

الحجّاج

«إن أمير المؤمنين نثر كنفاته بين يديه ، وعجم
« عيدانها فوجدني أمرّها عوداً وأصلبها مكسراً »
الحجّاج

الحجاج

خطيب من جبابرة العرب ، لم يرث ملكا ولا حكما ، ولكنه وصل بمواهبه إلى الحكم والأمانة ، وكانت الفصاحة إحدى وسائله الكبرى . ذلك هو أبو محمد الحجاج بن يوسف الثقفي .

ولد الحجاج بالطائف سنة إحدى وأربعين للهجرة ، أي في السنة التي أسس فيها معاوية الدولة الأموية . وكان أبوه « يوسف بن الحكم » من مشايخ ثقيف ورؤى أنه كان معلما صبيان ، كما روى أن الحجاج كان في أول أمره يعلم الصبيان مع أبيه ، ثم صار دباغا ، وقيل أنه كان يبيع الزبيب بالطائف . ولكن أخبار الرواة قد اضطربت بشأن هذا الشطر من حياة الحجاج الأولى بالطائف والحجاز ، بحيث لا نستطيع أن نستخلص منها صورة صحيحة نطمئن إليها .

والواقع أن الرواة قد نسجوا كثيرا من الأساطير حول الحجاج ، ومن ذلك مثلا ما رواه المسعودي في « مروج الذهب » حول ولادته ، قال :

— كانت أم الحجاج عند الحارث بن كلدة ، فدخل عليها في السحر فوجدها تتخلل فبعث إليها بطلاقها فسألتها عن السبب فقال « دخلت عليك في السحر وأنت تتخللين ، فإن كنت بادرت الغداء فأنت شرهة ، وإن كنت بت والطعام بين أسنانك فأنت قذرة » فقالت كل ذلك لم يكن ولكن تخللت من شظايا السواك . ثم تزوجها من بعده يوسف الثقفي فولدت له الحجاج مشوها لا دبر له ، فثقب عن دبره ، وأبى أن يقبل ثدي أمه وغيرها فأعيام أمره ، فيقال إن الشيطان ظهر لهم في صورة الحارث بن كلدة ، وقال لهم « اذبحوا جدبا أسود وأولغوه دمه ؛ فإذا كان اليوم الثاني فافعلوا به كذلك ، فإذا كان في اليوم الثالث فاذبحوا له تيسا أسود وأولغوه دمه ، ثم اذبحوا له أسود سائحا

فأولعوه دمه واطلوا به وجهه فإنه يقبل الثدى في اليوم الرابع . ففعلوا به ذلك فكان بعد لا يصبر على سفك الدماء ١٠٠

ومن الواضح أن هذه الحكاية وأمثالها إنما قصد بها الرواة تفسير قسوة الحجاج وبطشه وإسرافه في سفك الدماء .

مهما يكن من الأمر فال معروف أن الحجاج حفظ القرآن في صباه ، وروى الأحاديث وأشعار العرب . ولما كانت الطائف وسط بيئية عربية تحوطها البادية فقد نشأ الحجاج على فصاحة البدو وجفوة طباعهم .

ولقد نشأ في عصر فتن وشغب وحروب اتصلت منذ مقتل الخليفة عثمان . وعندما توفي معاوية وقام من بعده ابنه يزيد . تحدث الناس بسوء سيرته في الحجاز والعراق ، وامتنع عن البيعة له الحسين بن علي وعبدالله بن الزبير ، وخرج الحسين إلى الكوفة حيث قتل في الطريق ، فبايع الناس في مكة عبدالله بن الزبير . وأرسل يزيد جيوشه فحاصرت مكة ، ثم جاءت الأخبار بموت يزيد ، فرجع عنها الجيش ، وبايع أهل الحجاز والعراق عبدالله بن الزبير ، فولى أخاه «مصعب» العراق ، وبقي هو في مكة . أما في الشام فقد بايع الناس « معاوية بن يزيد » الذي تنازل عن الخلافة ، فبايع الأمويون « مروان بن الحكم » الذي لم تطل خلافته غير شهر ثم مات ، فقام من بعده عبد الملك بن مروان .

وكان الحجاج قد بلغ الخامسة والعشرين من عمره عندما قام عبد الملك ابن مروان بالخلافة . ويرى المؤرخون أن أباه خرج به إلى الشام حيث وفد على أمير المؤمنين وكان الحجاج قد سمع الكثير عن سير الولاة والقواد . وفتنته بوجه خاص سيرة « زياد بن معاوية » فطمحت نفسه إلى التشبه بهم والسير على نهجهم ، فاتصل بروح بن زنباع الجذامي ؛ وزير عبد الملك ، والتحق بشرطته .

وهنا يبدأ التاريخ السياسي للحجاج ، فقد أظهر من الذكاء والجرأة والحزم ما لفت إليه أنظار الخليفة واستثار إعجابه .

وروى المؤرخون أن « عبد الله بن مروان » أراد أن يخرج لقتال « زفر ابن الحارث » الذي كان قد تمرد على حكم بني أمية ، فلما مضى بجيشه في الطريق لاحظ من عساكره تخاذلاً وعصياناً . إذ كانوا لا ينزلون بنزوله ولا يرحلون برحيله . وشكا الخليفة ذلك إلى « روح بن زنباع » فقال له :

— يا أمير المؤمنين .. إن في شرطتي رجلاً يقال له الحجاج بن يوسف . لو ولاه أمير المؤمنين أمر عسكره لأرحلهم برحيله وأنزلهم بنزوله .

ففعل « عبد الملك بن مروان » . فكان لا يقدر أحد أن يتخلف عن الرحيل والنزول إلا أتباع « روح بن زنباع » . فوقف الحجاج عليهم يوماً وقد رحل الناس . وهم على طعام يأكلون . فقال لهم « ما منعكم أن ترحلوا برحيل أمير المؤمنين ؟ » فقالوا « إنزل فكل معنا يا بن اللعناء .. ! » .

فقال الحجاج « هيهات .. ذهب ما هناك » ثم أمر بهم فجلبدوا بالسياط وطوفهم في العسكر . وأمر بخيامهم فأحرقت : فدخل روح بن زنباع على عبد الملك باكياً شاكياً يقول :

— إن الحجاج بن يوسف . الذي كان في عديد شرطتي . ضرب عبيدي . وأحرق فساطيطي .

فاستدعى الخليفة الحجاج وسأله عما فعل فقال الحجاج :

— ما أنا فعلته يا أمير المؤمنين .

قال الخليفة .

— ومن فعله ؟

قال الحجاج :

— أنت والله فعلت، إنما يدى يدك . وسوطى سوطك وماعلى أمير المؤمنين
أن يُخلف على روح بن زنباع للفسطاط فسطاطين . وللقلام غلامين ولا يكسرنى
فيما قدمنى له .

وقد أعجبت هذه الجرأة « عبد الملك بن مروان » : فعوض وزيره عن
خسائره . وزاد تقديره للحجاج . فلما أراد الخروج إلى العراق لحاربة « مصعب
بن الزبير » جعل يستنصر أهل الشام فيقتالون عن الخروج للحرب : فقال له
الحجاج :

— سلطنى عليهم فوالله لأخرجهم معك . .

فسلطه عليهم . فسكن الحجاج لا يمر على باب رجل قد تخلف عن الخروج
إلا أحرق عليه داره . فلما رأى ذلك أهل الشام خرجوا . وسار بهم « عبد الملك »
بعد أن ولى الحجاج قيادة قسم من الجيش : وأخضع العراق وقتل مصعب
بن الزبير .

ثم بعث الحجاج لحاربة عبد الله بن الزبير ، فزحف الحجاج إلى مكة ،
وحاصرها خمسين ليلة ، وضربها بالجانيق ، وهزم عبد الله بن الزبير وقتله وصلبه ،
فأرسل إليه عبد الملك يعينه والياً على الحجاز واليمن واليمامة ، فبقى بها ثلاثة أعوام
أخضع فيها أهل الحجاز واشتد عليهم .

ويُروى أنه كتب بعد ذلك إلى عبد الملك يقول « إنى حُزرت الحجاز
بشمالي ، وبقيت يميني فارغة » ، وكان قد توفى والى العراق بشر بن مروان ،
فبعث عبد الملك عهده إلى الحجاج يوليه العراق أيضاً .

ولم تسكن السنوات الأولى من حكم الحجاج بالعراق هادئة مستقرة ، فقد
ثارت الفتن في أطراف العراق ، واتصلت الحروب . وسكن الحجاج بذل جهداً

عظيماً في إخضاع الخارجين عليه وعلى ملك بنى أمية ، فوجه « المهلب » لقتال الأزارقة ، ثم نهض بنفسه لقتال ابن الأشعث ، وكانت بينه وبين الخارجين من أهل الكوفة والبصرة حروب طويلة ، انتهت بموقعة « دير الجماجم » التي استمرت مائة يوم ، وانتهت بانتصار الحجاج .

وهكذا أنقذ الحجاج ملك بنى أمية مما كان يهدده من أخطار ، وأخذ الثورات في الحجاز والعراق وفارس والأهواز ، ومد حدود الدولة الإسلامية إلى نهر السند ، وفتح إقليم ما وراء النهر حتى بخارى وسمرقند . ولهذا كان عبد الملك بن مروان يقول « إن الحجاج جلدة ما بين عيني » .. وللمات عبد الملك وخلفه « الوليد » أقر الحجاج على ما بيده وظل الحجاج عشرين عاماً والياً على العراق ، حتى توفي سنة ٩٥ للهجرة وله من العمر أربع وخمسون سنة .

* * *

هذه لمحات سريعة عن حياة الحجاج ، والظروف التي عاش فيها ، فأين من هذا كله الحجاج الخطيب ؟

الواقع أن الحجاج كان من أخطب الناس في زمانه ، قديراً على ارتجال الكلام ، مبتكراً للمعاني يستلهمها من طבעه الفياض ، وبديهة الحاضرة . إلى جانب حفظه القرآن ، وعلمه بالسنة ، وروايته للآداب ، وخبرته بنفوس الجماهير ، فكان يعرف كيف يستشهد بما يؤيد عمله ويبرر سياسته .

وكان أسلوبه يمتاز بالجزالة والفجولة ، فكان أشبه بأساليب البدو في قوته وتأثيره في النفوس .

ومما زاد في قوة أسلوبه الخطابي الأغراض التي كانت تدفعه إلى الخطابة ذلك أن سياسة الحجاج كانت تقوم في جملتها على البطش والقمع ، وكان يقول

« إني والله ما أرى أن أرد بني اللسكية إلى طاعتي إلا بالسيف » . وهكذا مثل دور الطاغية ، واتخذ أسلوب الدكتاتور ، وكانت معظم خطبه سلسلة متصلة من الوعيد يرهب بها الناس ، ويصحبها عليهم قذائف حاصدة ، وحمماً ملتهبة ، ويرسل النذر في كلمات لها بريق السيوف ، ودوى القنابل .

أجل . . . كان يحكم الناس بسمفه ولسانه .

ومن عجب أن هذا الطاغية الجبار كان يعنى بهيئته وملبسه .

روى صاحب العقد الفريد عن الرباشي ، عن العتبي عن أبيه قال « مارأيت مثل الحجاج . كان زيه زى شاطر ، وكلامه كلام خارجي ، وصولته وصوله جبار فسألته عن زيه فقال كان يرجل شعره ويخضب أطرافه » وروى أنه حينما وفدت وفود العراق على سليمان بن عبد الملك وسألهم عن الحجاج قالوا : « يا أمير المؤمنين ، إنا نخبرك عن عدو الله بعلم ، كان يتزين تزين المومسة ، ويصعد المنبر فيتكلم بكلام الأخيار ، فإذا نزل عمل عمل الفراعنة » .

وقال ابن عبد ربه « كان الحجاج إذا صعد المنبر تلفع بمطرفه ، ثم تكلم رويداً فلا يكاد يسمع ، حتى يتزايد في الكلام ، فيخرج يده من مطرفه ، ثم يزجر الزجرة فيفزع بها أقصى من في المسجد ! » .

إن هذه الصورة التي نقلها صاحب العقد الفريد تدل على أن الحجاج كان أستاذاً ماهراً يعرف كيف يلعب بأعصاب المستمعين .

وهذه خطبته الشهيرة : عندما ذهب واليا على العراق تصور أسلوبه وخصائصه وطابعه الفني . فهو يبدأ أول خطبة له بأسلوب تمثيلي يستدرج به أهل العراق ويسترعى انتباههم ، ثم يستشهد بالشعر والقرآن ، ويقذف وجوهمهم بعبارات خشنة كأنها قطع الصخر . ومن الواضح أنه كان متأثراً كما قلنا بزيادة

ابن أبيه ، وكأني به قد استحضر في خياله خطبته البتراء التي استهل بها ولايته على البصرة .

أنظر إليه وقد خرج إلى الكوفة في إثني عشر راكباً على النجائب ، ثم دخلها فجأة حين انتشر الهمام ، وبدأ بالمسجد فدخله وقال « علىّ بالناس » . وصعد المنبر وقد تلثم بممامة خز حمراء غطى بها أكثر وجهه ، متقلداً سيفاً ، متنكباً قوساً ، وجلس ساعة لا يتكلم حتى قال الناس بعضهم لبعض « قبيح الله بنى أميه حيث تستعمل مثل هذا على العراق » وقال « عمير بن ضابيء البرجمي » :

ألا أحصيه لكم ؟

فقال له الناس « أمهل حتى ننظر » .

فلما رأى الحجاج أن عيون الناس إليه ، قام فكشف عن وجهه وقال :
أنا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفوني
يا أهل الكوفة :

إني لأرى أبصاراً طامحة ، وأعناقاً متطاولة ، ورءوساً قد أينعت وحان
قطافها ، وإني لصاحبها . وكأني أنظر إلى الدماء تتفرق بين العائم واللحي .
ثم أنشد :

هذا أوان الشد فاشتدى زيم^(١) قد لفها الليل بسواق^(٢) حطيم
ليس براعى إبل ولا غنم ولا بجزار على ظهر وضم^(٣)

..

(١) اسم فرسه أو ناقته (٢) السواق الحطيم أي الشديد القاسي الذي بسوقها بعنف
فتندافع فيحطم بعضها بعضاً (٣) الضمام خشبة الجزار التي يقطع عليها اللحم .

قد لفها الليل بعصبي^(١) أروع^(٢) خراج من الدوى^(٣)

مهاجر ليس بأعرابي

. . .

قد شممت عن ساقها فشددوا وجدّت الحرب بكم فجدوا

والقوس فيها وتر عرود^(٤) مثل ذراع البكر أو أشد

لا بد مما ليس منه بد

إني والله يا أهل العراق ما يقع لي بالشنان^(٥) ، ولا يغمز جانبي كتغماز
التين^(٦) ، ولقد فررت عن ذكاء ، وفقتت عن تجربة ؟ وإن أمير المؤمنين
— أطال الله بقاءه — نثر كنفاته^(٧) بين يديه ، فعجم^(٨) عيدانها ، فوجدني
أمرها عوداً وأصابها مكسراً ، فرماكم بي ، لأنكم طالما أوضعتم^(٩) في الفتنة ،
واضطجعت في مراقد الضلال . والله لأحزمكم حزم السلعة^(١٠) ، ولأضربكم
ضرب غرائب الأبل^(١١) ، فأنكم لكأهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها
رغداً من كل مكان ، فكفرت بأنعم الله ، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما
كانوا يصنعون .

إني والله لا أقول إلا وفيت ، ولا أهم إلا أمضيت ، ولا أخلق إلا
فريت^(١٢) . فأبأى وهذه الجماعات ، أما والله لتستقيمن على طريق الحق ، أو
لأدعن لكل رجل منكم شغلا في جسده .

(١) العصبي هو الشديد القوى (٢) ذكي (٣) الدوى والدوية الفلاة المتسعة
التي يسمع لها دوى بالليل والمعنى أنه شديد ذكي يخرج من كل شدة .

(٤) شديد (٥) جمع شن وشنه وهي القرية اليابسة يضرب عليها فيسمع لها صوت
كالطبل فتخاف الأبل (٦) أي لست ابن المغمز (٧) السكنانة وعاء السهام

(٨) عضها بأسنانه ليختبر صلابتها (٩) اسرعتم (١٠) السلعة شجرة كثيرة الشوك

(١١) الأبل الغريبة عن المرعى (١٢) قطعت والمعنى لا أعزم على أمر إلا أتمته .

ثم أنهى خطبته بأول أمر له في الكوفة قال :

— إن أمير المؤمنين أمرني أن أعطيكم أعظيائكم ، وأن أوجهكم لمحاربة العدو مع « المهلب بن أبي صفرة » ، وإني أقسم بالله لا أجد رجلاً تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا ضربت عنقه . . . »

قال ابن نباتة : « فلما سمع أهل الكوفة هذه الخطبة تساقط الحصى من أيديهم حزناً ورعباً ، وثبتت مهاجرة في قلوبهم ، وتحكم حينئذ في رقابهم » وأراد الحجاج أن يخرج للحج فخطب في الناس قائلاً :

— أيها الناس . إني أريد الحج ، وقد استخلفت عليكم ابني هذا ، وأوصيته بخلاف ما أوصى به رسول الله صلى الله عليه وسلم في الأنصار . إن رسول الله أوصى أن يقبل من محسنهم ، وأن يتجاوز عن مسيئهم . وإني أمرته ألا يقبل من محسنكم ولا يتجاوز عن مسيئكم !!

ألا وأنكم ستقولون بعدى مقالة ما يمنعكم من اظهارها الا مخافتى ، ألا وانكم ستقولون بعدى « لا أحسن الله له الصحابة » . ألا وإنى معجل لكم الإجابة « لا أحسن الله الخلافة عليكم . . . »

ثم نزل دون أن يجرؤ أحد على توجيه كلمة اليه .

ورجف الناس يوماً بموت الحجاج ، وبلغته الإشاعة ، فخرج الى المسجد وخطب قائلاً :

— إن طائفة من أهل الشقاق والنفاق ، ومساوئ الأخلاق ، نزع الشيطان بينهم فقالوا مات الحجاج ومات الحجاج . كفه .؟! وهل يرجو الحجاج الخير إلا بعد الموت ؟ والله ما يسرنى إلا أموت وإن لى الدنيا وما فيها ، وما رأيت الله رضى بالتخليد إلا لأبليس أهون خلقه عليه . ولقد دعا الله العبد الصالح

فقال : « رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي » فأعطاه ذلك
إلا البقاء .

وبعد انتصاره في دير الجاجم خطب في أهل العراق خطبة كانت آية في
البلاغة والإبداع الفنى قال :

— يا أهل العراق

إن الشيطان قد استبطنكم^(١) فخالط اللحم والدم والعصب والمسامع
والأطراف والأعضاء والشغاف^(٢) ، ثم أفضى إلى المخاخ والأصماغ^(٣) ، ثم
ارتفع فعمشش ، ثم باض وفرخ ، فحشاكم شقاقاً ونفاقاً . اتخذتموه دليلاً تتبعونه ،
وقائداً تطيعونه ، ومؤمراً تستشيرونه ، فكيف تنفَعكم تجربته ، أو تعظيكم
وقعة ، أو ينفعكم بيان ؟

ثم أخذ يذكرهم بمواقفهم في الحرب والمواقع فيقول :

— أَلستم أصحابي بالأهواز حيث رمت المسكر ، وسعيتم بالغدر ، واستجمعتم
للكفر ، وظننتم أن الله يخذل دينه وخلافته ؟ وأنا أرميكم بطرفي وأنتم تنسلون
لواذاً ، وتنهزمون سراعاً ؟

ثم يوم الزاوية وما يوم الزاوية ! بها كان فشلكم وتحاذلكم وبراءة الله
منكم ، إذ وليتم كالإبل الشوارد إلى أوطانها ، النوازع إلى^(٤) أعطانها ،
لا يسأل المرء عن أخيه ، ولا يلوى الشيخ على بنييه ، حتى عضتكم السلاح ،
وقصمتكم الرماح .

ثم يوم دير الجاجم وما يوم دير الجاجم ! بها كانت المعارك والملاحم ،

(١) نفذ إلى باطنكم (٢) غلاف القلب (٣) فتحات الأذن الداخلية
(٤) مبارك الأبل

بضرب يزيل الهام عن مقيله ، ويذهل الخليل عن خليله !

يا أهل العراق

هل استخفكم ناكث ، أو استفواكم غاو ، أو استنصركم ظالم ،
أو استعضدكم خالع ، إلا تبعتموه ونصرتموه ؟

هل شغب شاغب ، أو نعب ناعب ، أو زفر زافر ، إلا كنستم
أتباعه وأنصاره ؟

ثم التفت إلى أهل الشام وهم حول المنبر ، وقال يمدح موقفهم :

يا أهل الشام

إنما أنا لكم كالظليم^(١) الرامح عند فراخه ، ينفي عنها المدر^(٢) ،
ويباعدها الحجر ، ويكنها من المطر ، ويحميها من الضباب^(٣) ، ويحرسها
من الذئاب .

يا أهل الشام

أنتم الجنة^(٤) والرداء ، والعدة والخذاء^(٥) .

وهذا هو الحجاج يذهب إلى البصرة ، فيخطب في أهلها خطبة تذكروهم
بخطبة زياد فيقول :

— « أيها الناس

من أعياه داؤه فعندى دواؤه ، ومن استطال أجله فعلى أن أعجله ، ومن
ثقل عليه رأسه وضعت عنه ثقله ، ومن استطال ماضى عمره قصرت
عليه باقيه .

(١) ذكر النعام ويضرب به المثل في الدفاع عن منغاره فيرمح من يقترب منها أى يرفسه

(٢) الطين اليابس (٣) جمع ضب (٤) الوقاية (٥) من حازى بمعنى ساعد وأزر

إن للشيطان طيفاً ، وللسلطان سيفاً ، فمن سقمت سريرته صحت عقوبته ، ومن وضعه ذنبه رفعه صلبه ، ومن لم تسعه العافية لم تضق عنه الهلكة ، ومن سبقته بادرة فمه سبق بدنه بسفك دمه ، إني أنذر ثم لا أنظر ، وأحذر ثم لا أعذر وأتوعد ثم لا أعفو ، إنما أفسدكم ترنيق ولا تسكم ، ومن استرخى لبيه ساء أده إن الحزم والعزم سلباني سوطي وأبدلاني به سيفي ، فقامته في يدي ، ونجاده في عنقي ، وذبابته قلادة لمن عصاني . والله لا آمر أحداً أن يخرج من باب من أبواب المسجد ، فيخرج من الباب الذي يليه إلا ضربت عنقه . . . » .

* * *

هذه بعض خطب الحجاج تدل عليه وعلى سياسة حكمه ، وبهذه السياسة القائمة على البطش والشدّة وطد ملك بنى أمية ، وحفظه من الفتن .

ولكن خطب الحجاج لم تكن كلها وعيداً وصواعق يصبها على رؤوس السامعين .

فقد كان من واجباته أن يؤم الناس في صلاة الجمعة وأن يخطبهم فكانت له خطب دينية تختلف عن خطبه السياسية ، وقد ضاعت أكثر خطبه لأن عصره لم يكن عصر تدوين الخطب ، بل كان عصر حفظ ورواية ، وحفظ النثر وروايته أصعب من حفظ الشعر .

ومن خطبه التي تدل على ذكائه ولباقة هذه الخطبة القصيرة التي ألقاها على الناس في مكة بعد مقتل عبد الله بن الزبير ، فقد ارتجت مكة بالبكاء ، فخطب الناس قائلاً :

— ألا إن عبد الله بن الزبير كان من أحبار هذه الأمة حتى رغب في الخلافة ونازع فيها ، وخلع طاعة الله ، واستكن بحرم الله . ولو كان شيء مانعاً للمصاة لمنع آدم حرمة الجنة . لأن الله تعالى خلقه بيده ، وأسجد

له ملائكته، وأباحة جنته ، فلما عصاه أخرجه منها بخطيئته . وآدم أكرم على الله من ابن الزبير ، والجنة أعظم حرمة من الكعبة .. ! » .

ومن كلامه في خطبه الدينية قوله في خطبة الجمعة :

— نعم أمرؤ حاسب نفسه، أمرؤ راقب ربه، أمرؤ زود عمله، أمرؤ فسكر فيما يقرؤه غداً في صحيفته ويراه في ميزانه ، أمرؤ كان عند همه آمراً ، وعند هواه زاجراً ، أمرؤ أخذ بعنان قلبه كما يأخذ الرجل بخطام جملة ، فإن قاده إلى حق تبعه ، وإن قاده إلى معصية الله كفه . إننا والله ما خلقنا للبقاء وإنما خلقنا للبقاء ، وإنما نتقل من دار إلى دار .

وقوله في خطبة أخرى .

— أيها الناس .

قد أصبحتم في أجل منقوص ، وعمل محفوظ . رب ساع لغيره ، فالموت في أعناقكم ، والنار بين أيديكم ، والجنة أما مكم . خذوا من أنفسكم لأنفسكم ، ومن غناكم لفقركم ، ومما في أيديكم لما بين أيديكم ، فكل أن ما قد مضى من الدنيا لم يكن ، وكل أن الأموات لم يكونوا أحياء ، وكل ما ترونه فإنه ذاهب . هذه شمس عاد وشمود ، هذه الشمس التي طلعت على الأكامرة وخزائنهم السائرة بين أيديهم وقصورهم المشيدة ، ثم طلعت على قبورهم ! أين الملوك الأولون ؟ أين الجبابرة المتكبرون ؟ المحاسب الله . والصراط منصوب وجههم تزفر وتوقد ، وأهل الجنة في روضة ينعمون . جعلنا الله وأياكم من الذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخزوا عليها صما وعمياناً » .

ويروى أنه عندما حضرته الوفاة كتب إلى الوليد بن عبد الملك يقول :

« أما بعد ، فقد كنت أرعى غنمك ، أحوطها حياط الناصح الشفيق برعية مولاة ، فجاء الأسد فبطش بالراعى ومزق المرعى كل ممزق ، وقد نزل بمولاك ما نزل بأيوب الصابر ، وأرجو أن يكون الجبار أراد بعبيده غفراً لخطاياهم وتكفيراً لما حمل من ذنوبه » . .

(م . ٥ — خطباء)

عبد الله بن الزبير

« إِنَّا وَاللَّهِ مَا نَمُوتُ عَلَى مَضَاجِعِنَا ، وَلَكِنْ
« قَعَصًا بِالرَّمَا حِ وَمَوْتًا تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ »
ابن الزبير

عبد الله بن الزبير

إن سيرة هذا الفارس الخطيب تعرض لنا صورة رائعة لحياة حافلة بالشجاعة والطموح ، زاخرة بأعمال البطولة الجريئة ، حتى لتكاد تشبه أساطير المغامرين كان أبوه الزبير بن العوام ، حوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وابن عمته ، وأمه أسماء بنت أبي بكر ، ذات النطاقين . وقد ولد في السنة الثانية للهجرة ، وكان أول مولود للمهاجرين بالمدينة ، ففرح المسلمون بولادته وكبروا ، لأن اليهود كانوا يزعمون أنهم قد سحروهم فلن يولد لهم . . ! وقيل إن النبي حنكه بتمر لا كها بقمه ، وسماه عبد الله .

ونشأ عبد الله في رعاية أبويه العظمين ، فصيحا ، جريئا .

قال هشام بن عروة « كان أول ما أفصح به عمى عبد الله بن الزبير وهو صغير ، السيف ، فكان لا يضعه من يده ، فكان الزبير يقول : والله ليكونن لك منه يوم وأيام . . ! »

وحدث في صباه أنه كان يلعب مع الصبيان في الطريق ، فمر بهم عمر بن الخطاب ، ففر الصبيان من وجه عمر ، وبقي هو ، فقال له عمر :

— مالك لم تفر معهم ؟

فأجابه الصبي الجريء :

— لم أجرم فأخافك ، ولم تكن الطريق ضيقة فأوسع لك .

ولقد امتاز عبد الله بن الزبير بعد ذلك في حياته بخصال ثلاث سيطرت على حياته كلها ، وكانت مقومات شخصيته . أولها الشجاعة التي سبى مظاهرها في وقائع حياته ، وثانيها الفصاحة التي جعلت منه خطيبا ممتازا ، وأخيرا

إيمانه العميق ، وورعه وتدينه، فقد كان صواماً قواماً . ورد في تاريخ ابن الأثير أنه لم يكن باب من أبواب العبادة يعجز عنه الناس إلا تكلفه ابن الزبير، وأنه حدث أن سيلاً أحاط بالمبيت الحرام ، فكان ابن الزبير يطوف بالمبيت سباحة وعندما أمر عثمان بن عفان عامله على مصر بفتح شمال أفريقيا ، أمدّه بجيش يرأسه عبد الله بن الزبير ، فاشترك في إدارة الواقعة الفاصلة بشجاعة وذكاء ومهارة، وفاجأ « جريغوريوس » عامل الروم على طرابلس والمغرب وشتت جنوده وقتله بيده .

ورجع إلى الخليفة عثمان فقص عليه كيف كانت الواقعة ، فأعجب عثمان بما سمع ، وطلب إليه أن يروي للناس حديث الفتح الجديد وسأله :
 - أتقوم بمثل هذا الكلام على الناس ؟
 فقال عبدالله:

— يا أمير المؤمنين ، إني أهيب لك ، مني لهم .

فقام عثمان خطيباً في الناس وبشرهم بفتح أفريقيا وقال لهم إن ابن الزبير سوف يخبرهم خبرها . وكان ابن الزبير إلى جانب المنبر فقام خطيباً ، وكان أول من خطب إلى جانب المنبر ، فوصف للناس في بلاغة وتدفق ما حدث من فتح ، حتى إذا انتهى نهض إليه أبوه الزبير، فقبل بين عينيهِ وقال « ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم ، مازلت يا بني تنطق بلسان أبي بكر حتى صمت . . »

وكان عبد الله مع أبيه في وقعة الجمل ، وجرح جراحاً كثيرة ، ولكنه نجى وشفى من جراحه . ولما استقرت الخلافة لمعاوية كان الزبير من زعماء جفده ، واشترك في غزوة القسطنطينية التي جهزها معاوية . وإن من يتتبع أخباره وأحاديثه مع معاوية يشعر بأنه كان ينفس على معاوية ما وصل إليه ، ويلمح

أنه كان يطمح إلى الأمانة ، ويرى أنه جدير بها وكانت له في مجالس معاوية
مخاصمات ومناقشات أغلظ فيها القول لمعاوية وتفاخر عليه .

حدث يوما أن رد على معاوية فخطب الحاضرين في مجلسه قائلا :

— أسألكم بالله ، أتعلمون أن أبي حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم
وأن أباه أبا سفيان حارب رسول الله ؟ وأن أمي أسماء بنت أبي بكر الصديق
وأمة هند آكلة الأكباد ؟ وجدى الصديق وجده المشدوخ بيدر ورأس الكفر
وعمتي خديجة ذات الخطر والحسب وعمته أم جميل حمالة الخطب . وجدتي صفية
وجدته حمامة ؟ وزوج عمتي خير أبناء آدم محمد صلى الله عليه وسلم ، وزوج
عمته شر بني آدم أبو لهب ، سيصلي نارا ذات لهب ؟ وخالتي عائشة أم المؤمنين
وخالته أشقى الأشقين ؟ وأنا عبد الله وهو معاوية ؟!

بهذه اللمحة كان يخاطب معاوية ، وبهذه المرأة كان يتجدها على الملأ ،
وكان معاوية يحسب حسابه ، ويخشى منه على ابنه وولى عهد يزد ، فقال في
وصيته الأخيرة ليزيد يحذره من ابن الزبير :

— لست أخاف عليك غير « عبد الله بن عمر » ، « والحسين بن علي »
و « عبد الله بن الزبير » .

أما عبد الله بن عمر فرجل قد وقذه^(١) الورع ، وأما الحسين فإني أرجو أن
يكفيكه الله بمن قتل أباه وخذل أخاه ، وأما ابن الزبير فإنه خب^(٢) ضب ، فإن
ظفرت به فقطعه إربا إربا . . . » .

وعندما أراد معاوية أن يروض الناس على البيعة لابنه يزيد قال
لابن الزبير .

(١) صرعه (٢) الحب الخداع، والضب الحقن الدفين، ورجل خب ضب يعني مراوغ

— ما ترى في البيعة يزيد ؟

فقال له ابن الزبير :

— يا أمير المؤمنين . . . إني أناديك ولا أناجيك . إن أخاك من صدقك ، فانظر قبل أن تتقدم ، وتفكر قبل أن تندم ، فإن النظر قبل التقدم ، والتفكير قبل التندم . . . » .

فضحك معاوية وقال :

— ثعلبٌ رَوَّاعٌ . . . ! في دون ما سمعت به على ابن أخيك ما يكفيك .

وعندما جمع معاوية الوفود ليحدثهم في أمر البيعة ليزيد ، وتكلم الخطباء بين مؤيد ومعارض ، قام عبد الله بن الزبير فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه .

— أما بعد ، فإن هذه الخلافة لقريش خاصة ، تتناولها بما أثرها السنية ، وأفعالها المرضية ، مع شرف الآباء وكرم الأبناء . فاتق الله يا معاوية ، وأنصف من نفسك ، فإن هذا عبد الله بن عباس ، بن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا عبد الله بن جعفر ذى الجناحين ابن عم رسول الله ، وأنا عبد الله بن الزبير ابن عم رسول الله ، وعلى خلف حسناً وحسباً وانت تعلم من هما وما هما . فاتق الله يا معاوية ، وأنت الحاكم بيننا وبين نفسك » .

. . .

هكذا كان شأن الزبير مع معاوية ، فلما توفي سنة ستين هجرية وخلفه ابنه يزيد ، كان ابن الزبير ممن امتنع عن مبايعته ، وكان أشدهم عليه ، ولكنه لم يجاهر بطموحه إلى الخلافة لعلهم أن أعداء بنى أمية يؤثرون الحسين بن علي . فلما قتل الحسين سنة إحدى وستين هجرية ، وجد الفرصة سانحة ، والثرة ناضجة ، فثار بالحجاز ، وأخذ البيعة لنفسه ، وكاتب أهل العراق واليمن

وخراسان ومصر فوافقه الجمل الغفير منهم على خلع بنى أمية ، فأرسل العمال ، وولى الولاية . فلنستمع إليه الآن يخطب في أهل مكة بعد مقتل الحسين ، يعظم مقتله ، ويلوم أهل العراق والكوفة خاصة ؟ ويحرك العواطف ضد بنى أمية فيقول :

— إن أهل العراق أهل غدر وشر إلا قليلا ، وإن أهل الكوفة شرار أهل العراق . لقد دعوا الحسين لينصروه ويولوه عليهم ، فلما قدم عليهم ثاروا إليه فقالوا له إما أن تضع يدك في أيدينا فنبعث بك إلى ابن زياد بن سمية سلماً ، فيمضى فيك حكمه ، وإما أن تحارب . فرأى والله — وأصحابه قليل بين كثير — أنه مقتول . ولكنه اختار الميعة الكريمة على الحياة الذميمة . فرحم الله الحسين وأخزى قاتله . لعمري لقد كان من خلفهم إياه وعصيانهم ، ما كان في مثله واعظ وناء عنهم . ولكنه ما حم نازل ، وإذا أراد الله أمراً لن يدفع ، أفيعد الحسين نطمئن إلى هؤلاء القوم ؟ أيمن أن نصدق قولهم ونقبل لهم عهداً ؟ لا . . ولا نراهم لذلك أهلاً . أما والله لقد قتلوه طويلاً بالليل قيامه ، كثيراً في النهار صيامه ، أحق بما هم فيه منهم ، وأولى به في الدين والفضل . »

ثم يختم خطابه معرضاً يزيد فيقول :

— أما والله ما كان يبدل بالقرآن الغناء ، ولا بالبكاء من خشية الله الحدا ، ولا بالصيام شرب الحرام ، ولا بالجلوس في حلق الذكر ، الركض في تطلاب الصيد ، فسوف يلقون غيماً . .

وكانت بين ابن الزبير ويزيد حروب كثيرة ، فلما توفي يزيد سنة ٦٤ هجرية اشتد أمر عبد الله بن الزبير ، ودانت له أكثر البلاد الإسلامية ، عدا بلاد الشام ، فقد بايع أهلها معاوية بن يزيد ، ثم مروان بن الحكم الذي سار إلى مصر ففتحها ، ثم توفي بعد شهر من خلافة ابنه عبد الملك بن

مروان ، فاتصلت الحروب بينه وبين ابن الزبير الذى ثارت عليه فتن كثيرة ،
ففارقه الخوارج ، وانتفض عليه أهل الكوفة ، واشتغل ابن الزبير
بقتالهم جميعاً .

وكان ابن الزبير قد ولى أخاه مصعباً على العراق ، فخرج عبد الملك بن مروان
لقتاله بنفسه فى جيش كبير من أهل الشام فأخضع العراق وقتل مصعب بن الزبير
وعندما وصل خبر مقتل مصعب إلى أخيه عبد الله سكنت أياماً ثم صعد
المنبر فجلس عليه ملياً لا يتكلم والكآبة على وجهه وجبينه يرشح عرقاً ، فقال
رجل من قریش لجاره :

— ماله لا يتكلم ؟ أترأى يهاب للمنطق ! فوالله أنه للبيب الخطباء .

ثم تكلم ابن الزبير فقال :

— الحمد لله الذى له الخلق والأمر ، وملك الدنيا والآخرة ، يؤتى الملك من يشاء ؛
وينزع الملك ممن يشاء . ويعز من يشاء ويذل من يشاء ، ألا وإنه قد أتانا خبر من
العراق : بلد الغدر والشقاق ، فسادنا وسرنا . أتانا أن مصعباً قتل رحمة الله عليه
ومغفرته فأما الذى أحزننا من ذلك ، فأن لفراق الحميم لذعة ولوعة يجدها حميمه
عند المصيبة : ثم يرعوى من بعد ذو رأى والدين إلى جميل الصبر وكريم العزاء .
وأما الذى سرنا منه : فأنا قد علمنا أن قتله شهادة له . فقد أسلمه الطعام الصم
الأذان لإسلام النعم الخطمة^(١) ، وباعوه بأقل من الثمن الذى كانوا يأخذون منه
فإن يقتل فيه^(٢) . . . ؟ لقد قتل أبوه وعمه وأخوه وكانوا الخيار الصالحين .
إنا والله ما نموت على مضاجعنا ، ولـكن قعصاً^(٣) بالرماح ، وموتاً تحت ظلال
السيوف ، وليس كما يموت بنو مروان . والله ما قتل منهم رجل فى زحف فى

(١) الأبل المربوطة من أنوفها (٢) فماذا فى الأمر ؟ (٣) قعصه أى قتله وأجهز
عليه ومات إفلان قعصاً أى أساءته ضربة أو طعنة فبات مكانه

جاهلية ولا إسلام . ألا إنما الدنيا عارية من الملك القهار الذى لا يزول سلطانه ولا يبديد ملكه . فأن تقبل الدنيا علىّ ، لم آخذها أخذ الأشر البطر ، وأن تدبر عنى لم أبك عليها بكاء الخرق المهين . أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم . . . »

* * *

ولقد أدبرت عنه الدنيا ، إذ أرسل عبد الملك بن مروان الحجاج لقتاله ، فحاصر مكة طويلا ، ورمى الكعبة بالمنجنيق . ولما طال الحصار واشتدت المجاعة تفرق الناس عنه وخرجوا إلى الحجاج بالأمان .

ودخل ابن الزبير على أمه أسماء بنت أبي بكر فقال لها :

— خذنى الفاس حتى ولدى وأهلى ، فلم يبق عندى إلا اليسير ممن ليس عنده أكثر من صبر ساعة ، والقوم يعطوننى ما أردت من الدنيا . . فما رأيك ؟ فأجابته أمه جوابها الخالد الجدير ببنت الصديق ، قالت :

— أنت والله يا بنى أعلم بنفسك . إن كنت تعلم أنك على حق وإليه تدعو فأمض له فقد قتل عليه أصحابك ، ولا تمكن من رقبتك يتلاعب بها غلمان بنى أمية . وإن كنت إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت . أهلكت نفسك ومن معك . وإن قلت كنت على حق فلما وهن أصحابى ضعفت عزيمتى ، فهذا ليس فعل الأحرار ولا أهل الدين . كم خلودك فى الدنيا؟ القتل أحسن ما ينزل بك يا ابن الزبير فوالله لضربه بالسيف فى عز أحب إلى من ضربة بالسوط فى ذل .

فقال لها :

— إنى أخاف إن قتلتى أهل الشام أن يمثلوا بى .

قالت :

يا بنى . . إن الشاة لا يضرها السليخ بعد ذبحها . . !

—٧٦—

فدنا منها فقبل رأسها ، فعانقته فوقعت يدها على درع كان يلبسه .

فقالت له :

— ما هذا صنيع من يريد ما تريد .

قال :

— ما لبسته إلا لأشد متفك .

فقالت :

— فأنه لا يشد متنى .

فنزح الدرع وانطلق فقاتل قتالا شديداً حتى أنحن بالجراح وقتل ، فأرسل
الحجاج رأسه إلى عبد الملك ، وصلب جثته .

ومرت الأم العظيمة بابنها المصلوب فلم تزد على أن قالت :

— أما آن لهذا الفارس أن يترجل . . ؟ !

وكتب عبد الملك إلى الحجاج يلومه على صلبه ، فأمر بتسليم جثته إلى أمه
ففسلته ودفنته ، وكان له من العمر اثنتان وسبعون سنة ، ودامت خلافته
تسع سنين .

وقد لقي الحجاج بعد ذلك أمه فقال لها :

— كيف تريبنى صنعت بإبنك ؟

فأجابته قائلة :

— أفسدت عليه دنياه ، وأفسد عليك آخرتك .

ولحقت به بعد قليل .

میرابو

« اذهب وقل لولائك إننا هنا بأرادة الشعب »
« ولن نبرح مكاننا إلا على أسنة الحراب »
میرابو

ميرابو

لقد ترك « ميرابو » اسماً لامعاً كالجد الأسطوري ، ولكن حظه كان أقل من نبوغه .

هكذا قال عنه « بارتو » الوزير الفرنسي الشهير الذي يعتبر خير مؤرخ لميرابو والواقع أن هذه العبارة تلخص بدقة حياة هذا الخطيب العبقري الذي عاصر الثورة الفرنسية في مهدها ، وقاد خطواتها الأولى بشجاعة وحكمة واعتدال .

وفي عهود الثورات الشعبية العارمة يكون للخطابة شأن خطير في توجيه الحوادث . فالخطباء هم الذين يقودون الجماهير ، ويثيرون حماسهم بكلماتهم النارية . وكل مطلع على تاريخ الثورة الفرنسية يعرف كيف سيطر الزعماء من خطباء الجماهير على مجرى الأمور ، ثم أمسكوا بأيديهم زمام الحوادث ، وقبضوا بعد ذلك على السلطة في فرنسا زمننا ، وكيف كانوا يوجهون الجماهير لأغراضهم فيلهبون حماسهم بالخطب المعسولة ويحشدونهم لتنفيذ مآرهم وإرهاب خصومهم . وكـم شهدت شوارع باريس وحدائقها والجمعية الوطنية الخطباء من أمثال ديمولان ، ودانتون ومارا ، وروبيشير يشبون بخطبهم نار الثورة ويذكون أوارها حتى اندلع لهبها وكأنها الجحيم قد فتح أبوابه وقذف قذائفه . . . ! ولقد دفع هؤلاء الخطباء المتطرفون الثورة في طريق مظلم مخضب بالدماء ، وارتكبوا أفظع الجرائم باسم الحرية ، ونشروا على فرنسا ظلاماً كثيفاً من الرعب والأرهاب ثم انتهى الأمر بمعظمهم إلى المقصلة فسقطت رؤوسهم تحت سكينها التي طالما تخضبت بدماء الأبرياء .

لقد دفعوا الشعب إلى الجفون ، فسكروا من الدم ، ثم سقاهم من السكاس
التي جرعوها الآلاف من ضحاياهم .

ولكن ميرابو لم تبتلع الثورة المجنونة ، بل إنه سحرها ولم يخضع لسحرها
ولم يحن مع الشعب بل ظل عاقلاً ، وكان الوحيد بين زعماء الثورة الذي لم
تسقط رأسه تحت سكين المقصلة ، بل ظلت مرتفعة في خضم الحوادث ، يجمعها
بسحره الخطابي وشجاعته وجراءة بيانه ضد كل هجوم ، فلم تصل إليها يد حاقده
حاسد ، ولم تتناولها سكين الجلاد .

ولد « أونوريه جابريل ريكييتي كونت دي ميرابو » في ٩ مارس عام
١٧٤٩ ، وعندما بلغ الخامسة من عمره عهد به أبوه إلى السيد « بواسون »
الذي أخذ يلقنه مبادئ التاريخ والفلسفة ويعلمه اللاتينية واليونانية ، ثم أدخله
مدرسة داخلية في باريس حيث درس مختلف العلوم والفنون ، ثم ألقاه بعد
ذلك بسلاح الفرسان . وسافر « ميرابو » مع فرقته إلى بلدة « سانت »
ولسكنه في عام واحد دخل السجن خمسة أشهر . وذات مساء بعد أن خسر في
الليسر مبلغاً كبيراً ، هرب من وجه الدائنين تاركاً وراءه فتاة غرر بها بعد أن
وعدها بالزواج . وأصدر وزير الحرية أمراً بنفيه في قلعة بإحدى الجزر ، ولسكنه
استطاع قبل أن يخرج من المنفى أن يحصل على رتبة ملازم ثان في الجيش المسافر
لقمع الثورة في جزيرة « كورسيكا » . وهناك حارب بشجاعة وكتب يقول
« إنني ولدت لأكون محارباً ، فقد وهبني الطبيعة النظرة الفاحصة الخاطفة ،
وليس هناك كتاب في فنون الحرب كتب بلغة حية أو ميمة لم يقع نظري
عليه . . . » .

ومن مصادفات القدر أنه بينما كان « ميرابو » يحارب في جزيرة كورسيكا
عام ١٧٦٩ شهدت « أجاكسيو » عاصمة الجزيرة مولد نابليون بونابرت في

منزل متواضعاً . ولكن الأقدار كانت تدخر لهذا المحارب الشاب حياة أخرى ، فكانت تلك الحملة هي المعركة الوحيدة التي اشترك فيها ميرابو ، ثم عاد إلى فرنسا ليعيش مع عمه الذي تنبأ له بمستقبل عظيم ، وكان يقول عنه « سيكون هذا الفتى أهم مواطن في أوروبا ، ومن المحتمل أن يصبح بابا أو وزيراً أو جنرالاً أو مستشاراً . . . » .

ولكن « ميرابو » خيب ظن عمه ، فقد اندفع إلى حياة حافلة بالمغامرات الفرامية والمشاجرات ولعب القمار ، وأسرف في الاستدانة حتى بلغت ديونه أكثر من مائتي ألف من الجنيهات ، وأصبح الدائنون يطاردونه في كل مكان . وتدخل أبوه لأنقاذه ، فاستصدر من الملك أمراً بأبعاده ليكون بئامن من الدائنين . ولكن ميرابو فر مع إحدى عشيقاته وهي المراكيزة « دى مونييه » إلى هولندا ، وهناك اضطر إلى احترام الكتابة ، فنشر عدداً من الكتب والملازم والرسائل التي أذاعت صيته قبل الثورة .

وعندما اكتشف البوليس مكانه قبض عليه ، وأرسل ميرابو إلى قلعة « قفسان » حيث ظل سجيناً نحو أربعة أعوام .

وفي هذا السجن بدأ « ميرابو » يكتشف نفسه ، وأخذت تتجلى مواهبه الخطابية . فقد عاد إلى الكتابة فوضع عدة كتب كان أشهرها كتاب « الذكريات » الذي قال عنه « سانت بوف » إن عباراته البليغة مليئة بالثورة والحركات اللاإرادية للخطيب . ومن سجنه وجه إلى أبيه وإلى عمه رسائل يشرح فيها موقفه ويدافع عن نفسه كانت بمثابة خطب ومرافعات رائعة وكأنها أرهاص بمولد الخطيب المنتظر .

وقد واجه الجمهور لأول مرة بعد إطلاق سراحه ، عندما وقف « ميرابو » يدافع عن نفسه في ساحة المحكمة في القضية التي رفعتها عليه زوجته تطلب (م ٦ — الخطاب)

الطلاق . وحولت القضية إلى البرلمان فكانت بلاغته موضع الدهشة والإعجاب ثم سافر « ميرابو » إلى أنجلترا ، وهناك شهد كيف تسير الديمقراطية الناشئة ، وكيف يستطيع أن يظفر بالحكم أكثر الناس جرأة وبلاغة ، ، وزار مجلس العموم ، وسمع الخطباء ، ورأى وزيراً في الرابعة والعشرين من عمره يسيطر على أقدار بريطانيا العظمى في ظل الديمقراطية . وعندما سمع « وليم بت » الصغير يخطب ، أدرك مقدار القوة التي يمكن أن يثيرها اسم شهير اذا وهب الفصاحة والقدرة الخطابية .

لقد عاش « ميرابو » اثنين وأربعين عاماً قضى معظمها بين نفي وسجن واغتراب ، بسبب مغامرات الشباب ، ولكنه كان حيث ذهب يدرس ويقرأ ويكتب ، وساعده على ذلك ذكاء حاد ، وذات كرات قوية جعلت أباه يقول عنه وهو في السادسة من عمره « انه كالرمل يتلع كل شيء » وعندما بدأت أحداث الثورة كان في الأربعين من عمره ، وقد استكمل عدته ليلعب دوره الكبير ، ولكنه كان يحمل على كتفيه أخطاء شبابه ونزوات صباه . وكان هذا الماضي يعرقل خطاه ، ويمنعه من اظهار قدراته كاملة ، فكان يقول في أسف حزين :

« أسفاه . . ! كم أساءت عثرات الشباب الى المصلحة العامة ، اذ حالت بيني وبين الكثير مما أصلح له . لو كانت لي السمعة الحسنة فكم من أقدار كنت سأضمنها لبلادي ، وكم من مجد كنت سأقرنه باسمي ! »

* * *

عندما ساءت الحالة المالية لفرنسا ، واشتدت الضائقة المالية بالحكومة حتى أصبحت على شفا الإفلاس ، اضطر الملك لويس السادس عشر إلى دعوة مجلس الأمة ليعاونه على معالجة الأزمة المالية ، وينظر في سياسة الإصلاح التي وضعها الوزير « نسكر » .

وكان « ميرابو » في « برلين » عام ١٧٨٨ عندما سمع بدعوة المجلس الذي لم تشهد فرنسا جلساته منذ عام ١٦١٤ ، وعلم بأن الاستعداد يجري لانتخاب أعضائه ، فأسرع عائدا الى فرنسا .

كان « ميرابو » بطبيعة مولده أرسقراطيا من الأشراف ، فسمى للحصول على مقعد في المجلس بين النبلاء ، ولكنهم أعرضوا عنه وأبوا عليه هذا الشرف ، فحتمد عليهم واتخذهم هدفا لحملاته منذ ذلك اليوم .

واتجه « ميرابو » إلى الشعب فألقى بنفسه بين أحضانه ، ورشح نفسه عن العامة في دائرتين ، وخاض غمار المعركة الانتخابية مناديا بحقوق الشعب ، مناديا بالإصلاح ، منددا بالأشراف وامتيازاتهم وبالفساد المستشري في البلاد . وفتن الشعب بهذا النبيل الذي يدافع عن حقوقه ، وتحمس له ، فكان يقابله كما يستقبل الأبطال الظافرين ، حتى بلغ الأمر بالجمهور أنه كان يقبل مكان مرور مجلات عربته !

وكانت المعركة الانتخابية فرصته الكبرى ليمتحن قدرته على الخطابة ، وليكشف عن نبوغه وعبقريته في التأثير على الجماهير . لقد استطاع أن يجلب الأبواب بسحر بيانه ، وروعة بلاغته ، وأن يسيطر على الجماهير فيطويها وينشرها على هواه ، ويخضعها لسحره ، مما جعله يقول :

— هكذا يصبح الشعب عبدا . . !

ونجح في الدائرتين فاختر الفياحة عن « أكس » ، وعندما اجتمع « مجلس طبقات الأمة » في ٥ مايو ١٧٨٩ خلع « ميرابو » ثياب الأشراف وذهب إلى المجلس مرتديا ثياب نواب الشعب السوداء وجلس بين صفوفهم .

وكان المجلس مكونا من ثلاث طبقات هي الأشراف ورجال الدين والعامة .

وكان عدد نواب العامة مساويا لمجموع عدد نواب طبقة الأشراف ورجال الدين. وعندما افتتح الملك المجلس أعلن أن الغرض الأساسي من الاجتماع هو معالجة الحالة المالية ، ولم يشر إلى موضوع الدستور الذي كان يطالب به الشعب . وفي اليوم التالي ذهب نواب العامة إلى المجلس فلم يجدوا الأشراف أو رجال الدين ، فقد اجتمعت كل طبقة منهما في قاعة منفردة . وأدرك نواب الشعب أن الهدف من ذلك هو حرمانهم من الانتفاع بميزة عددهم للمضاعف عند أخذ الأصوات ، فيكون لهم صوت واحد ، والكل من الطبقتين الآخرين صوت مماثل .

وأنقضى اليوم بغير عمل ، فقد وجد نواب الشعب المنتخبين أنفسهم وحدهم ، حائرين بغير برنامج أو خطة عمل ، يتساءلون أين الحكومة وممثلوها ، وقد استولى عليهم الخوف والحذر .

وكان « ميرابو » ينظر إليهم فيرى خمسمائة من المكرات المتشابهة قد انتخبهم الشعب ولكنهم لا يدرون ماذا يصنعون . إن لهم أهدافا ولكنهم لا يعرفون وسيلة لتحقيقها . وأدرك أنهم في حاجة إلى من يقودهم ، إلى العقل المفكر ، والرأس المدبر ، والقلب الذكي الشجاع ، واللسان الذي يصول ويحول . إنها اللحظة التي كان ينتظرها ، فها هي ذى المنصة ليس أمامه إلا أن يصعد درجاتها ، وهؤلاء هم نواب الشعب يتلفتون بحثا عن الزعيم ، فلماذا لا يتقدم ولديه كل المزاي التي تؤهله لسد الفراغ ؟ وبعد أيام من الحيرة والتردد والمفاوضات العقيمة مع الطبقات الأخرى ، أعلن « ميرابو » أنه علم أن « سييس » نائب باريس لديه اقتراح عملي . وتقدم « سييس » باقتراحه وهو أن تستقل طبقة العامة بالعمل وتطلق على نفسها « الجمعية الوطنية » وتبدأ على الفور بوضع دستور تصان فيه حقوق الشعب .

ووافق النواب بالإجماع ، وانضم إليهم عدد من النبلاء ورجال الدين ، وانتخبت الجمعية رئيساً مؤقتاً لها من نواب الشعب .

ولسكنهم عندما توجهوا في اليوم التالي إلى قاعة الاجتماع ، وجدوا الأبواب مغلقة بحجة إعداد القاعة لجلسة مقبلة ، فأتجهوا إلى ملعب التنس المجاور ، وهناك أقسموا على أن « نواب فرنسا قد أقسموا على ألا يتفرقوا ، وأن يجتمعوا في كل وقت ، وفي كل مكان ، حتى يضعوا لفرنسا دستوراً على أساس متين » .

وفي يوم ٢٣ يونية دعيت الطبقات الثلاث للاجتماع في القاعة العامة ، وحضر الملك وألقى خطاباً ضمنه إلغاء القرار الذي اتخذته نواب الشعب ، وحدد الإصلاحات التي رأى بحثها لادخالها على نظام الحكومة ، ثم أعلن قراره الأخير بوجود انفصال طبقات المجلس عند المناقشة وأخذ الأصوات ، ثم غادر القاعة ومن ورائه الأشراف ورجال الدين ظافرين بما كانوا يطلبون .

وبقى نواب الشعب وقد تولاهم الدهول ، وتنازعهم عوامل السخط والتمرد والخوف

ودخل رئيس التشريعات يذكرهم بأمر الملك ويطلب إليهم أن يتفرقوا ، ولسكنهم جمعدوا في أماكنهم وقد خيم على القاعة صمت رهيب .

وأطل عليهم التاريخ يرقب ما يصنعون .

ونجاة برز « ميرابو » من بين الصفوف الواجعة ، وتقدم نحو رسول الملك وعيناه تقدحان بالشرر ، وصوته يدوى كإرعد وكأنه صوت القضاء المحتوم ، وهو يقول :

— إذهب وقل لمولاك إننا هنا بإرادة الشعب ، وإن نبرح مكاننا إلا على أسنة الحرب ..

أرسل ميرابو هذه الكلمات فاخترى رئيس التشريعات ، وتشجع النواب فظلوا في أما كنهم وتجاهلوا أمر الملك وكأنه لم يكن ، وسلم « لويس » واستسلم للامر الواقع ، وعرفت الجمعية الوطنية زعيمها وسيدها الأمر .

وتناقل الشعب عبارات « ميرابو » فأصبح رجل الدولة ورمز الثورة .

* * *

وكان « ميرابو » قد وضع لنفسه خطة سياسية واضحة . فهو يرى الأبقاء على الملكية مع إقامتها على نظام ديمقراطي كالنظام الإنجليزي ، فيسكون للشعب مجلس نيابي منتخب يضع القوانين ويفرض الضرائب . وكان ينادى بوضع دستور يفصل بين السلطات ، ويحدد اختصاص كل منها فلا تطغى أحداها على الأخرى . ولكن الجمعية الوطنية لم تسكد تبدأ عملها حتى بدأ الملك يتفكر للشعب ، فاستقدم الجيش إلى « فرساي » حيث أحاطت جنوده بالجمعية لأرهاب أعضائها .

ولما لبست الجمعية من استجابة الملك لطلبها أن يسرح الجنود ، صعد « ميرابو » إلى المنبر ، وألقى خطبة ملتهبة هاجم فيها علناً لأول مرة سياسة الملك ، وندد ببطانته ، وعاب على الملك خضوعه لزوجته « ماري أنطوانيت » ولبطانة السوء وقال :

— هل قرأوا في تاريخ الشعوب كيف تبدأ الثورات وكيف تسير ؟ وهل أدركوا أن الحوادث في تفاعلها واشتباكها قد تدفع بأشد الناس اعتدالا إلى أقصى حدود التطرف . . ؟

وأدهش « ميرابو » الجمعية مرة أخرى بشجاعته وبلاغته .

وعندما جاء الملك إلى الجمعية يعرض عليها أن تنتقل إلى مدينة أخرى بعيداً عن الجنود الذين يحيطون بقصر فرساي ، قال « ميرابو » ساخراً :

— إننا لم نطلب الهرب من الجنود، وإنما نطلب إجلاء الجنود عن العاصمة! —
ولسكن الملك مضي في تدبيره الرجعى ، فعزل « نسكر » الذى كان
الشعب يعلق عليه الآمال فى اصلاح الحالة المالية . وهاجت الخواطر بتأثير
المتطرفين من أمثال « مارا وكاميل دى مولان » الذى أسرع بنقل الخبر
إلى « باريس » ووقف على احدى الموائد فى ميدان « الباليه رويال » يخطب
الجمهير التى احتشدت حوله ويقول « لقد عدت الآن من فرساييل ، وقد عزل
الملك « نسكر » ، وعزله ايدان بوقوع مذبحه يهلك فيها الوطنيون . لقد
انطلقت جنود الجيش هذا المساء لتبش بكم ، فبادروا إلى حمل السلاح
ولا تضعوا لحظة واحدة، واحملوا شارات تتميز بها ، احملوا الشارة الخضراء
رمزاً للامل ، أيها الأخوان . . اننى أدعوكم الى الحرية . . » ثم لوح بمسدسه
وصاح « لن يدانى أحد حيا ، فسوف أعرف كيف أموت بشجاعة . ان مصابا
واحداً هو الذى يمكن أن يتزلزل ، ذلك أن أرى فرنسا مستعبدة . . » ثم
تناول شريطاً أخضر وضعه فى قميصه ، فحمله الناس ، وانطلقوا يطلبون السلاح ،
ثم اقتحموا الانفاليد ودار الصناعة واستولوا على ما فيهما من سلاح .

ووثب الشعب فى ١٤ يولية على الباستيل فسوى جدرانها بالأرض، وانطلقت
الثورة من عقلمها حيواناً مفترساً متعطشاً للدماء ، وهاجم الشعب فى الأقاليم
قصور الأشراف ، وسادت الفوضى فى كل مكان .

وأزعج ذلك « ميرابو » فأخذ يعلن أن استمرار دكتاتورية الشعب
سوف يعرض الحرية للدمار ، وأطلق نبوءته التى تحققت بعد عشرة أعوام
عندما قال :

— إن الشعب إذا اعتاد الفوضى وسفك الدماء ، فإنه بدلا من تحقيق
الحرية، سوف يسقط فى هاوية العبودية، وسوف يخرج من أعماق تلك الفوضى
مستبد قاهر يتراعى للشعب فى ثياب المنقذ . .

وعندما ازدادت الفوضى فزع الملك من تهادى الشعب ، فاستدعى فرقة « الغلاندر » الموالية له لتكون بمثابة حرس خاص يدافع عنه فى فرساي . وانتمز المهيجون الفرصة لأثارة الشعب ضد الملك ، ولارغامه على الإقامة فى باريس ليأمنوا جانبه ، فدبروا ثورة النساء للمطالبة بالخبز ، واقتحم المتظاهرون قصر فرساي ، ولكن « لاثايت » أسرع لنجدته على رأس الحرس الأهلى ، وحال بين الملك وبين الشعب الهائج على أن يعود الملك إلى باريس واضطر « لويس إلى الاستسلام ، وعاد إلى قصر « التويلرى » بباريس وسط موكب النساء ، حاملا على صدره شارة الثورة .

وهذأت الحالة فى فرنسا بعض الشئ وانتقلت الجمعية الوطنية إلى باريس وانصرفت إلى وضع الدستور الذى بدأته فى فرساي . وفى هذه المرحلة تجلت عبقرية الخطيب العظيم ميرابو .

* * *

اشتركت عناصر عديدة فى تكوين شخصية الخطيب العبقرى ميرابو . وهبته الطبيعة جسماً فريداً ، فكان طويل القامة ، عريض المنكبين ، له رأس ضخيم يغطيه شعر كثيف يصفقه ، وعينان تشعان بريقاً خاطفاً ، رآهما « شاتوبريان » فقال « رايت فيهما الكبرياء والذيلة والعبقرية ، وعندما تذبلان على طريقته الخاصة ، فحدث ما شئت عن السحر الذى لا يقاوم » . إذا اعتلى المنبر طالعك منه وجهه قبيح ، سلط الزمن عليه الجدرى فى صباه فكساه طابع الجهامة ، فكان يبدو بشعره الهائل كمعرفة الأسد ، شيئاً مخيفاً لا يجرؤ أحد على مقاطعته . قال عنه أحد أعضاء الجمعية « كان ميرابو وحشاً هائجا مفترسا ، له وجه النمر ، لا تراه متكلماً إلا نائراً منفعلاً » . وكان هو يقول عن نفسه « إنهم لا يدركون ما لقبح وجهى من قوة . . ! » .

أما صوته فكان هبة الطبيعة الكبرى للخطيب . صوت موسيقى ذو جرس ورنين ، يعرف كيف ينوعه بمهارة، تسمعه تارة عذبا رقيقا ناعما ، وتارة صاخبا هائجا كقصف الرعد، يقذف عباراته الغاضبة كالصواعق تترجح لها جنبات المجلس .

دخل المجلس في سن الأربعين رجلا مكتمل النضج والتجربة ، مزوداً بذخيرة ضخمة من المعلومات ، قد اختلط بالفلاحين في مقاطعته ودرس أحوالهم وتعامل مع المرابين ورجال المال فعرف أسرارهم ، وخاض غمار المحاكم في قضاياها الخاصة فأدرك عيوب إجراءاتها ، كما عرف أسرار السياسة ودسائس البلاط وخفايا القصور ، وساعده على ذلك ذهن لائح، وذكاء خارق، وذاكرة واعية ، وبديهة حاضرة .

وكانت له كالقلم خطة واضحة وسياسة مرسومة يؤمن بأنها تحقق الحرية للشعب وتعصم فرنسا من القوضى . كان يقف بين الملك والشعب ينصب لها الميزان ، ويمنع القوتين المتصارعتين من أن تشتط إحداها أو تطغى على الأخرى .

وعندما لمع نجمه في سماء الجمعية أحاطت به الأحقاد من كل جانب ، وتربص به خصوم انكروا عليه كل فضيلة ، وأطلقوا حوله الإشاعات والاتهامات ، ولكنه لم يعبأ بهم ، وظل في مكانه شجاعا جريئاً قوياً .

وكانت رباطة جأشه على المنبر تثير الدهشة ، إذ كانت له قدرة عجيبة على السيطرة على عواطفه في أشد الأوقات وأحرجها ، فكانت أمواج الحقد والغضب التي يثيرها تتحطم عند قدميه دون أن تثيره أو تحرك منه ساكناً . كان يتكلم عن التسمية التي يقترحها للمجلس في الدستور الجديد فقاطعه خصومه، وإنهالت عليه التهديدات والشتائم ، وظل ساكناً حتى تهدأت الضجة .

وعندما ترك المنبر التفت نحو الرئيس وقال بصوت جهورى :
— لقد تركت على مكتبك يا سيدى الرئيس الجزء الذى أثار كثيراً من
الهدير، والذى أسىء فهمه. إننى أقبل أن أحاكم على أساس محتوياته على أيدي
كل أصدقاء الحرية . .

وفى إحدى المرات قاطعه فريق من الأعضاء وأشبعوه سباً ، فتوقف عن
الكلام ونظر إليهم فى هدوء ثم قال :

— إننى انتظر يا سادتى حتى تنتهى تحميكم الرقيقة . . !

ثم واصل حديثه من النقطة التى توقف عندها .
وكان وهو جالس فى مقعده يرسل العبارة الواحدة تحمل من المعانى
مالا تحمل الخطبة الكاملة . قال مرة عن « روبسبير » :
— سيذهب هذا الرجل بعيداً لأنه يؤمن بكل ما يقول .

وقال عن « لا فاييت » قائد الجيش :

— إن لا فاييت له جيشه ، أما أنا فلى رأسى .

وصاح مرة موجهها كلامه إلى فريق من الأعضاء المشاغبين :
— ليسكت الأعضاء ذو الثلاثين صوتاً .

ويقول « بارتو » إن « ميرابو » كان مزوداً بما يمكن أن نسميه بالخيال
التاريخى ، وقد ساعده على ذلك إطلاعه الواسع على التاريخ ، فكان بارعاً فى
بعث أحداث الماضى ليستشهد بها أو يدلل على صحة فكرته ، فيلتقط الحادثة
التاريخية ويلقى بها نابضة بالحياة فى خضم المناقشة . فعندما تردد الملك فى الموافقة
على « إعلان حقوق الإنسان » الذى وضعته الجمعية ، وقف « ميرابو »
يحاول التوفيق بين السيادة الوطنية للجمعية وبين السلطة الملكية ، ويقول
محذراً الملك .

— بيدولى أنه فى الإمكان توجيه رد إلى الملك نكلمه فيه بتلك الصراحة
التي خاطب بها مجنون يدعى « فيليب » نفسه قائلا « ماذا عساک تفعل
يا فيليب إذا كان العالم كله يقول كلا ، عندما تقول أنت نعم ؟ »

وعندما طالب أحد الأعضاء من رجال الدين بإعلان المذهب الكاثوليكي
ديناً رسمياً للدولة ، اختلفت الآراء واحتدمت المناقشة ، فلما قال أحد الأعضاء
إن لويس الرابع عشر كان قد وعد ألا يسمح بقيام المذهب البروتستانتي
وطالب بالوفاء بهذا الوعد ، نهض ميراو ليحتج على هذا العمل الاستبدادي
الذي يصادر حرية العبادة ولا يصلح نموذجاً لمثل شعبي حر وقال بلهجة رائعة :

— بما أنه قد ذكرت نصوص تاريخية فى الموضوع فأننى لن أذكر إلا
نصاً واحداً . ألا فتعلموا أيها السادة أننى أرى من هنا ، ومن نفس هذا المنبر
الذى أحدثكم منه ، شرفة القصر الملكي يطل منها المنحرفون الذين يمزجون
مصالحهم الدنيوية بأكثر الأمور الدينية قدسية ، ويستخلصون من يد ملك
ضعيف السلاح القاتل الذى أعطى الإشارة لبدء مذبحه سان بارتلمى .. !

واستولى الذهول على أعضاء المجلس ، وخيم عليهم صمت عميق وكأنما صمعتهم
المفاجأة ، وراحوا يحدقون فى الخطيب الذى كان ما يزال يشعلهم بنظراته النارية
وهو يرتعد من التأثير ، ثم اندفعوا يصفقون ويهتفون . وبعد بضعة أيام كان أحد
الأعضاء يهتفه بانتصاره ويقول له صاحبه كما إنه كان مبالغاً فى تصويره ، لأنه
لم يكن يستطيع أن يرى قصر اللوفر من مكانه فوق المنبر ، فرد عليه ميراو :
— فى لحظة الإلهام هذه ، كنت أرى كل ما أقوله .

والواقع أن « ميراو » كانت تسعفه بديهية حاضرة ، ونخيلة تومض
بما يشبه الإلهام فى ساعات الحرج . وقد قال يوماً لخصمه « بارناف »
الخطيب الشهير :

— أتدرى ماذا ينقصك ؟ إنه لا يوجد لديك إلهام !

وكانت له سخريات لاذعة .

اتهمه خصومه بأنه شوهد يجول شاهرا حسامه بين صفوف الفرق العسكرية المرابطة في فلاندر ، ولم يكن هذا صحيحا ، فقد خلطوا بينه وبين « جاماش » الذى يشبهه فوقف يقول ساخرأ :

— وهكذا ترون أن شهادة السيد الذى اتهمنى لن يكون فيها ما يكدر حقاً إلا بالنسبة للسيد « جاماش » الذى سيجد نفسه متهما بشدة القبح والدماة ، لا شيء إلا لكونه يشبهنى . . !

وعندما كان يتكلم فى المناقشة التى أثبتت حول يمين الكفيسة ، انفجر هدير حزب اليمين ، فقال :

— أتوسل إلى الحزب الذى يقاطعنى فى المجلس أن يدرك جيدا أننى لا أطمع فى أسقفية .

* * *

ولقد خاض « ميرابو » أروع معاركه الخطابية عند وضع الدستور . كانت الجمعية الوطنية تسمى الظن بالملك ، فأخذت تحرمه فى مشروع الدستور من كثير من الحقوق التى تعتبر عادة من اختصاص السلطة التنفيذية وثار الخلاف فى الجمعية حول حق إعلان الحرب ، فكان من رأى « ميرابو » أن يكون هذا الحق الملك ، وأخذ يدافع عن رأيه متسائلا كيف يستطيع سبعمائة من النواب أن يقطعوا برأى سليم فى موضوع إعلان الحرب . ألا يكون من أثر الحماس الملازم لكل مناقشة حول الكرامة الوطنية ، أن تندفع الجمعيات الشعبية دائما إلى إعلان الحرب ؟ أما إذا ترك الأمر الملك فإنه لن يعلن الحرب إلا بعد بحث هادئ يحيط بكل الظروف والاعتبارات . وقال :

— ما الذى تخشونه من وضع هذه الساطة فى يد الملك ؟ لقد كانت روما جمهورية ومع ذلك قام فيها قيصر بحروبه ، وخرج هانيبال من صلب قرطاجنة ولم تكن ملكية ، وقد كانا من شياطين الحروب كما تعلمون . .

وصدمت الجمعية بهذه الآراء ، وأسرع زعماء نادى اليعاقبة يطلبون إلى « بارناف » أن يرد عليه ، باعتباره خطيبا شهيرا مجربا من أعضاء الجمعية ، وأشاعوا أن « ميرابو » قد خان الثورة وباع نفسه للملك ، ودعوا الشعب إلى سماع رد « بارناف » .

وألقى « برناف » خطبته فرد على ما قاله « ميرابو » وناقش أدلته وآراءه ، وهاجمه هجوما عفيفا ، ثم ختم خطابه فقال للتدليل على أن الملوك إذا كانت لهم سلطة لإعلان الحرب استخدموها فى غير صالح بلادهم :

— هل تعلمون أن « بركليس » عندما طالبته أثينا أن يقدم لها حسابا عن أموالها شغلها عن هذا الطلب بإعلان الحرب .

وغادر « بارناف » المنصة وسط عاصفة من التصفيق والهتاف وانتهت الجلسة وقد خيل إلى الجميع أن « ميرابو » قد انتهى .

وعلم زعماء اليعاقبة أن « ميرابو » سوف يرد فى اليوم التالى ، فحشدوا خمسين ألفا من أهل باريس أحاطوا بالجمعية ليشهدوا خيانتة للثورة ويشوشوا عليه . وعندما اعتلى « ميرابو » المنبر قوبل بالصياح والصفير ورفض النواب الاستماع إليه ، فظل مكانه محاولا أن يظفر منهم بالصمت ، ولما طال به الوقت صاح قائلا :

— إن أصدقاء برناف إما أنهم يعتقدون أن خطبته من القوة والصدق بحيث لا يمكن الرد عليها وتفنيدها ، وإما أنهم يعتقدون أن اليسير الرد عليها وهدهمها . فإن كانت الاولى كان لى أن أتوقع من كرمهم ألا يخشوا ردى عليه

أما إذا كانوا يعلمون أنها ليست فوق مستوى الرد فإن الواجب الوطنى يفرض عليهم بأن يفهموا الموضوع من جميع جوانبه حتى يكون قرارهم سليماً .

وتهاشم النواب وقد أخرجهم هذا التحدى ، ثم سمحوا له بالكلام . وبدأ كلامه هادئاً غير مكترث بما دبروه له ، فأخذ يقارن بين مظاهر التأييد المصطنعة التى أعدت لبرناف ، وبين ما دبر له من وسائل التهديد والتشهير قائلا :

— لقد أشاعوا أراجيف الرشوة والخيانة ، وتهديدون بانتقام الشعب ليقيموا دولة الآراء المستبدة . إن الذين احتفلوا بي منذ أيام وقدموا إلى أكايل الجمد والفخار هم أنفسهم الذين ينادون اليوم فى الشوارع بخيانتى العظمى . . ا
ثم تغير صوته وأرتفع زفيره وصاح :

— أنا أعلم أن المسافة قريبة بين صخرة « تاريان »^(١) وبين الكايتول بين المكان الذى رفعت لى منه راية الجمد وبين الصخرة التى تنتظر الزعيم المتهم ولكن ذلك لن يخيفنى ، وسأخاطبكم كرجل لا يبالى بضربات الأيدي وتصفيقها ، ولا يعبأ بهمسات الألسن وإشاعاتها . إن ذلك كله لن يوقف تيار حياتى المتدفق ولن يعترض سبيلى .

ثم تناول موضوع المناقشة فقال متحدياً الجمعية :

— التزموا الصراحة وقولوا لا نريد ملكاً ، أما أن تقولوا نريد ملكاً ، ولكننا نريده عاجزاً غير نافع ، فهذا تناقض لا يمكن احتمالاً . هل لأن الملكية أخطاءها تريدون أن نمنعوا مزايها عن الشعب ؟ أم أن أجل أن النار قد تحرق فى بعض الأحيان تريدون أن تحرموا الناس من حرارتها وضوئها ؟ أجيبنى

(١) الصخرة التى كان يلقي الرومان من فوقها الحونة بينما يحتفلون فى الكايتول بانقائد المنتصر .

إن استطعتم ، ثم نادوا إن شئتم بعد ذلك بخيانتي وعاري . . !
ومضى «ميرابو» يستعرض خطاب « بارناف » ويرد على ما قاله فقرة
فقرة ، وكلما انتهى من الرد على إحدى حججه قال :

— أية قيمة لهذه الحجة ؟ أجيبي . . إنكم لا تجيبون . . وإذن سأستمر
واستمر « ميرابو » يناقش خطاب « بارناف » ويمزقه إربا بمنطق قوى وبلاغة
رائعة ، وشجاعة لا تحفل بالخطر ، ثم أنهى خطابه قائلاً :

— إن « بارناف » لم يتكلم في الموضوع ولم يمسه ، ولكنه كان يستثير
عواطفكم . لقد أراد أن يثبت لكم أن الحكومات قد تحاول أحياناً الهرب من
المسؤولية فيعلن ملوكها الحرب ليشغل بها الناس فضرب مثلاً بالحرب التي أعلنها
« بركليس » حتى لا يقدم حساباً طلب منه . ولقد خيل لكم وأنتم تستمعون
إليه أن « بركلس » هذا كان ملكاً من الملوك الطغاة أو وزيراً مستبداً ،
ونسى الجميع أن « بركلس » كان رجلاً يعرف كيف يتعامل عواطف الجمهور ويظفر
بتصفيقه عندما يعتلى المنبر ، وبهذا أمكنه أن يظفر بالتأييد لأعلان الحرب على
البلجيكيين . هل تعرفون تأييد من الذي كسبه لكي يعلن الحرب ؟

وتوقف « ميرابو » وتفرس في الوجوه المرتفعة نحوه قبل أن يقول :
— أتعرفون من الذي أيده ووافق على إعلان الحرب ؟ إنها الجمعية
الوطنية لأثينا . . !

وهنا بلغ « ميرابو » ذروة التأثير وأحس الأعضاء بالوخزة التي وجهها
الخطيب إلى الجمعية ، وفهموا من عبارته أن الجمعية قد تعلن الحرب يوماً بتأييد
خطيب مثل بركليس . وخرج « ميرابو » ظافراً بثقة الجمعية وأصواتها .
قال « بارتو » يصف هذه الخطبة في كتابه عن ميرابو .
— إن ما قاله ميرابو لا يمكن تلخيصه . وإذا قدشنا في تاريخنا الخطابي

عن خطبة توازى خطب الفحول القدماء من رجال أثينا وروما يل تفوقها قوة إلقاء ، وروعة أداء ، وشرف استلهم ، وحسن توفيق في اختيار العبارات والألفاظ بلغ حد الإعجاز ، فلن نجد سوى هذه الخطبة التي تعتبر نموذجا لسكال ، ولا تزال كلماتها ومعانيها تنبض بالحياة .

* * *

رقد طمع الملك لويس في أن يحتذب « ميرابو » إلى صفه ، وقابلته الملكة ماري انطوانيت ، ودفع القصر عنه ديونه ، وتراءى للناس في صورة من باع نفسه للقصر ، ولكن « ميرابو » لم يكن ليفرط في عقيدته بمال فكانت آراؤه في الجمعية الوطنية صادرة عن اقتناع وإيمان عميق بما يقول ، فقد كان يتمنى أن يقوم في فرنسا حكم ملكي ديمقراطي على غرار النظام الإنجليزي الذي شاهده عند زيارته لبريطانيا .

وقد شعرت الجمعية الوطنية بتقرب القصر إليه ، ولكن أحدا من أعضائها لم يجرؤ على مواجهته بذلك ، غير أنها أغلقت في وجهه الطريق إلى الوزارة ، فقررت عند وضع الدستور أنه لا يجوز أن يتولى الوزارة أحد من أعضائها .

ولقد حاول « ميرابو » عبثا أن يمنع وضع هذا النص في الدستور حتى لا تحرم البلاد من الكفاءات التي تضمها الجمعية ، وقال :

— إنكم تريدون إذن أن يتخذ الملك وزراءه من حاشيته وبطانته ، بدلا من أن يختارهم من نواب الشعب الحائزين لثقته ؟

وقال ساخرا :

— يكفيكم أيها السادة أن تجعلوا قراركم هذا مقصورا على كونت ميرابو

ومع ذلك فقد عرف الشعب له فضله وآمن بإخلاصه ، فرفعه إلى أعلى مقام لديه ، فاختره في أواخر عام ١٧٩٠ رئيساً لنادى اليعقوبيين .

ولعل أروع وصف لميرابو الخطيب هو ما كتبه شاعر فرنسا الكبير فيكتور هيجو ، قال :

— ميرابو يتكلم . . هذا هو الماء يجرى ويتدفق ، هذا هو الموج يرغب ويزبد ، بل تلك هي النار تقدح بالشرر . لا مائدة ولا أوراق ، ولا محبرة ولا أقلام ، ولكنه الرخام يهوى عليه بضرباته ، ودرجات المنصة يهرول عليها جارياً . المنصة . . لا . . بل قفص من أقفاص الوحوش الضارية يروح فيه ويفدو ، ويسير ويتحرك ، ويقف ويلهث ويزأر . يشبك ذراعيه ، ويضم قبضتيه يحمل الكلام بأشاراته الموقعة ، وبضياء أفكاره بنظراته المعبرة . وجمهور حاشد يكره الخطيب ، هم أعضاء الجمعية الوطنية ، لكن يحيط بهم جمهور آخر أعظم منهم يحبه ، ذلك هو الشعب . ومن حوله عقول كبيرة ، وأرواح عظيمة ، وشهوات ومطامع وطبائع متباينة يعرفها ويضرب عليها فيخرج منها النعمة التي يريد بها بيد ماهرة ، وريشة قادرة . ومن فوقه قبة الصالة الكبرى ترتفع إليها عيناه كأنه يستنزل من سماءها وحى الفكرة ، فتنزل الأفكار من تلك القبة العظمى فوق تلك الرأس العظمى . هذا هو ميرابو في مكانه ، بل تلك هي البذرة الصالحة في أرضها .

* * *

في يناير ١٧٩١ انتخبت الجمعية الوطنية « ميرابو » رئيساً لها ، وظل الخطيب العظيم يعتلي المنصة ويدلى برأيه في الموضوعات التي تبحثها الجمعية . ولكن الجهد العنيف الذي بذله خلال عامين حافلين بالأحداث ، والأرهاق (م ٧ - خطباء)

المتصل الذى تعرض له خلال كفاحه ، أنهك صحته ، فسقط مريضاً فى مارس من ذلك العام ، ولم يلبث أن فارق الحياة فى الثانى من إبريل عام ١٧٩١ وفقدت الثورة رجالها الكبير الذى كان لها بمثابة صمام الأمن يفل من غربها ويطامن من غلوائها . وفقدت الملكية نصيرها العظيم الذى كان قادراً على إنقاذها .

وكان ميرابو أول من دفن فى البانثيون من العظماء . وقد قيل عنه إنه قسم حياته شطرين ، شطراً للهوى وشطراً للثورة ، فكانت حياته ثورتين ، ثورة للشباب ، وثورة للحرية ، فقضى حياته كلها ثائراً .^(١)

(١) محمد صبرى أبو علم « الخطابة والخطباء » فى البلاغ الأسبوعى .

وليم بيت الكبير

« لقد أجهدت أنجملترا نفسها وقاست كثيراً »

« ولكنّها أخرجت في نهاية الأمر للعالم رجلاً »

فردريك الأكبر

وليم بت

قال عنه « ما كولى » أكبر ناقديه « لوفدشنا بين العظماء الذين تجاوز عظامهم فى التراب عظامه فلن نجد من يفوقه نبالة اسم وطهارة ذكر . . »
وقال عنه فردريك الأكبر « إنه أعظم رأس فى إنجلترا »

وقال عنه لورد بروكهام « هو الخطيب الذى لم يعرف المنبر له مثيلا ،
والسياسى عندما يصيب أكبر حظ من التوفيق . . »

ويعتبر المؤرخون « وليم بت الكبير » واحداً من بناء الامبراطورية
البريطانية فى القرن الثامن عشر .

ولد وليم بت فى نوفمبر عام ١٧٠٨ ، وكان جده لأبيه حاكما لمقاطعة مدراس
فى الهند ، فهو من أسرة غنية محترمة . وكان أبوه « روبرت » عضوا فى
البرلمان ، فلما توفى ورث أبنه الأكبر « توماس » المال والعقار فلم يبق
لوليم إلا الشئ اليسير .

وتلقى « بت » علومه فى مدرسة « إيتون » ثم التحق بجامعة أكسفورد ،
ولكنه كان يعانى من مرض النقرس ، فنصحته الأطباء بالسفر إلى فرنسا
وإيطاليا للعلاج ، فقطع دراسته قبل أن يحصل على درجة علمية .

وعندما توفى أبوه التحق فترة بالجيش ، ثم تركه لياقى بنفسه فى خضم
الحياة السياسية . وفى عام ١٧٣٥ دخل مجلس العموم وهو فى السابعة والعشرين
عن عمره .

وقضى « بت » الدورة البرلمانية الأولى وهو لا يكاد يفتح فمه .
ولاشك أنه كان خلال هذه الفترة يدرس الحياة السياسية ويحاول أن ينفذ إلى

أسرارها وخباياها ، وأن يلم بالأعياب الأحزاب ومفاوراتها ، كما يفعل المحارب الذكى عندما يدرس أرض المعركة ويتعرف إلى أبعادها وطبيعتها قبل أن يخوض غمارها .

وقد أزعج « بت » ما تبينه من فساد الحياة السياسية ، وهاله أن يرى أصوات الأعضاء تشتري بأموال المصاريف السرية ، فتتحفز للنضال والهجوم على وزارة « والبول » الذى كان على رأس الحكم .

وعندما ألقى « بت » خطابه الأول فى مستهل دورة المجلس عام ١٧٣٦ أدرك الجميع أهم أمام قوة جديدة ، واستولى على انتباه الأعضاء واهتمامهم فصاروا يصغون إليه بأعجاب وشغف كلما هم بالكلام .

وحاول « والبول » رئيس الوزراء أن يرهب الشاب الخطيب أو يكهم فمه فعمد إلى السخرية منه معيراً إياه بحداثته سنه ، فوقف « بت » وارتجل تلك الخطبة الرائعة الساخرة التى تناقلها الناس التى قال فى مطلعها :

— مع الاحترام العظيم للشعور الرمادية التى تزين رؤوس حضرات الأعضاء المحترمين . . .

وعند ذلك نزع « والبول » جديلة الشعر المستعار من فوق رأسه فظهر شعره الرمادى فضج المجلس بالضحك ، واستمر « بت » يقول :
— إن جريمة حادثة السن ، هذه الجريمة الهائلة التى راق لرئيس الوزراء أن يقذفنى بها فى خفة ورشاقة ، لن أحاول إنكارها أو تخفيف أثرها ، إذ يكفينى أن أتمنى لنفسى أن أكون من أولئك الأحداث الذين ينتهى حمقهم بإنهاء حداثتهم لا من أولئك الذين كلما امتدت بهم السن زاد جهلهم وكبر حمقهم رغم طول التجارب . وسواء كان الشباب جريمة يحاسب عنها المرء ، فلن أشغل نفسى بالتحرى عن هذا الأمر أو تحقيقه ،

فلا جدال في أن الشيخوخة تجلب السخرية إذا كانت التجارب التي ساقتها تمر من غير أن تثمر ، وإذا كانت الرذيلة تتغلب عندما تطلق جذوة الشباب . إن من ارتكب كثيراً من الأخطاء والآثام ورأى نتائجها ولا يزال رغم ذلك يقارف كل يوم إنمأ جديداً ، وكلما امتد به العمر جمع إلى العناد حقاً وغباوة ، يستحق منا كل سخرية واحتقار ، ولن يحميه شعره الرمادي من سخفنا..!

وهكذا عرف الخطيب الشاب كيف يرد الصاع صاعين ، ويصب غضبه وسخريته على رأس رئيس الوزراء الذي جلس يترنح من قسوة الخطيب الجريء.

ومضى « بت » يشق طريقه صاعداً إلى ذروة الشهرة بفصاحته ومقدرته الخطابية التي نضجت بالممارسة والمران . ولم يكن ينتسب إلى حزب فتحرر من الالتزام الحزبي الذي يفرض عليه الدفاع عن أشياء قد لا يؤمن بها ، فلم يكن يتكلم إلا بوحى من ضميره واقتناعه ، دفاعاً عن حق أو هجوماً على تصرف خاطيء ، وكان يقول :

— لقد جئنا إلى هذا المجلس بقوة الشعب وسلطانه .
ووقف يحول بين الأحزاب ومحاولة العبث بالدستور ، فعلمها كيف تجمع على احترام الدستور وتقديسه . قال مرة لأعضاء المجلس :

— إذا كان مقدراً أن يصاب الدستور ، فأرجو ألا توجهوا إليه الطعنة في هذا الظلام الشامل وفي جوف هذا الليل الحالك .

وسرعان ما أصبح « بت » خطيب البرلمان الأول غير منازع ، تحسب الوزارة له ألف حساب ، وتتودد إليه المعارضة ، ويرهف الأعضاء أسماعهم مبهورين إذا وقف للكلام .

ولقد كان « بت » خطيباً عظيماً .

وهبته الطبيعية في سخاء كل ما يحتاج إليه الخطيب ، فكان طويل القامة ، رشيق الحركة ، يوحى منظره بالسيطرة والتحكم . أما عيناه فكانتا كعيني النسر إتساعاً وتحديقاً ، ينبعث منهما شعاع يثير الرهبة . وصوت رائع واضح الذبرات ، إذا انخفض كان حلواً رقيقاً حافلاً بالأنغام ، وإذا ارتفع ملاً المجلس دويماً ، وهو في الحالين يعرف كيف يستخدمه لأحداث التأثير المطلوب .

قال عنه « ما كولى » الناقد الكبير :

— عندما ظهر في البرلمان خطيباً لأول مرة ، بدا شكله رائعاً ، نبيلاً ومتحكماً ، والنار تنبعت من عينيه . وكان صوته إذا تكلم هامساً يسمع بوضوح من أقصى المقاعد الخلفية . أما إذا علا وارتفع فكان يجلجل في المجلس كأنه صوت أرغن ضخم في كاتدرائية كبيرة ، وكان يسمع في أروقة المجلس وتصل أصداؤه العالية إلى بهو وستمنستر .

وقال عنه ناقدوه بأنه كان يلجأ إلى الحركات التمثيلية في خطبه ، حتى لقد كتب « ما كولى » يقول .

— لو صعد « بت » خشبة المسرح لكان خير من يمثل دور بروتس .

والواقع أن الخطيب الناجح يحتاج إلى شيء من التمثيل الذي يعاونه على تلوين صوته وتجميل إشارته والاحتفاظ بانتباه السامعين والتأثير فيهم .

وكان « بت » خطيباً مرتجلاً ، فلم تكن خطبه خطب الأديب الذي ينفق كلامه ، بل كانت وحي الساعة ، والهام الظروف ، فإذا وقف منفعلاً بفكرة تدفق كالسيل وتفجر كالينبوع ، وانطلق يصوغ أفكاره وخواتمه في عبارات تستثير من النار حرارتها ومن البلاغة جلالها وسحرها .

وقد قال عنه نقاده إنه لم يكن يملك زمام نفسه إذا وقف للكلام ، فلم يكن يعرف إلى أى مدى ينتهى به تدفقه الخطابى . وقال « ما كولى » :
 وإن « بت لم يكن سيداً لخطابته بل كان عبداً لها » .

وقال « بت » نفسه مرة للورد شلبورن عند مناقشة موضوع حساس كان يعرف أسرارهِ الرسمية :

— يجب أن أجلس صامتاً ، لأننى عندما أفق للكلام تتبادر إلى شفتى كل خواطرى .

وصفه اللورد « روزبرى » فقال :

— عندما قام « بت » خطيباً فى المجلس استولى عليه صمت عميق ، وحبس الأعضاء أنفاسهم وهم يتابعون كلامه ، وهو ينتقل من استهلال بارع مؤثر فياض بالذكريات الممتعة ، والقصص الزاهية ، إلى تهكم مر وسخرية قاتلة كان يهمس فإذا همساته تهديد ، ويصرخ فيلقى الرعد والوعيد . وتحسب الأعضاء من فرط الانتباه أثناء كلامه ، وقد سكنت حرركاتهم وانحسبت أصواتهم ، كأنما قد أصابهم الشلل أو أنعمدت ألسنتهم من خمر حديثه .

وقال عنه لورد « تشستر فيلد » الخبير بأساليب الكلام :

— كانت هجماته صادقة مخيفة ، وكان إلقاؤه وأداؤه وتحفزه للنضال يخيف أكبر الخطباء استعداداً لمجادلته ، فكان خصومه يلقون أمامهم سلاحه .

* * *

ومضت أعوام ونجم الخطيب الشاب يعلو ويلمع ، بينما أخذت المتاعب والأضطرابات تهدد الإمبراطورية البريطانية فى أكثر من مكان . وبدأت الاشتباكات بين الجيوش البريطانية فى الهند وكندا وبين الجيوش الفرنسية . وأخذت

أنباء الهزائم تأتي من الشرق والغرب ، وكان أفيجها فقدان بريطانيا لجزيرة « مينورقا » . واشتعلت النار في المستعمرات البريطانية التي لا تغرب عنها الشمس ، وفرض فردريك الثاني الصلح على حنيفته بريطانيا وكان صلحاً مخزياً وأحس الجميع بضعف الحكومة وعجزها عن مواجهة الأحداث الجسام وسقطت وزارة « والبول » وجاء الملك بوزارة أخرى اشترك فيها ولیم پت وزيراً وزعيماً للمجلس النيابي ، ولكنهما لم تدم في الحكم سوى خمسة شهور .

ويقول « ما كولي » في كتابه الذي ترجم فيه لحياة پت :

— في ذلك الوقت كان پت يغير مركز أو لقب ، وبغير ثروة ، وكان مكروها من الملك جورج الثاني ، مكروها من الطبقة الأرستقراطية والرأسمالية ومع ذلك فقد كان يبدو أهم شخصية في الدولة .

وكان يرى بلاده تهان وتنهال عليها الهزائم رغم موارد العظيمة ، ويعتقد أن موارد الإمبراطورية لو وجدت من يحسن استخدامها بحزم وقوة ، فسوف يتغير الأمر . وكان يقول في ثقة بنفسه وقدراته :

— إنني واثق من قدرتي على أنقاذ هذه البلاد ، وأن لا أحد سواي يستطيع ذلك .

وفي عام ١٧٥٨ وجد الملك نفسه مضطراً إلى دعوته للحكم ، حيث تولى الأشراف بنفسه على الشؤون الخارجية وشؤون الحرب .

وما كاد « پت » يتولى الحكم حتى قال :

— أريد أن أبعث انجلترا من حالة العجز واليأس التي جعلتها تنهزم أمام عشرين ألف جندي فرنسي .

ومضى « پت » ينفخ من روحه في البلاد كلها ، ويبث في الجميع الثقة والأمل ، حتى قال عنه خصمه « والبول » :

— لقد بث الحياة في مجالسنا ، وبعث في نواحيها روح النشاط ، وحارب
الحمول واليأس ، ورفع لإنجلترا أعلام النصر .

وقال أحد القواد العسكريين :

— ما دخلت مكتب بت إلا وخرجت منه أقوى عزماً وأثبت جأشاً
وأشد إقداماً .

ولم تسكد تبدأ سنة ١٧٥٩ حتى تحولت هزائم بريطانيا إلى انتصارات في
كل مكان . لقد توالى الهزائم قبله على الجيوش البريطانية في بروسيا والهند
وكندا ، ولكنه لم يكبد يتسلم زمام الأمر حتى أنساها الهزائم ، وكان سقوط
« كوبيك » يوم اجتماع مجلس العموم في مستهل عام ١٧٥٩ قمة الانتصار فقابله
الجلس بمظاهرة رائعة من الهتاف والتصفيق

وجاء عام ١٧٦٠ والانتصارات يتلو بعضها بعضاً ، فقد سقطت « مونتريال »
في يد الإنجليز ، وارتفع العلم البريطاني على جميع أرجاء كندا ، ولحقت السكوارث
بالأسطول الفرنسي على الشواطئ الأوروبية والأمريكية ، واستطاع « بت » أن
يوطد أركان الإمبراطورية البريطانية في الهند وأمريكا .

في ذلك الوقت قال فردريك العظيم وقد راعته عظمة « بت » :

— لقد أجهدت إنجلترا نفسها وقاست كثيراً ، ولكنها أخرجت في نهاية
الأمر للعالم رجلاً . .

وكان « بت » يمضي في طريقه مؤمناً بقدرته يشتعل حماسة ونشاطاً رغم
مرضه ، محترقاً لوسائل الرشوة والفساد التي كان يعتمد عليها الساسة في زمانه
لتحريك أداة الحكم ، عظيم الكبرياء ، شديد الترفع ، متسامياً عن المادة
والأنانية الشخصية .

دعى مرة إلى القصر الملكي فقال :

— لن أذهب إلى القصر إلا إذا وثقت من أنني سأعود ومعى الدستور نافذاً محترماً .

وفي أكتوبر عام ١٧٦٠ توفى جورج الثانى وتولى العرش الملك الشاب جورج الثالث .

وبدأت أحداث جديدة تتوالى ، وعقدت فرنسا معاهدة سرية مع أسبانيا فأعلن « بت » أنهما يستعدان لمهاجمة بريطانيا ، واقترح إعلان الحرب فوراً على أسبانيا ، ولكن رأيه لم يؤخذ به ، فانسحب من الحكم والوزارة . وعرض عليه الملك أن يعينه حاكماً عاماً لكندا ، ولكن « بت » رفض العرض رغم مرتب المنصب الكبير .

ورغم اعتزاله الحكم فقد ظل « بت » معبود الشعب حدث أن أقيمت فى جيلدهول مأدبة عشاء تكريماً للملك وعروسه دعى إليها بت . ويروى « ما كولى » ما حدث فيقول :

— إن الملك الشاب قد تلقى فى تلك الليلة درساً ، فقد كانت كل العيون منصرفة عنه إلى الوزير المستقيل . وعندما مرت عربة « بت » فى الشوارع انفجر هدير من الهتاف له من الجماهير المحتشدة بالطريق وعلى الشرفات . ولوحت له النساء بمناديلهن من النوافذ . واندفع الناس نحو عربته يقبلون الخليل التى تجرها . . ! وارتفع الهتاف من كل مكان « بت إلى الأبد . . »

* * *

انسحب « بت » من الحياة السياسية الرسمية ، وأشتد عليه مرض البقرس فالزمه الفراش . وتولى الحكم وزراء لم يحسنوا التدبير ، وفرضت الحكومة

على مستعمرتها الأمريكية ضرائب فادحة أيقظت الفتنة النائمة في العالم الجديد وكانت الشرارة التي أشعلت حرب الاستقلال الأمريكية . وكان من رأى « بت » أن من حق أمريكا أن تقرر بنفسها الضرائب التي تفرض عليها . وفي يناير من ١٧٦٦ ذهب إلى مجلس العموم ليشارك في مناقشة خطاب العرش الذي كان قد استعرض حالة أمريكا .

وقال بت في خطبة شهيرة ارتجلها في تلك المناقشة :

— لقد طال غيابي عن هذا المجلس الموقر ، وكان فراش المرض يضمنى عندما صدر القرار الخاص بفرض الضرائب على أمريكا . ولو كنت أستطيع في ذلك الوقت أن أحتمل النقل من فراشي لالتست يداً محسنة كريمة ترفعني من فراش المرض إلى هذا المجلس لكي أسمعكم صوتي . إنني أعلم أن قراركم قد أصبح قانوناً ، ويجب أن أتكلم باحترام عن القوانين التي تصدر عن هذا المجلس ، ولكنني مع ذلك أرجو أن تسمحوا لي بالتحدث عن هذا القانون ، لأنكم تملكون إعادة النظر فيه إذا تبين لكم وجه الحق . ومضى « بت » يسوق الدليل تلو الدليل على أن فرض الضرائب على المستعمرات لا يدخل في سلطة الحكومة المركزية ، وليس من اختصاص البرلمان ، لأن الضرائب منحة يقدمها الشعب إلى الحاكم ، ولا يعقل أن يقدم الانجليز للملك بريطانيا أموال أمريكا منحة من غير رضاها . ورد عليه رئيس الوزراء مستنكراً مهاجمة قانون أصدره المجلس ، فقال بت :

— لقد تسكلم كثير من الخطباء ضد هذا القانون بحرية عدها البعض جريمة ، وإنني ليؤسفني أن تعتبر حرية القول في مجلسكم هذا جريمة ! ولكن هذا الاتهام لن يرهبنى ، لأنه يلد لي أن أمارس هذه الحرية وأتمتع بها إلى آخر حدودها .

يقول رئيس الوزراء إن أمريكا عنيدة ، وإنها في شبه ثورة ، وإنه لیسعدنی أن أسمع أن أمريكا تقاوم . فلو أن الملايين الثلاثة الذين يقيمون في أمريكا من الأنجلو ساكسون ماتت فيهم كل عواطف الحرية ، وقبلوا أن يساموا الخسف كالعبيد ، لأصبحوا آلات صالحة لأن تجعل من بقية هذا الجنس عبداً أذلاء .

إن العضو المحترم يتساءل متى انفصلت أمريكا عنا ؟ فليسمح لي أن أسأله بدورى : متى كانت أمريكا عبداً لنا ؟!

لقد تحدثوا عن أمريكا وراثتها ومبلغ سعادتها ، وهذا حديث غير مأمون إننى أعلم أن بريطانيا تستطيع أن تقضى على أمريكا وتهزمها في حرب شريفة ، ولو قدر لنا أن ننصر في معركة لتأييد هذه الضرائب فسيكون انتصارنا محفوفاً بالمخاطر . إن أمريكا إذا سقطت فأنها تسقط كما سقط شمشون الجبار ، إذ تقبض بيديها على أساس الدولة وأعمدتها ، وإذا ذاك يتداعى وينهار معها كل بنائنا الدستورى . فهل هذا هو السلام الذى تريده ؟ سلام يغمد فيه سيفكم ، لا فى قرابه ، بل فى صدور أبنائكم . . ؟!

لقد ظلمنا الأمريكيين ودفعناهم إلى الجنون ، فهل تريدون أن تعاقبهم على جنون أنتم سببه ومصدره ؟ فليسمعوا صوت العقل والحكمة والاعتدال من جانبنا ، وأنا كفيل بأن أمريكا سوف تقابلنا بالمثل «

وقد نجح « بت » فى إلغاء القانون بعد الصراع العنيف الذى خاضه فى مواجهة الحكومة وأغلبية البرلمان .

وسقطت وزارة « روكنجهام » ودعى « بت » لتشكيل الوزارة ، ومنحه الملك لقب إيرل ، ففقد مقعده فى مجلس العموم ، وأصبح عضواً فى مجلس اللوردات باسم « إيرل شاتام » الذى عرف به فى التاريخ .

ولكن المرض عاوده واشتد عليه فتدخل عن الحسك وابتعد عن الحياة العامة أكثر من ثلاثة أعوام حتى ظن الجميع أنه قد اختفى إلى الأبد .
ولكنه عاد فجأة إلى البرلمان مرة أخرى . كانت الحكومة البريطانية قد عادت تصب غضبها على أمريكا وترسل القوات لأخضاعها، فتجامل « شاتام » على نفسه وذهب إلى مجلس اللوردات ليقول كلمته في سياسة الحكومة .
وصف « ماكولي » ظهوره الفجائي فقال :

— عاد عودة مفاجئة وكأنا قد بعث حيا . لقد اعتاد الناس أن يتكلموا عنه كما يتكلمون عن الموتى ، فلما ظهر لهم عند افتتاح الدورة في حاشية الملك اضطربوا كأنهم يرون شبحا . .

وعاد « شاتام » يدافع بجرارة عن أمريكا . وكان مما قاله :

— سوف أقوم بواجبي حتى النهاية ، ولن يقعدني عن ذلك إلا المرض إذا ألصقني بالفراش ومنعني من الحركة . وسوف أظل أذب الباب على الوزارة الغافلة المرتبكة حتى أفتح عينيها على الخطر المحدق . إنني لأطلب لأمريكا عطفاً أو رحمة بل عدلاً وإنصافاً ، ولا أطلب الغاء قوانين بل إلغاء آلامها ومخاوفها .
ثم ألقى في وجه اللوردات بهذه النبوءة التي تحققت بعد أعوام فقال :

— سادتي اللوردات .

إننا لن نقدر على غزو أمريكا وقهرها ، وسوف نضطر في النهاية إلى الانسحاب ، فلننسحب قادرين لا مرغمين . وسنضطر إلى الغاء هذه القوانين الظالمة ، وسوف تلغونها بأنفسهم ، وأقسم لكم على ذلك بشرفي لو كنت أمريكياً بقدر ما أنا بريطاني ، ورأيت جنود العدو تظأ بلادى لما وضعت سلاحى أبداً . . أبداً . . أبداً »

وكانت هذه الخطبة من أروع خطبه في أعوامه الأخيرة وقد سمعها ابنه وليم بت الصغير الذي كان إذ ذاك في السادسة عشرة من عمره وسمعا « لورد ستانجوب » فوصفها بقوله :

— سمعت قبل اليوم الفصاحة مجردة من الحكمة ، أو الحكمة خالية من الفصاحة ، ولاكفى سمعتهما اليوم وقد امتزجتا في خطبة شاتام .

* * *

بينما كانت وطأة المرض تشتد على « شاتام » ، كانت الأحوال تزداد سوءا في أمريكا التي ثارت وأعلنت استقلالها عن بريطانيا . وساد الضعف والاضطراب أعضاء البرلمان والحكومة ، وتلفتت الأنظار نحو السياسى المريض تلتمس عنده الأنقاذ من الحالة السيئة .

وتقدم « لورد نورث » باستقالة الوزارة إلى الملك وأشار عليه باستدعاء شاتام .

ولكن شاتام أرسل إلى مجلس اللوردات يعلن أنه سيجلس جلسة يوم ٧ أبريل ١٧٧٨ ليدلى برأيه فى الاقتراح الخاص باستقلال أمريكا .

ويصف مؤرخه وناقده « ما كولى » عودته الأخيرة إلى البرلمان ، إلى الميدان الذى شهد مجده السياسى والخطابى فيقول إن أطباءه نصحوه ألا يغادر فراشه ولكنه لم يستمع إليهم ، وذهب إلى وستمنستر فى صحبة ابنه وليم بت وصهره لورد ما هون ، واستراح فى حجرة جانبية حتى بدأت المناقشة ، وعندئذ مضى يعرج إلى مقعده بالمجلس مستندا إلى ذراعى رفيقيه . كان يرتدى كمادته حلة من القطيفة السوداء ، ويبيده عصاه ، وقد تهضم وجهه من الهزال حتى لا يكاد الناظر إليه أن يتبين من ملامحه سوى أنفه العالى المقوس وعينييه اللتين ما يزال يومض منهما بريق تلك النار القديمة .

وتكلم رئيس الوزراء ثم وقف شاتام وبدأ يتكلم بصوت غير مسموع ثم أخذت نبرات صوته فى الوضوح ، والمجلس يصغى إليه فى صمت وسكون عميق ، والأعضاء يحبسون أنفاسهم كي يلتقطوا كل كلمة تخرج من شفثيه .

ورفع إيل شاتام إحدى يديه عن عصاه واتجه بعينيه نحو السماء وهو يقول..

— أشكر الله الذي وهبني القدرة على الحضور إليكم اليوم لأؤدي واجبي .
لقد أصبحت شيخاً ضعيفاً يخطو نحو القبر ، وقد يكون اليوم آخر عمدي بكم ،
ولسكني قمت من فراشي لسكى أؤيد قضية بلادي .

ثم أخذ يصف الحرب الأمريكية ويتحدث عن شرورها والمسؤولين عن
إشعال نارها وقال :

— إنها نعمة من الله أن القبر لم يطبق بعد على جوانبه ، وأنه ما زالت
لدى القدرة لأرفع صوتي ضد تمزيق هذه المملكة الكريمة ، وإذا كان مقدراً
لذا أن نسقط . . فلنسقط رجالاً .

وكان الأعضاء يصغون إليه في سكون رهيب ، وهم يشعرون أنه لم يعد
يملك قواه ، وأنه يتحدث إليهم من عالم آخر ، كما لو كان شبحاً قد نفّض عنه
أ كفان القبر .

ورد عليه دوق ريتشموند بلطف وأدب ، ولكنه لاحظ أثناء كلامه أن
شاتام يتململ في ضيق وألم شديد ، فجلس الدوق ، وعند ذلك قام شاتام ولكنه
لم يستطع الكلام ورآه الأعضاء يضع يده على صدره ثم يسقط على مقعده .
وأُسرع لتجديته عدد من الأعضاء ، وانفضت الجلسة ، ونقل شاتام إلى دوننج
ستريت ومنها إلى قريته حيث فاضت روحه .

وهكذا سقط الخطيب العظيم كما يسقط الجندي في ميدان القتال ، وشاء
القدر أن تكون نهايته على منبر البرلمان ، وهو ميدانه الذي عرف فيه النصر
وحقق لنفسه مجداً خالداً على الزمان .

وليم بنت الصغبر

« كمت وأنا أخطب أبحث عن الكلمة حتى أجدها ، »

« أما بت فكان يجد الكلمة المطلوبة دائماً في متناول »

« يده ولسانه »

« فوكس »

وليم بت الصغير

اشتهر فى التاريخ باسم وليم بت الصغير ، تميزأله من أبيه وليم بت الكبير ، أولورد شاتام الذى تحدثنا عنه فى الفصل السابق .

ولكنه لم يكن صغير القدر والمجد ، وإذا كان قد انتفع بالإسم الضخم الذى ورثه ، فقد بنى لنفسه بمواهبه وكفاحه مجداً أضخم كاد ينسى الناس مجد أبيه العظيم .

ولد فى عام ١٧٥٩ بين هالات المجد الذى تحيط بأبيه ، وفى السنة التى أسس فيها أبوه مستعمرة كندا ، وكان اسمه أرفع لأسماء وأعظمها فى بريطانيا.

وكان بت نحىلاً ضعيف الجسم ، فتلقى تعليمه فى المنزل تحت إشراف أبيه الذى أخذ يعمده منذ طفولته للحياة العامة ، ويكلف بتعليمه أرفع الأساتذة ويلقنه أصول الخطابة .

وأخذ بت يطالع خطب الأقدمين من عهد ديموستين وشيشرون ، ويدرسها بعناية ، ويحفظ الكثير منها ، ويردها أمام أبيه . وكثيراً ما كان يذهب إلى دار البرلمان ليشهد الجلسات الحافلة بالجدل الخطابى ، وليستمع إلى أعظم خطباء عصره ، وكأنه يتلقى دروساً عملية فى الخطابة والجدل البرلمانى .

ولم يدرك بت الصغير أيام والده فى مجلس العموم ، عندما كان يصول على منبره ويحول ، ولكنه أدركه فى مجلس اللوردات ، عندما كان يعانى المرض ويقاومه بعناد .

وقد أحب وليم بت مجلس العموم وأخذ يعد نفسه ليكون من أعضائه وليشارك فى توجيه سياسة بلاده مترسماً خطى أبيه . وماذا ينقصه ؟ إن لديه

الاسم اللامع والمقدرة الخطابية ، وقد قال « ما كولى » بحق « إن انجلترا يحكمها أفدر خطيب » .

وتوفى أبوه وهو فى التاسعة عشرة من عمره ، فلما بلغ الحادية والعشرين نجح فى الانتخاب ودخل مجلس العموم ، وكان ذلك فى يناير ١٧٨١ وهكذا دخل ولیم پت المجلس الذى طالما ذهب إليه متفرجاً يعجب ببلاغة الخطباء ، ليصبح خطيبه اللامع ونجمة الساطع .

دخل المجلس ووزارة « لورد نورث » تهتز تحت ضربات المعارضة القوية وتواجه الهزائم المتلاحقة فى مستعمراتها الأمريكية ، وتكلم « بت » فلفت الأنظار وبهر الأعضاء ، وأعاد إلى الأذهان مواقف أبيه حتى قال أحد زعماء المجلس :

— إن بت ليس شبلاً لأبيه شاتام ، ولكنه الأسد نفسه ! .

وقال أحد الأعضاء لخطيب الأحرار وزعيمهم « فوكس » .

— إن هذا الغلام سيكون من رجال البرلمان المعدودين .

فقال له فوكس :

— إنه لكذلك من اليوم .

وسقطت وزارة « لورد نورث » ، وشكل « روكنجهام » الوزارة الجديدة ، وعرض على پت منصب وزير إيرلندا ، وكان منصباً وزارياً لا يسمح لمن يشغله أن يكون عضواً عاملاً فى الوزارة . وقد أدهش پت الجميع عندما رفض قبول المنصب الذى كان يعد من غنائم الحياة السياسية ، والذى تولاه أبوه نفسه فى مستهل حياته السياسية ، وقال فى تعفف وكبرياء :

— إننى لا أقبل أن أكون مسئولاً عن أعمال وزارة لا أجلس بجانب أعضائها ولا أشارك فى مداولاتها ! ..

وضمت الوزارة الجديدة « فوكس » و « بيرك » ، ولكن روكنجهام « توفي بعد قليل ، ودعا الملك « شلبورن » لتشكيل الوزارة الجديدة التى رفض أن يشترك فيها « فوكس » و « بيرك » فاعتمد الرئيس الجديد على تأييد « بت » له فى مجلس العموم . ولكن فوكس اتفق مع خصومه السابقين ، وقام ائتلاف بينه وبين لورد نورث ، وهاجموا الوزارة حتى أسقطوها . ووجد الملك نفسه مضطراً إلى قبول وزارة ائتلافية ، ثم انتهز أول فرصة وأقالها ، وكلف وليام بت بتشكيل وزارة جديدة .

* * *

كان تكليف بت بتشكيل الوزارة حدثاً فريداً فى تاريخ السياسة البريطانية . شاب لم يبلغ الخامسة والعشرين من عمره ، ليس له فى المجلس حزب يسند ، ولم يسبق له أن تولى منصباً وزارياً ، يرأس وزارة بريطانيا العظمى ، بلد التقاليد المحافظة ، فى أواخر القرن الثامن عشر . . . لهذا لم يكن غريباً أن يقول أحد الساسة المحترفين :

— أولاد يلعبون فى الوزارات ، وبعد قليل سوف يطردون منها ليمودوا إلى مدارسهم وتعود الحياة العامة لتجربى فى مجراها الطبيعى .

وثارت فى وجهه العواصف منذ اليوم الأول ، وكان خصومه يقابلونه فى المجلس بالتصفير ، وفى اليوم الثالث لتأليفه الوزارة استقال منها أحد كبار أركانها فهل خصومه فرحاً وقالوا « لقد انتهينا من هذا الولد » . وعرض بت بعض المناصب الوزارية على أصدقائه فرفضوها اعتقاداً منهم بأن وزارته لن تعمر طويلاً .

ووقف « بت » وسط هذه الأعاصير صلباً رابط الجأش ، ثابت الجفان لم يفقد إيمانه وثقته بنفسه ، وهى صفات ورثها عن أبيه . واتجه نحو الشعب يتحدث إليه من فوق منبر مجلس العموم ، فيثير حماسه ، ويحث فيه الأمل فى حياة سياسية نظيفة ، ويبشره بالخلاص من الأعباء الساسة المحترفين ، ويهاجم الفساد الذى استشرى فى أداة الحكم ، ويضرب بنفسه أروع الأمثلة العملية لما يجب أن يكون عليه السياسى المسئول . ومن خطبه فى تلك الفترة فى مجلس العموم خطبة رائعة قال فيها :

— إننى لم أكن شغوفاً بتولى الحكم أو متهاكاً عليه . ولن أتردد فى التخلّى عنه إذا تراءى للشعب أن يستغنى عن خدماتى . ولقد كان أقصى غايتى فى المدة القصيرة التى قضيتها فى الوزارة أن أودى واجبى بكل ما فى طاقتى من قدرة وقوة ، وبزاهة وشرف كنت استمد منهما القوة والثقة لمواجهة ما يعترضنى من عقبات . وأستطيع الآن أن أقرر بثقة تامة أنه لم تكن لى يوماً غاية لا تتعلق بمصلحة هذه الأمة .

ولسكنى مع ذلك سأقلد العضو المحترم فى الصراحة التى زعم أنه أصطنعها فى كلامه ، فأعترف أن لى أيضاً أطماعى . إن المركز الكبير والنفوذ العظيم أشياء يتمناها معظم الرجال ، ولا أخجل من السعى إليها والحصول عليها . وطالما كان الحصول عليها بشرف ، والاحتفاظ بها بكرامة ، فأنى لست أقل رغبة فى أن أكون قويا وعظيما مما هو طبيعى لدى أى شاب مثلى . ولسكنى أتخلّى عن هذه الأشياء كلها وأسحقها بقدمى فى اللحظة التى أرى فيها أن واجبى نحو أمتى يحتم على القيام بهذه التضحية . وحينئذ أنسحب إلى عزلتى ، لا خائفاً بل منتصراً منتصراً باعترافى أننى قد استخدمت مواهبى ، على تواضعها ، بكل قوة وحس وبقدر ما أفهم ، فى سبيل النهوض بمصالح بلادى .

وقد اتهم بعضهم بالفهم ، أو الخطأ في الحكم ، ولكن لا يمكن أن ينسب إلى أننى سميت إلى مصلحة شخصية ، كما أنه لا يمكن أن ينسب إلى أى شيء يمس نزاهتى من قريب أو بعيد .

وعندما يحين الوقت الذى أتخلى فيه عن منصبى ، فإن تكون خطى أن أزعج هذه البلاد وأهدد طمأنينتها ، فأخذ من منبر هذا المجلس — كما يفعل غيرى الآن — ملجأ أحتفى به ، وأترأى بالفيرة على الصالح العام ، وأصبح مقبلاً كى عليها ، بينما هم فى الواقع يندبون مطامعهم الخائبة .

وأحس خصومة بالوخزة القاسية فارتفع ضجيجهم فى المجلس ، ولكنه مضى فى خطبته ، وارتفع صوته مدوياً وهو يقول :

— إن من يشعر نحو أمته مثل شعورى ، ويتفانى فى خدمتها كما أفعل ، لا يهمه أن يكون فى الحكم أو خارجه ، وكل ما يهمه أن تراعى مصالح الدولة وأن تدار بحكمة ونزاهة .

إننى ألقى بمقاليد الحكم إلى من يستطيع السير بها أفضل منى ، وأخرج بغير حرب ، وبغير احتجاج . ولكنى أرجو أن يحملوا معهم إلى دور الوزارات المبادئ الوطنية الحقة التى تخلوا عنها عندما عادوا إلى صفوف المعارضين . . ! ثم ختم خطابه موجها حديثه إلى الشعب خارج المجلس قائلاً :

— إننى أتجه إلى المستقلين فى هذا المجلس ، وأتجاوز حدود هذه القاعة فأنتجه إلى الشعب عامة ، إذا لم يكن لطلب التأييد الذى تستحقه هذه الوزارة ، فعلى الأقل لتبرئتها من اللوم والنقد .

لقد كان كل هـى أن أبذل ما فى وسعى لخدمة بلادى بشرف ونزاهة ، وكانت كل مشاعرى متجهة لخدمة الشعب ، وهذه المشاعر لا تزال تملأ نفسى

وستبقى إلى الأبد تضطرم في قلبي ، وسأعز بها كأعظم تراث . على هذه المبادئ دخلت البرلمان وتوليت الوزارة ، وإني أشهد المجلس الآن على أننى لم أضطر يوماً إلى أن أخالف وعداً واحداً قطعت على نفسى للشعب

إننى أضع نفسى الآن تحت تصرف هذا المجلس الموقر ، وكيفما كان قراره فأنى أقبله باغتياب . إنكم تستطيعون أن تجردوني من مظاهر السلطة وامتيازاتها ولكم لا تستطيعون أن تحرموني من العواطف الحارة التى تجيش بها نفسى نحو مجد بريطانيا العظمى ، هذه العواطف الوطنية التى هى فخر حياتى ، والتى تكون شرفى ، وأستمد منها سعادتى ، والتى أعتقد أن الموت وحده يستطيع أن يطفئها وما دام هذا العزاء باقياً لى ، فأنى آمل أن أستطيع أن أنسى سريعاً ضياع النفوذ ، وضياع الثروة .

ومع ذلك فإن « بت » هزم مراراً فى التصويت ، وأزعج ذلك الملك الذى كان يؤيده فعاد إلى لندن وصرح له بحل مجلس العموم واستفتاء الشعب بأجراء انتخابات جديدة . ولكن « بت » رأى أن يترث حتى يضمن كسب رأى العام قبل الأقدام على هذه الخطوة ، ومضى يتحدى خصومه للمعارضين وفى مقدمتهم حزب الأحرار ، ويسلط عليهم نيران فصاحته ، ويقدم الدليل بعد الدليل على نزاهته وطهارته يده . ومن ذلك أنه خلت وظيفة شرفية أعتاد أن يتقلدها رؤساء الوزارات لىكى يستعينوا بمرتبها الكبير على النفير للخدمة العامة . ورغم أن « بت » لم يكن غنياً ، بل كان مثقلاً بالديون ، فإنه تعفف عن قبول الوظيفة التى كان يقبلها غيره من الرؤساء ، وزهد فى آلافيها الثلاثة وعين فيها سياسياً كان فى حاجة إلى مرتبها .

واستطاع وليم بت أن يمكن لنفسه فى قلوب الشعب ، وأن يقضى على الزوابع التى يثيرها خصومه ، فأصبح معبود الجماهير ، حتى أن مدينة لندن ،

معقل حزب الأحرار ، أهدت إليه مفتاحها في صندوق من الذهب . وذهب لاستلام الصندوق في موكب حافل ، وأضيئت المدينة تكريماً له ، وهتف الشعب له في كل مكان .

لقد وجد فيه الشعب نموذجاً جديداً لرجل السياسة والحكم لا يعتمد على المناورات الحزبية والألاعيب السياسية ، ولكنه يعضى إلى الخدمة العامة مسلحاً بنزاهة شهد بها الأعداء قبل الأصدقاء ، وصراحة لاتعرف الالتواء ، وشجاعة في الحق تترفع عن البفاق والرياء ، فتعلق بهذا الشاب النبيل ومنحه ثقته وحببه وتأييده .

وكان لهذا التحول في الرأي العام صدى في مجلس العموم ، ففسرت عوامل الضعف إلى صفوف المعارضة ، وانتقل بعض أعضائها إلى مقاعد مؤيدي الحكومة ، وأخذت الأحزاب الأخرى تفاوض في الاشتراك في الوزارة .

ورأى « بت » أن الفرصة قد حانت ليضرب ضربته القاضية ، وليواجه خصومه في معركة فاصلة ، فحل مجلس العموم ، ودعا الشعب إلى انتخابات جديدة ، أسفرت عن هزيمة خصومه ، فقد انتزع منهم مائة وستين مقعداً ، وضمن لنفسه الأغلبية في مجلس العموم .

وهكذا عقد له الشعب لواء النصر ، واستطاع « الولد » الذي ظن خصومه أنهم انتهوا منه ، أن يصبح رئيساً للوزارة نافذ الرأي والكلمة ، مؤيداً من الشعب والملك والبرلمان ، ولما يبلغ الخامسة والعشرين من عمره . وقدر لهذه الوزارة التي حسب خصومها أنها لن تعيش أياماً ، أن تمسك بأعنة الحكم في بريطانيا أكثر من سبعة عشر عاماً حافلة بأشد العواصف الخارجية والداخلية .

* * *

بعد قليل اندلع لهيب الثورة الفرنسية وزعمرت عواصفها على الجانب الآخر من القنال الإنجليزي ، وأطاحت برأس ملك وملسكة ، وخيف على

انجلترا من عدوى الجنون الذى يعربد فى باريس . ولكن بت وقف كالجدار الحائل بين بريطانيا والثورة الخفيفة الحمراء ، وأعلن عليها الحرب ، وظلت إنجلترا تقاتل ثمانى سنوات دون أن تظفر بنصر .

وتمخضت الثورة الفرنسية عن نابليون بونابرت الذى مضى يدفع جنود الثورة ليجوس بهم خلال أوروبا ينشر التيجان ويدك العروش ويضع الممالك تحت رحمته .

وأدرك « بت » الخطر الجديد فزاده ذلك إيماناً بضرورة الوقوف فى وجه المد الثورى الذى أخذ يزحف على خريطة أوروبا ، وقدر له أن يقف حياته كلها بعد ذلك على مقاومة هذا الخطر بعزم لا يلين وإيمان لا يتزعزع . كان يريد أن يؤمن الشعب البريطانى معه بفداحة هذا الخطر على مصالحه وعلى وجوده نفسه حتى يصمد فى وجهه ويكافح لتمحيصه .

وكانت عبقرية الخطابية أكبر سلاح له فى هذا المجال .

لقد أفرغت عليه الطبيعة كل مواهب الخطيب . صوت واضح مبين له رنين الفضة ، وقوام رشيق ؛ ووجه نبيل يوحى بالثقة ، وجبهة مرتفعة ، وحر كانه كلها توحى بالترفع والاعتزاز بالنفس .

وقد نمت مواهبه بالدراسة والمران والممارسة . هياؤه أبوه منذ صباه للبرلمان ، وشجذه للخطابة سيفاً قاطعاً . فلما أتت له الفرصة ظهر وبهر ، وجعل مقدرته الخطابية فى خدمة المنصب الرفيع الذى تولاه فى صدر شبابه .

دخل مجلس العموم فى عصر كان يفخر فيه بخطباء مشهورين من أمثال « فوكس » وشريدان ، وبيرك . وغيرهم ، ولكن الذين سمعهم جميعاً يخطبون أجمعوا على أن بت كان يفوقهم ويتفوق عليهم .

قال عنة فوكس نفسه:

— « كذبت وأنا أخطب أبحث عن السكامة حتى أجدها، أما بت فكان يجد السكامة المطلوبة دائماً في متناول يده ولسانه » .

شهد له الجميع بأنه كان الخطيب المرتجل الذى يدفع كالسيل فى عبارة مرصعة الحواشى من غير استعداد ، لا يتوقف باحثاً عن كلمة أو مفتشاً عن عبارة بل كانت المعانى فى خدمته والألفاظ طوع لسانه .

وكان الوزير الوحيد الذى يقدم للبرلمان الميزانية من غير مذكرات مكتوبة ، حتى قال عنه النقاد :

— إنه يستطيع أن يرتجل تلك القطعة السياسية الدقيقة المحرجة المعروفة فى النظام البرلمانى بخطاب العرش . . !

وكان إلى جانب قدرته الفائقة على الارتجال ، يعرف كيف يجعل نفسه مبهما غامضاً ، وكيف يكون واضحاً مفهوماً عندما يريد . فعندما كان يريد أن يفهمه الناس كانت أعقد الموضوعات وأدقها وأكثرها غموضاً ، تكتسب من ذهنه الصافى وبيانه الناصع الوضوح والسهولة . أما إذا دعت الظروف إلى تمعد الغموض ، فكان يستطيع أن يخطب ساعات ولا يقول شيئاً ، ثم يغادر المنبر وقد أوهم السامعين أنه قال الكثير . اتهمه خصومه بالكبرياء والغرور ، وقال عنه « لورد روزبرى » :

— لقد كان فى طبيعته جفاء وبرود وصلابة ، يميل إلى تجنب الناس والابتعاد عنهم . ومن اللحظة الأولى التى وضع فيها قدميه فى البرلمان إعتاد أن يصعد المنبر بخطوات واسعة سريعة ثابتة ، ورأس مرتفع ، لا يتلفت يميناً أو يساراً ، ولا يلقى نظرة أو إيماءة إلى أحد من الجالسين على جانبيه طريقه ، وفيهم زعماء إنجلترا وأعيانها ! » .

ولكن « بت » لم يكن مغروراً ولا متكبراً ، وإنما كان يغلب عليه

الكبرياء والترفع والاعتزاز بنفسه وبقدرته . كان يترفع عن المطامع والأهواء الشخصية في نزاهة نادرة المثال . حتى ألقاب الشرف كان يترفع عنها ، فرفض قبول وسام ربطة الساق الذي كان يتهافت عليه أ كبر العطاء ، وبينما كان يفتخر على غيره الأوسمة والألقاب ظل حتى مات يحمل لقب « مستر بت » .

هكذا كان « بت » السياسى والخطيب ، يقود سفينة الحكم في بحر عاصف متلاطم الأمواج . ولقد صادفته المتاعب والهزائم ، ولكنه ما يكاد يستوى على المنبر ويرفع رأسه بكبرياء وعظمة ثم يتدفق بالكلام حتى يتسلط على القلوب ، ويثبت في أنصاره وخصومه روح الأمل والثبات .

وبفضل فصاحة « بت » تضاءلت المعارضة في مجلس العموم حتى أصبحت في عام ١٧٩٩ لا تزيد على خمسة وعشرين من الأعضاء .

* * *

بينما كان « بت » يؤلب دول أوروبا على نابليون ، ويسعى إلى عقد المحادثات بينها لمواجهة ، ويمضى في الحصار البحرى الذى فرضه على فرنسا ، كان نابليون ينتقل بسرعة من نصر إلى نصر ، وكان نجمه يعلو في سماء فرنسا وأوروبا ، فأصبح القنصل الأول بعد « انقلاب برمير » الذى دبره ليكون الحاكم الحقيقى لفرنسا . وكان نابليون يعرض الصلح على انجلترا ، ولكن « بت » كان يعارضه ويصر على محاربته اعتقاداً منه بأن نابليون لن يتوقف حتى يخضع أوروبا كلها لسلطانه . وبدأ الخلاف يدب بين « بت » والملك ، وبينه وبين مجلس العموم ، فلما قدم إلى البرلمان في عام ١٨٠١ مشروعاً لحكم إيرلندا لم يظفر بقبول المجلس ، تخلى عن الحكم .

وكانت صحة « بت » قد ساءت ، إذ كان المرض يمد إلى صدره سهامه

القائلة منذ الصبا ، فاعتزل الحياة العامة ، وانصرف إلى علاج نفسه ، ولم يشهد جلسات المجلس عامي ١٨٠٢ و ١٨٠٣ .

وفي خلال هذه الفترة تحققت ظنون ولیم بت كلها ، فقد بدا واضحاً أن أطماع نابليون لن تقف عند حد ، وأخذت أحلامه تطوف بالجزر البريطانية نفسها ، فأعد العدة لغزوها ، وحشد على الساحل الشمالى لفرنسا ثمانين ألفاً من الجنود ، وأمر بإعداد أسطول هائل من الناقلات للغزو المنتظر .

ورأى الجميع أن « بت » هو وحده القادر على إنقاذ البلاد ، وكان رأى السائد أنه إذا استمرت وزارة « أدنجتون » في الحكم فإن البلاد سوف تتعرض للضياع .

وعرض عليه « أدنجتون » أن يشترك في الوزارة فرفض ، ثم عرض عليه أن يدخل الوزارة على أن يكون رئيساً لها فلم يقبل .

وفي مايو ١٨٠٣ كانت الحرب قد أعلنت رسمياً بين إنجلترا وفرنسا ، فذهب « بت » إلى مجلس العموم بعد غياب طويل ، وخطب خطبة دامت ثلاث ساعات وسط موجة عارمة من الحماس ، ورعد قاصف من الهتاف والتصفيق . وسقطت وزارة « أدنجتون » ليشكل « بت » وزارته الثانية في نفس اليوم الذي أعلن فيه نابليون نفسه امبراطوراً على فرنسا .

وبدأ بين الدولتين صراع هائل لم ينته إلا بعد اثني عشر عاماً في واترلوا . ولكن « بت » لم يشهد من هذا الصراع غير ثلاثة أعوام كانت كل ما بقي له من حياته القصيرة . ولقد كانت أعواماً سيئة له ولبلاده ، فقد كان نابليون يحقق خلالها انتصاراته الرائعة المذهلة ، غير أن بت لم يعرف اليأس ولم تنسرب إلى نفسه روح الهزيمة .

ولقد حاول عند تشكيل وزارته الثانية أن يضم إليها كل الرؤوس الكبيرة في إنجلترا ، ولكنه لم يوفق ، فاكتفى بتشكيل وزارة ضعيفة من أنقاض وزارة « أدنجتون » كان هو كل شيء فيها ، حتى قيل إنها مؤلفة من « وليم » و « بت » . وسرعان ما أصيبت هذه الوزارة بضربة في الصميم عندما اتهم « اللورد ملغيل » أقرب الوزراء إلى « بت » بتهمة خطيرة وحوكم أمام مجلس العموم . وانهزت المعارضة الفرصة فشدت جهودها وأصواتها ضد الوزير حتى انقسمت آراء الأعضاء وتساوت عند الاقتراع . وكان على رئيس المجلس أن يدلي بصوته للترجيح ، فأعلن رأيه بالإدانة ، وخرج « بت » من المجلس تحوطه شماتة المعارضين

ولكن المخاطر التي كانت تستهدف لها بلاده كانت تشعل في نفسه روح النضال ، فسمى حتى عقد التحالف الثالث ضد فرنسا كي يشغل نابليون عن غزو إنجلترا ، وجمع في هذا الحلف روسيا والنمسا والسويد . وأسرع نابليون ليضرب الحلف الجديد ضربة قاضية ، فقد هاجم النمسا بسرعة مذهلة قبل أن ينجدها حلفاؤها ، وحاصر جيشها واضطره إلى التسليم في ساحة « أولم » ثم دخل « فيينا » بينما هرب إمبراطور النمسا محاولا جمع فلول جيشه والاستعانة بحليفه قيصر روسيا لاسترداد عاصمة بلاده . وبدأت أخبار هذه الهزائم تخط سطور الموت على وجه « بت » الذي أنهكه المرض ، وحاول أن يتجالد ، ثم أسمعته القدر بنصر رائع أنسى الفاس مرارة الهزيمة في « أولم » . ذلك أنه في يوم ٢١ أكتوبر ١٨٠٥ كانت موقعة الطرف الأغر البحرية التي حطم فيها « نلسن » الأسطول الأسباني الذي كان يتجمع لمساعدة نابليون في مشروعه لغزو بريطانيا . وقد قضى هذا النصر البحري الحاسم على أحلام نابليون في الغزو ، وأكد سيادة بريطانيا على البحار ، وأقنعا من أعظم الأخطار التي تعرضت لها .

ووقف « بت » فى مجلس العموم عند منتصف الليل يتلو بلاغات المعركة البحرية التى حققت فيها بريطانيا أعظم نصر بحرى ، وفقدت فى نفس الوقت أعظم قائد بحرى فى تاريخها .

وأقام محافظ لندن مأدبة غداء فى اليوم التالى لتسكيريم « بت » فقابله الشعب بحماس جنونى ، وجر عربته إلى « الجيلا هول » فى مظاهرة حافلة وشرب المحافظ نخبه كمنقذ لأوروبا ، فرد عليه « بت » بكلمة موجزة قال فيها :

— أشكركم على ما أسبغتم على من شرف عظيم . إن أوروبا لا ينفذها رجل واحد ، فقد أنقذت إنجلترا نفسها بجهودها ، وسوف تفقد أوروبا بثمنها .

وكان المرض قد تمكن من جسم « بت » الضعيف ، الذى وهب حياته لبلاده ، فلم يتزوج لى يكرس كل وقته وجهده للقضية التى وقف عليها حياته ، وصمد فى الميدان كالطود الراسخ فى وجه العواصف الداخلية التى تثيرها المعارضة والسياسيون المحترفون من خصومه وحاسديه ، وفى وجه التحدى الكبير الذى كان يمثله نابليون ، وبعد شهر واحد من انتصار الطرف الأغر ، كانت موقعة « أوستراتز » التى انتصر فيها نابليون على الجيشين الروسى والنمساوى ، إنتصاراً خالداً جعل قيصر روسيا يتقهقر هارباً إلى بلاده ، بينما وقع إمبراطور النمسا فى الأسر ووقع معاهدة الصالح التى فرضها عليه نابليون . وتلقى « بت » أنباء « أوستراتز » وهو يستجم فى قريته ، وكان يتأمل خريطة أوروبا المعلقة فى حجرتة ، فقال لمن حوله :

— أطووا هذه الخريطة ، فلن يحتاج إليها أحد فى هذه السنوات . . . واشتد عليه المرض ، وزاره فى القرية « ولسلى » فأدرك أنه يقترب من نهايته ، (م ٩ — خطاب)

— ١٣٠ —

وأبلغ الأمر إلى زعيم المعارضة ، فأجـلـ مجلس العموم جلساته ، وأوقفت
المنازعات الحزبية .

وفي صباح يوم ٢٢ يناير ١٨٠٧ دخل « بت » مرحلة الاحتضار ،
ويروى أنه قال وهو يعاني سكرات الموت :

— بلادی . . بلادی . . ما أصعب فراقك ا .

ثم أسلم الروح .

عبد الله نديجي

« رأيت رجلا في ذكاء إياس ، وفصاحة سحبان ، »

« وقبح الجاحظ ، أما شعره فأقل من نثره ، ونثره »

« أقل من لسانه ، ولسانه الغاية القصوى في عصرنا هذا »

أحمد تيمور

عبد الله نديم

من حق عبد الله نديم أن يُعرف له مكانه من تاريخ الخطابة في مصر .
فقد كان فيها رائداً عرف فضلها ، والتفت إلى قيمتها في الحياة العامة ، فدعا
إلى الاهتمام بها ، وكان هو من فرسان حليتها ، بل كان سيد المقابر في عصره .
عرف له رجال الثورة العربية خطرهم فحشروه في زمريهم ، ووجد هو فيها
مجالاً يوافق طبيعته نفسه فأصبح خطيب الثورة ولسانها الناطق ، حتى اقترن
بها اسمه ، واكتوى بنارها ، وقضى حياته مغامراً ، فكانت أيامه سلسلة من
السكفاح الذي لا يعرف الهدوء ، والجهاد الذي لا يعرف الاستسلام ، وكأنا
كانت نفسه تتراح لمقارعة الخطوب ومصارعة الأحداث .

قال في قصيدة له يتحدث عن نفسه :

إذا ما الدهر صافانا مرضنا فإن عدنا إلى خطب شفيينا
إذا طاش الزمان بنا جلمنا ولكن نهينا أن نهينا
وإنا والورى قسما لسن إذا ماتوا يفازلة حيننا

وهكذا كان عبد الله نديم ، ثورة مضطربة دائمة ، حتى بعد أن
سكن الثوار واستسلموا للأمر الواقع ، رفض أن يستسلم أو يهدأ ، لأن
الثورة كانت طبعاً أصيلاً فيه . ولم يكن عبد الله نديم غنياً ولا كان من بيت
كبير . نزح أبوه من الشرقية إلى الاسكندرية واشتغل فترة من الزمن نجاراً
بدار صناعة السفن ، ثم افتتح مخبزاً صغيراً كفل له الكفاف من العيش .
وفي عام ١٨٤٥ رزق « مصباح إبراهيم الأدرسي » بولده « عبد الله »
فأدخله « كتاب » الحى ، حيث حفظ القرآن الكريم وأتمه وهو في
التاسعة من عمره .

وكانت للصبي ذاكرة عجيبة ، وقدرة نادرة على الحفظ ، فأدخله أبوه
معهد « الجامع الأنور » الذى أنشأه الشيخ إبراهيم باشا بالاسكندرية لدراسة
علوم الدين واللغة على نمط الدراسة بالأزهر . وظل « عبد الله » بضع سنوات
يدرس على بعض أكابر الأشياخ ، ولم يكن لم يلبث أن ضاق بهذا اللون من
الدراسة الجافة ، فهرب منها ، واتجه اتجاهاً يوافق طبيعته ومزاجه ، وأخذ يغشى
مجالس الأدباء ، ويستمع إلى ما يروى من الشعر ويلقى من الأزجال والنوادر ،
فهامت نفسه بهذا اللون من المعرفة ، وأحس إحساساً عميقاً بأن هذا طريقه .

ولم يكن للأدب فى ذلك الزمان دراسة منظمة ، فأنصرف « عبد الله »
من حلقات العلم بالجامع الأنور إلى دكاكين التجار المحبين للأدب ، يتطارح
معهم الشعر ، ويستمع إلى شاعر الرابة يروى القصص والأساطير الشعرية ،
ويشبع نهمه إلى فنون الأدب وكان بين أساتذته فى الجامع الأنور شيخ يدعى
الشيخ محمد العشرى ، وكان يتعشق الأدب ، فاكشف موهبة تلميذه
« عبد الله » وقدرته على النظام ، فأخذ يشجعه ويصعبه إلى ندوات الأدباء ،
وبيوت الأثرياء حيث يستمع إلى المباريات الأدبية والشعر وفنون الزجل^(١) .

وتفتحت مواهب الأديب الناشئ عندما وجدت المناخ الملائم ، وعاونته
حافظته العجيبة التى اختزنّت كثيراً مما سمعت ، وساعده حسه المرفه ، فأخذ
يقول الشعر والزجل ويعالج الكتابة ، ويطارح غيره فى المجالس ، حتى ذاع
أمره ، وأخذ يدعى ليجالس الخاصة من هواة الأدب ، ويفادى الكبراء ،
فينطلق لسانه بالشعر والزجل والنوادر والفكاهات .

وعلم أبوه بأمره ، فخيره بين العودة إلى دروس الجامع والانتظام فى طلب
العلم ، أو الذهاب عنه إلى حيث يكسب رزقه بنفسه .

(١) عبدالله النديم للدكتور على الحديدي

واختار « عبد الله » الطريق الثانى ، وخرج من الاسكندرية مطوفاً في البلاد ، وقضى ستة أشهر ينزل ضيفاً على العمدة والأعيان ، يستمتع بسكرتهم ، ويمتعهم بأدبه وإنشاده ، ثم عاد إلى الإسكندرية يحمل لقب « النديم » الذى عرف به طول حياته .

وضاق النديم بالاسكندرية وضائق به ، فهاجر إلى القاهرة .

كان ذلك فى عام ١٨٦١ ، وكان فى السابعة عشرة من عمره ، فبحث عن سبيل للسكسب ، وإذا به يتجه إتجاهاً غريباً ، إذ تعلم فن الإشارات التلغرافية ثم التحق بمكتب التلغراف بينها ، ثم نقل إلى مكتب تلغراف القصر العالى حيث كانت تقيم والده الخديوى إسماعيل .

وعندما استقر عبدالله نديم بالقاهرة ، وأطمأن إلى رزقه المكفول بوظيفته فى القصر العالى ، عاوده الحنين إلى الأدب ومجالسه ، فكان يضى أوقات فراغه فى الأزهر لحضور الدروس التى يلقيها بعض كبار العلماء ، ثم اتصل بكثير من الأدباء والشعراء مثل محمود ساعى البارودى وعبد الله فسكرى والساعاتى وغيرهم ، فكان يحضر مجالسهم ويرتوى من مناهلهم .

وجاء جمال الدين الأفغانى إلى مصر ، وأخذ ينشر آراءه الثورية ساعياً إلى تنبيه العقول لتتبع ما ترسف فيه البلاد الاسلامية من بؤس العبودية ، داعياً إلى التحرر ومقاومة الاستعمار فى شتى صورته . واتصل به النديم ، فاستهوته آراؤه الجريئة ، وأصبح من تلاميذه المقربين ، يحرص على لقائه وحضور مجلسه وأعجب به الأفغانى فاهتم بتوجيهه وقد توسم فيه الخير ، واكتشف مواهبه الخطابية ، فدعاه إلى تنميتها ، وأخذ يلقنه الآراء والمبادئ التى يؤمن بها ويدعو إليها .

وكان الاتصال النديم بالأفغانى أكبر الأثر فى حياته بعد ذلك ، فكما وجهه من

قبل أستاذه الشيخ محمد العشري إلى الأدب ، وجهه الأفغانى إلى الثورة وغرس بذرتها في نفسه .

ولسكن حادثاً وقع للنديم أخرجه من وظيفته ، ومن القاهرة كلها .
لقد غضب عليه « خليل أغا » كبير أغوات القصر العالى ، وكان صاحب نفوذ كبير ، فأمر بحمله بالسياط وطرده من عمله بالقصر .
وترك عبد الله نديم القاهرة كلها ومضى إلى الدقهلية ، وفي المنصورة اتخذ دكاناً لبيع الخردوات جعله ندوة للادباء والشعراء فانهى أمره إلى الأفلاس .
وأغلق النديم دكانه ومضى يطوف بالبلاد ، ينزل ضيفاً على هواة الأدب من الكبراء والأغنياء حتى سمع بأمره شاهين كنجج باشا مفتش الوجه البحرى ، فاستدعاه وأعجب به وأكرمه واتخذ نديماً .

وفي طنطا برزت مواهبه ، ففى مجالس شاهين باشا ظهر تفوقه على من كان يحضرها من الأدباء والشعراء ، فقد رأوا بديهية حاضرة ، وخاطراً يومض فى سرعة البرق ، ومقدرة فائقة على إرسال الشعر والزجل ارتجالاً ، فاعترفوا له بالسبق طائعين أو كارهين .

فى أحد هذه الاجتماعات لدى شاهين باشا دفعت الفيرة الحاضرين من الشعراء والأدباء فتحاملوا عليه ، وتحداه بعضهم أن يقول شعراً يعارض به دالية المتنبي مطلعها :

أقل فعلى - بله أكثره - مجذ - وإذا الجذ فيه ، نلت أو لم أنل ، جد
فغضب النديم وأمسك بالقلم وأنشأ قصيدة طويلة يقول فى مطلعها .

سيوف الثنا تصدا ومقولى الغمد ومن سار فى نصرى تكفله الحمد
ومن عجب الإيام شههم أخوحجا يعارضه غر ويفجحه وغمد
ومن غرر الأخلاق أن تهدر الدما لتحفظ أعراض تكفلها المجد

فأفحهم الحاسدين وأسكت المعارضين .

وجرت له في طنطا حادثة أخرى أطارت ذكره بين الناس . كان يجلس مع بعض أصحابه في أحد المقاهى أيام المولد الأحمدي ، فأقبل اثنان من « الأدباتية » ومرا على الحاضرين حتى وصلا إلى عبدالله النديم ، فقال أحدهما

لإنعم بقرشك يا جدي والا اكسنا أمال يا أفندي
أحسن أنا وحياتك عندي بقى لي شهرين طول جعان
فأجابه النديم على البديهة .

أما الفلوس أنا مديشى وانت تقول لي ما أمشيشى
يطلع على حشيشى أقوم أملص لك لودان

فرد الأدباتى وأجابه النديم ، وظلا كذلك ساعة حتى سكنت الأدباتى واعترف بالهزيمة . ونقلت القصة إلى شاهين باشا فأحضر الأدباتية والزجالين من أقطاب هذا الفن ، وعرض عليهم أن يقيم حفلا عاما يساجلون فيه النديم فإن غلبوا أكافئهم ، وإن غلبهم النديم ضرب كلا منهم عشرين كرابجا . . ! وقبلوا العرض ، وأقام شاهين باشا سرادقا أمام بيته ازدحم بالناس ، واستمرت المساجلة ثلاث ساعات ، يقولون ويرد عليهم النديم حتى غلبهم وأسكتهم .

وتفصيل هذا الحادث أو المهرجان منشور بمجلة « الأستاذ » ، ويقول النديم إن شاهين باشا عدل عن ضربهم ومنحهم خمسة جنيهات .

وفي مجلس شاهين باشا تعرف النديم على تتونجى بك وكان من الحاشية الخديوية ، فأعجب به وعينه وكيلا لدائرته ، فهيات له هذه الوظيفة التردد على القاهرة وهو آمن من أذى خليل أغا .

وفي القاهرة عاد إلى مجلس أستاذه جمال الدين الأفغانى فوجده أكثر ثورية في أحاديثه . كان يدعو إلى التحرر من الظلم الاجتماعى والاستبداد السياسى والتدخل الأجنبى ، ويرى أن السبيل إلى ذلك لا يكون إلا بتكوين رأى عام مسبقاً وتنظيم المقاومة الشعبية . ومست كلمات الناصر الكبير شغاف قلبه فلمزم مجلسه ، وانضم إلى الحفل الماسونى الذى أنشأه السيد جمال الدين . ووجه الأفغانى إلى الإسكندرية ليكون رسول دعوته بها ، وليساعد في تحرير الصحف التى يصدرها الحفل بالشر ، فسافر النديم إلى الإسكندرية في أوائل عام ١٨٧٩ ومنذ ذلك التاريخ بدأ السكفاح الحقيقى لعبدالله نديم ، وترك خلف ظهره حياته الماضية التى كان فيها مجرد نديم للسكراء يتمتعهم بأدبه ونوادره وحمل رسالة الدعوة الوطنية ورفع شعلتها عالية فلم تسقط من يده حتى انطفأت جذوة حياته .

واقد وجد النديم في الإسكندرية شعوراً قومياً في دور التكوين ، ووجد الناس قد أخذوا يعمون بالسياسة ويتجدثون في تصرفات الخديو إسماعيل وتدخل الدول الأجنبية ، فانضم إلى جمعية « مصر الفتاة » السرية ، التى كانت تهدف إلى القضاء على استبداد إسماعيل ، والعمل على خلعه أو قتله ، والمطالبة بحكم الشورى والدعوة إلى الإصلاح العام . واتصل بأديب اسحق محرر جريدة « التجارة » وأخذ ينشر المقالات فيها وفي جريدة « مصر » يعالج فيها الموضوعات التى تشغل الناس .

وأدرك عهد الله نديم أن الكتابة السياسية يناسبها الأسلوب السهل المتدفق ، فحرر كتابته من السجع والحسنات اللفظية التى كانت طابع كتابته قبل ذلك . وأعجب القراء بمقالات النديم ، التى كان يدعو فيها إلى الإصلاح الاجتماعى والسياسى ، وأخذ الكتاب يقلدون أسلوبه المرسل الجديد ، فذاع صيته بين الناس ، وراجت بقضله الجريدتان .

وحاول القديم إقناع أعضاء جمعية « مصر الفتاة » بتحويلها إلى جمعية علمية تعمل للإصلاح في وضع النهار ، وبذلك يكون لها أثر في تنبيه الرأي العام ، فلما فشل في محاولته انفصل عنها ، وكون أول جمعية مصرية في إبريل ١٨٧٩ وهي « الجمعية^(١) الخيرية الإسلامية » التي أنشأت مدرسة للتعليم على غير النمط الذي تسير عليه مدارس الحكومة ، وعين القديم مديراً لها ، فألقى في حفلة الافتتاح خطبة رائعة كان لها دوى كبير في الاسكندرية ، ونشرتها الصحف ، وقالت عن الخطيب إنه « أول خطيب مصرى وقف بين الحكام ، وفتح فاه بالسلام في مكان عام ، في وقت بلغ فيه الاستبداد أشده ، وجاوز الظلم حده » .

وفي هذه المدرسة ظهر حب عبد الله نديم للخطابة واهتمامه ، وإيمانه بفائدتها في تثقيف الشعب وإيقاظ الشعور القومي وقيادة الرأي العام . فأخذ يلقي أصول الخطابة للطلاب ، ويدربهم عليها ، ويقوم الحفلات يخطب فيها هو وتلاميذه ولم يكتف بذلك ، بل خرج بالمدرسة إلى الحياة العامة ، فكان من تلاميذها جمعيات للخطابة والآداب والغنون والتمثيل ، وألف بعض الروايات التمثيلية في نقد العيوب الاجتماعية ومثلها مع تلاميذه على المسارح العامة .

وبعد شهرين من إنشاء الجمعية الخيرية الإسلامية ، أجبر الخديو إسماعيل على التنازل لأبنه توفيق ، وظن القديم كما اعتقد الناس أن الخديو توفيق سوف يبنى بالوعود التي قطعها للشعب والحزب الإصلاح ويحاول أن يصح أخطاء إسماعيل ، ولكنه لم يلبث أن تنكرو لوعوده ، وأمر بنفى جمال الدين الأفغانى رئيس حزب الإصلاح ، وأسلم قياده لقناصل الدول الأجنبية . ولكن ذلك لم يفت في عضد القديم ، بل واصل السير قدماً نحو الأهداف التي أنشأ

(١) وهي غير « الجمعية الخيرية الإسلامية » التي أنشئت بعد ذلك في القاهرة

من أجلها الجمعية ، غير مبال بتحذير الفاس له وتخويفهم إياه ، فأعلن عن إقامة حفلة للخطابة في ساحة المدرسة ليلة الجمعة من كل أسبوع .

ويقول الدكتور على الحديدي في كتابه عن « عبدالله النديم » إن ساحة المدرسة كانت تغص بالوافدين عليها ، وكان عددهم يزيد على خمسمائة مستمع كل اجتماع . وأحدثت المحافل هزة فسكرية في الاسكندرية ، إذ هرع إليها الفاس يستمعون إليه بما لم يسمعه من خطيب مصرى قبله ، فكان يخطب في موضوعات ظاهرها الاصلاح الاجتماعى والتقافى ولكنها محشوة بما ينبه الألباب إلى ما وصلت إليه البلاد من سوء الحال .

وأخذت الصحف تنشر خطب النديم كاملة في صفحاتها الأولى ، وخلعت عليه كثيراً من الألقاب ، فسمته « خطيب الشرق » وأطلقت على محفله « سوق عكاظ » وتصف حفلاته وإقبال الجمهور عليها ، وكيف يسحر النديم مستمعيه يأخذ بقلوبهم ويمتلك عواطفهم « ويثبت في الأفئدة الضعيفة أنوار الحمية الوطنية ويضرم في النفوس الهامدة نيران الغيرة والحرية » . .

وأصبحت الاسكندرية ولا حديث لها إلا خطب النديم ، واجتذب محفله الخطابي كبار القوم وسراة الاسكندرية ، وانضم إلى الجمعية كثيرون من أصحاب النفوس المشتعلة بالوطنية^(١) . .

ويقول الدكتور الحديدي في كتابه إنه حين وقع النزاع بين الخديو توفيق ورئيس وزرائه رياض باشا على السلطة ، وتسابقا في التقرب إلى السلطة الأجنبية ، لم يجد الخديو لديها النصير ، فعاد يتقرب إلى الشعب مرة أخرى لعله

(١) عبدالله النديم بقلم الدكتور على الحديدي

يستعيد ثقته فينصره على رياض باشا . واستغل النديم الفرصة ليحتمى بالخديو من بطش رياض ، فدعاه لزيارة مدرسة الجمعية وجعلها تحت رعاية ولى العهد ليضمن بقاءها وانطلق النديم يدعو إلى إنشاء الجمعيات ، واتجه بدعوته إلى المدن والقرى يطوف بها ويخطب الناس في المساجد والجمعيات ، فتألفت على يديه جمعيات بدمنه وروميت غمر والمنصورة ودمياط وغيرها ، وكما يقول النديم « وقويت هذه العصاة ، وتعددت محافل الخطابة ، وانتشرت الدعوة في البقاع ، حتى مالت القلوب والاسماع ، وانفتح باب الجمعيات ، ودخلها الناس أفواجا وزرافات » .. وصارت جمعيات النديم مجالا للصراع بين الخديو ورياض باشا ، يحاول كل منهما أن يتخذها وسيلة من وسائل الدعاية له ، والنديم من جانبه يتخذ من تأييدها وسيلة لنشر دعوته ، فقد أصبحت المعاني السياسية التي تدل عليها خطب النديم غير خافية ، إذ فهمتها النفوس ، وأصبحت حديث الناس ^(٢) .

وقام النديم مع فريق التمثيل بالمدرسة بتمثيل روايته « الوطن وطالع التوفيق » على مسرح « زيزينيا » بحضور الخديو والوزراء ، وكانت الرواية حافلة بالأهداف السياسية . وشعر رياض باشا بخطر النديم عليه وعلى حكمه ، فتآمر مع المحافظ الذى كان رئيساً للجمعية على إخراج النديم منها وتلوث سمعته بنسبة أمور إليه تسمح بفصله ، ولكن النديم علم بالمؤامرة فأرسل إلى مجلس الإدارة استقالته من إدارة المدرسة ومن عضوية الجمعية .

واتجه النديم إلى الصحافة ، فأصدر صحيفة سماها « التفكيك والتبكيك » كانت لوناً جديداً من الصحافة لم يسبق إليه . وقد قال فى افتتاحية العدد الأول الذى صدر فى ٦ يونيه ١٨٨١ « إنه لا يريد منها أن تكون منمقة بمجازات واستعارات ، ولا مزخرفة بتورية واستخدام ، ولا مفتخرة بفخامة لفظ وبلاغة

(١) المصدر السابق

عبارة ، ولا معربة عن غزارة علم وتوقد ذكاء ، وليكن أحاديث تعودناها ،
ولغة ألفنا المسامرة بها . . » وفي هذه الصحيفة الرائدة عاد عبد الله نديم يدعو
إلى الاهتمام بالخطابة ، ويقول إن من أسباب غفلة الشرق ضعف الخطابة فيه
وإحصارها في خطب المساجد التي لا تمس الحياة الواقعة .

وكتب مقالا قويا بعنوان « ألسن الخطباء تحيي وتميت » طلب فيه أن
تكتب خطب المساجد بشكل جديد بحيث تعالج شؤون الحياة ، وتشرح
الموقف الحاضر ، وتبين الأخطار المحيطة بالأمة ، وقال في نهاية المقال :

« أود وجود نفر من أعيان بلادنا يتبرعون بمبلغ لنشر خطب أدبية
وسياسية . وأنا أتبرع بإنشاء خطبة في كل أسبوع تناسب أحوال الزمان ، ثم
تطبع هذه الخطبة وتنشر في سائر أنحاء القطر لتنبه الأفكار وتعرف الأمة قدرها
بين الأمم . . » .

ثم أردف المقال بخطبة نموذجية توضح غرضه ، وصاغها صياغة دينية تناسب
صلاة الجمعة . . ومما قاله فيها :

« إن لكل أمة كلمة تجمعها ، وسيرة تسميها ، وكلتنا الوحيدة حسن
الاعتقاد ، وسيرتنا حفظ الملة والبلاد . . وقد تأسست كلتنا بالاتحاد واللين ،
والقيام بما جاء به هذا الدين ، من ترك العمق ، وحفظ الحقوق ، والبعد عن
الظلم والبغى ، والتطهر من الرجز والغى ، والحث على الائتلاف ، والتحذير
من الاختلاف . وقد دخل معنا من أهل الذمة من تعلمون ، وصاروا أخواننا
في الوطنية ، وأنتم تعلمون ما نزل به الوحي من السماء ، وما أهرق في نشره
من الدماء ، حتى بلغنا السعود ، وصرنا أمة عظيمة في الوجود . ولولا تفرق
الكلمة ما انحل عقد اجتماعنا ، ولا خرج علينا أحد من أتباعنا ، ولا ضعفت
منا المهمم حتى تلاعبت بنا الأمم . . » .

ثم قال :

« أترون الدول ترحمكم إذا ملكتكم ، أو تبكي عليكم إذا أهلكتكم ، أو تعاملتكم بالرفق واللين ؟ كلا والله . . ما هي إلا أسود إن دُهمت احترست وإن تمسكنت افترست ، وإن ملكت أساءت السيرة ، وإن جاورت لم تحفظ الجيرة ، وإن تداخلت احتالت ، وإن رأت غرة اغتالت . . الخ » .

* * *

نبحث مجلة « التنكيت والتبكي » فكانت أعدادها تنفذ بمجرد صدورها ، ويتخطفها رجل الشارع الذي وجد لأول مرة جريدة تهتم به وبمشاكله ، وتعالجها في أسلوب سهل يجمع بين القصة والنكتة ، ويحدث العامة بلغتهم تارة وبألزج الرشيقي تارة أخرى . ثم أخذ النديم يتطرق في مقالاته إلى السياسة فيهاجم الظلم والاستبداد . ولم يكتف بالكتابة في مجلته ، بل أخذ يتنقل في البلاد ويخطب في المساجد ، ويخاطب الفلاحين محاولاً أن يبذر في نفوسهم بذور الثورة على الحكم الظالم وعلى الاقطاع والاستغلال .

وفي خلال ذلك كان « أحمد عرابي » يمهّد مع زملائه للثورة على الأوضاع القائمة وقد وجد العرابيون في عبد الله نديم خير داعية يستطيع أن ينشر دعوتهم بين صفوف الشعب ، فاتصلوا به ، وأطلعوه على خططهم ، وضموه سرّاً إليهم وكان النديم مهياً لهذا الدور الخطير .

كان قد بلغ الأربعين من عمره ، ولكن هذه الأعوام كانت قد حفلت بالتجارب ، ففضجت رجولته كما نهضج فنه ، حدث عن نفسه فقال :

« أخذت عن العلماء ، وجالست الأدباء ، وخالطت الأمراء ، وداخلت الحكام ، وعاشرت أعيان البلاد ، وامتزجت برجال الصناعة والفلاحة والمهن الصغيرة ، وأدركت ما هم فيه من جهالة ، ومم يتألمون ، وماذا يرجون . وخالطت

كثيراً من متفرنجة الشرقيين ، وألمت بما انطبع في صدورهم من أشعة الغربيين وصاحبت جما من أفاضل الشرقيين المتعلمين في الغرب ، وعرفت كثيراً من الغربيين ، ورأيت أفسكارهم عالية أوسافة فيما يختص بالشرقيين والغاية المقصودة لهم . واختلطت بأكابر التجار ، وسبرت ما هم عليه من السير في المعاملة أو السياسة وامتزجت بلفيف من الأجناس المتباينة جنساً ووطناً وديناً . واشتغلت بقراءة كتب الأديان على اختلافها ، والحكمة والتاريخ والأدب ، وتعلقت بمطالعة الجرائد مدة ، واستخدمت في الحكومة المصرية زمناً ، وأجرت برهة ، وفلحت حينها وخدمت الأفكار بالتدريس وقتاً ، وبالخطابة والجرائد آونة ، واتخذت هذه المتاعب وسائل لهذا المقصد الذي وصلت إليه بعناء كسأني نحول الشيخوخة في زمن بضاضة الصبا ، وتوجنى بتاج الهرم الأبيض بدل صبغة الشباب السوداء فصورتنى تريك هيئة أبناء السبعين ، وحقيقتي لم تشهد من الأعوام إلا تسعة وثلاثين هكذا كان عبد الله نديم في مطلع الثورة العربية .

كان كاتباً يدعو في مجلته إلى الإصلاح بأسلوب مبتكر ، وكان خطيباً وهيباً الله قدرة عجيبة على الارتجال ، لا يكاد يفتح فيه للقول حتى تنثال عليه وتنهل الألفاظ ، فيتدفق بالكلام البليغ تدفق السيل .

ونستطيع أن نتصور مقدرته كخطيب إذا ذكرنا كيف كان يرتجل الشعر والزجل بداهة ، وكيف كان يؤلف الروايات التمثيلية ثم يعتلى المسرح فيمثلها مع تلاميذه أمام الخديو ، وكيف التفت إلى أهمية الخطابة كأداة للإصلاح وتنبيه الشعور القومي ، فدرب عليها تلاميذه ، وعلم كثيراً من الشبان كيف يخطبون في المحافل .

والواقع أن المقدرة الخطابية كانت أبرز نواحيه وأظهر مافيه .

كتب صديقه « أحمد سمير » يقول عنه في ترجمة حياته :

« كان يخطب في كل ناد ومحتفل بصوت جهورى ، ولسان أمضى من الحسام ، وقلب أجراً من الأسد . ويعلم الله أنى ما رأيت عمرى أخطب منه على كثرة من سمعت فى الشرق والغرب من كبار الخطباء الذين تضرب ببلاغتهم وقوة براهينهم الأمثال » ثم قال أيضاً :

« وأما خطبه وتأثيرها السريع فى الأذهان فيكفينى مؤونة الكلام الطويل فيه إجماع كتاب الجرائد العربية والأجنبية على تلقيه بخطيب الشرق ، فهو أول شرق وقف للمواقف الهائلة وخصوصاً قبل الثورة العراقية ، إذ كان يستدعى بالتغراف إلى الاسكندرية وسواها فيرتجل من حر القول البليغ القوى القويم الحجة ما يترك الأبواب سكارى من غير مدام . . »

قدر رجال الثورة العربية للنديم هذه اللواهب فضموه إليهم ، ليصبح أول عضو مدنى ينضم إلى منظمة الجيش ، وليصبح بعد ذلك خطيبها الرسمى والمتحدث بلسانها . وانطلق عبد الله نديم ينقد فى صراحة وجرأة تصرفات حكومة رياض ، وتصرفات النخديو ، وأخذ يطوف فى كل حفل ومجتمع يلقي الخطب الرنانة يدوى صداها فى البلاد . كان يخطب فى كل مكان ، فى الأزهر وطلبته ، والجيش وجنوده ، وفى حفلات الزفاف والأفراح ، فما يكون مجتمع لغرض من الأغراض إلا ويطلع عندهم عبد الله نديم وجماعة من تلاميذه المدربين يعتلون المكان العالى ، ويخطبون فى موضوعات الساعة . وكان ينتقل فى الأقاليم والبلاد يخطب ويخطب ، لا يكل ولا يمل ، فساعد على تكوين رأى عام يؤمن بالحكم النيابى ويتطلع إلى الإصلاح .

وبتوجيه من عبد الله نديم كتب عربى منشوراً يعلن فيه أن رجال الجيش يطالبون بإسقاط وزارة رياض وتشكيل مجلس نواب ، ويطلب إلى (١٠م - خطباء)

الأهالى أن يوكّلوه ليسكون نائبا عنهم فى المطالبة بذلك وتحقيق ما فيه مصلحة البلاد .

وقد جاء فى كتاب « السكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث » أن عبد الله نديم « أخذ يحبب الأقاليم ويدعو الناس إلى نصرة زعماء العصاةة . وكان عبد الله هذا قوى الحجة ، فصيح اللسان قوالا ، سهل العبارات ، عذب المنطق ، مقلقا مهيجا بذلاقة لسانه وقوة حجته وبيانه . وقد عرف عادات البلاد وميول أهلها ، فطفق يحبب المدن والقرى يخطب فى الناس ويقص عليهم حديث أجدادهم وأخيارهم ، ويصعد على منابر الجوامع ويخطب جهارا وعيناه تذرفان الدمع ، فافتتن الناس ، ومال إليه خلق كثير من الأعيان والوجهاء من كل صوب وحذب . وعاد إلى القاهرة وهو يحمل فى حقيقته عرائض موقعا عليها من الأعيان والأهالى يؤيدون فيها عرابى ومطالبه ، فاتخذها عرابى دليلا على إنابة الأمة له . »

وجاءت إلى القاهرة فى إثر النديم وفود الأعيان والفلاحين لمبايعة عرابى ، فكان يستقبلهم فى منزله ، ويقف النديم فيلقى الخطب والقصائد الحماسية . ولا نستطيع مع الأسف أن نرجع إلى خطب النديم لنحكم على قيمتها الفنية لأنها لم تكن تدون ، وإنما كان يلقيها ارتجالا فتفعل فعلها ولا يعنى أحد بتدوينها ولم ينشر منها إلا الشيء القليل فى المجلة التى كان يصدرها .

ثم كانت مظاهرة عرابى العسكرية فى ميدان عابدين ، وكان عبد الله نديم هو المدنى الوحيد الذى اشترك فى الزحف مع الجيش إلى قصر عابدين لتقديم مطالب البلاد إلى الخديو باسم الشعب .

وأذن الخديو ، وقبل فى النهاية مطالب عرابى ، وسقطت وزارة رياض وأعلن عن قيام الحياة الدستورية وتميات البلاد لانتخاب مجلس النواب .

وبعد أن هدأت الخواطر واطمأن الناس وصدر المرسوم بإجراء الانتخابات عاد رجال الجيش الناثرون إلى معسكراتهم ، واستجاب زعمائهم للأوامر التي صدرت إليهم بالابتعاد عن القاهرة حتى لا يظن أنهم يتدخلون في السياسة فسافر « عبد العال حلمي » على رأس الآلاى السودانى ليعسكر في دمياط ، وتبعه « أحمد عرابى » على رأس فرقته ليعسكر في رأس الوادى . واحتشدت الجماهير الغفيرة في المحطة لتودع الناثرين ، ووقف خطيب الثورة عبد الله نديم يخطب مرتجلا موجه خطابه إلى الضباط والجنود يوم سفر عبد العال حلمي فيقول .

— حماة البلاد وفرسانها

إن من قرأ التاريخ وعلم ما توالى على مصر من الحوادث والكوارث أدرك مقدار ما وصلت إليه من الشرف ، وما كتب لكم في صفحات التاريخ من حسنات ، فقد ارتقيتم ذروة لم يسبقكم إليها سابق ، وإن ياحق بكم في إدراكها لاحق ، ألا وهى حماة البلاد ، وحفظ العباد والضرب على يد الاستبداد ، فلكم الذكر الجليل ، والمجد الخالد ، يباهى بكم الحاضرون من من أهلنا ، ويفاخر بأعمالكم الجليل الآتى من أبنائنا ، فقد أعدتم الروح إلى الوطن بعد أن بلغت الروح التراقى .

وفي يوم سفر « عرابى » طلبت الجماهير المحتشدة في ميدان المحطة أن تسمع كلمة من « خطيب الثورة » فوقف النديم على مرتفع وقال :

— سادتى وإخوانى :

أرونى أمة بلغت مناهى بغير العلم أو حد اليمانى
قضت علينا الشقوة بأن نعيش في زمن الخسف ، وعهد الاستعباد ،
فرأينا المشنوق من أهلنا ، وشاهدنا المذبوح والمحروق ، والموضوع على الخازوق

والمسجون والمنفي والمهوب ، والمشرود والمغلوب والمسلوب ، ولا ذنب لنا في هذا كله إلا أننا لم نحسن المحافظة على البلاد .

ثم رأينا تسليم أمور بلادنا إلى الأجنبي وإذلال الوطنى وضياع حقه وتركه في زوايا الإهمال ، فسمعنا إلى تحقيق الاتحاد وجمع القلوب ، حتى نهض الجيش فأعرب عما في ضمائرنا ، ونادى جهاراً بحقوق الأمة ، فنحن الآن ننادى بصوت يسمعه القاصى والدانى : يموت الاستبداد وتعيش الحرية ، ويعدم المستبد ويبقى جيش الحماية . . . » .

ثم مضى يحثهم على الاتحاد والتمسك بالنظام والحكمة ، ويقول عن سفر « عرابى » .

— هذا أخوكم الجليل ، السيف الجرد لحماية بلاده ، يودعكم ويسافر إلى رأس الوادى ، لا يكره ولا يرغام ، ولكنه يسافر ليقطع السن الأعداء ، ويقضى على الأراجيف ، ويعلم الصديق والمدون أن الوطن فى هدوء عظيم ، وأن أهله فى طاعة لا يشوبها عصيان فاسألوا الله له وإخوانه السلامة ، وكونوا مثلهم فى الاتحاد والوطنية ، فكلكم وطنى وإن اختلفت المقاصد وتباينت السبيل . . . » .

ورافق النديم عرابى فى سفره ، وكان يخطب الجماهير التى تجمعت فى كل محطة على طول الطريق لاستقبال بطل الثورة .

وعندما أخذت البلاد تستعد للانتخابات ، قام النديم بنشر التوعية بين الشعب ، ويحذر الناس من سوء الاختيار ، ويدعو إلى حكم الشعب بواسطة ممثليه الذين يحسون بألامه ، ويبشر بالديمقراطية الحقيقية .

وأصبح معروفاً أن عبد الله النديم هو المتحدث بلسان الثورة ، واتفق

معه عرابي على أن تصبح جريدته هي اللسان الرسمي للحركة الثورية الجديدة وهكذا تغير اسم « التنسكيت والتبكيت » ليصبح « الطائف » ، التي صدر عددها الأول في ٢٠ نوفمبر سنة ١٨٨١ .

* * *

لا يتسع هذا المجال لتفصيل أسباب فشل الثورة العرابية ، وحسبنا أن نذكر أن الثورة قد فشلت وانتهت بالهزيمة والاحتلال البريطاني في عام ١٨٨٢ .

وكان عبد الله النديم إلى جوار عرابي خلال الحرب التي خاضها في مواجهة القوات البريطانية الغازية ، ينظم الدعاية ، ويستنهض الهمم ، ويرسل الخطباء والعملاء إلى البلاد يحرضون الأهالي على الحرب وإمداد الجيش بالجنود والمؤن .

كان النديم خلال تلك الحرب حركة لا تهدأ ، وشعلة لا تخبأ ، يحوب البلاد فيذكي الحماسة في قلوب الشعب ، ويخطب في المساجد والطرقات ، وفي الحقول والمجتمعات ، محرضاً على القتال دفاعاً عن الأرض والشرف والكرامة والدين . ولنستمع إليه يقول في إحدى خطبه التي نشرها بعد ذلك في جريدة الطائف فهي نموذج لمئات الخطب التي كان يرتجلها في تلك الأيام :

— يا بني مصر

هذه أيام النزال . هذه أيام النضال . هذه أيام الذود عن الحياض ، والدفاع عن الأعراض . هذه أيام يمتطى فيها بنو مصر صهوات الحماسة وغوارب الشجاعة لمحاربة عدو مصر ، بل عدو العرب ، لابل عدو الاسلام ، الدولة الإنجليزية خذها الله ورد كيدها في نحرها .

يا أهل مصر . إنما آجال الناس محدودة ، فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ، فأخرجوا للحرب عدوكم ولا تخشوا الموت ، فلكل أجل كتاب .

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره تعددت الأسباب والموت واحد
يا أهل مصر . . إن الإنجليز يقولون إن مصر هي حصن البلاد العربية ، من فتحها فقد أخذ بلاد المسلمين ، فهبوا للدفاع عن وطنكم ، الذي هو حصن البلاد الإسلامية كلها ، وجاهدوا في الله حتى جهاده ، لتحفظوا هذا الدين العظيم ، وتدفعوا عدوكم يريد أن يدخل بخيله ورجله في بلاد الله ، يريد أن يدخل الكعبة المشرفة عن طريق بلادكم ، وقد استعان على أغراضه بالحديد الذي باع الأمة لإرضاء للإنجليز » . .

بهذا الأسلوب كان عبد الله نديم يستثير الأهالي ويستنفهم للحرب المقدسة، مستغلا الشعور الديني. ويقول الدكتور على الحديدي في كتابه إن النديم لم يدرس فن الأعلام أو الدعاية ولكنه كان موهوباً في هذا الاتجاه ، خبيراً بالشعور المصري وحساسيته للكرامة والشرف والعرض والدين ، وبأن هذه هي مفاتيح الثورة عنده وأوتار إثارة الحقد والكراهية فضرب عليها وغنى بها .

رهزمت جيوش « عرابي » في التل الكبير بتأثير الخيانة ، واستسلم قائد الثورة ورفاقه ، وطغت على البلاد موجة من الانحلال الخلقي ، فحاول كثيرون من زعماء الحركة الانفصال من تبعاتها ؛ وتحول كثيرون من دعاةها ، ولكن عبد الله نديم لم يستسلم ولم يتحول ، وآثر الاختفاء هرباً من الحاكمة والعقاب .

وطال اختفاؤه عشر سنوات ، أتعب فيها نفسه وأتعب السلطات التي أخفت جهودها في البحث عنه ، فوضعت مكافأة مالية كبيرة لمن يرشد عنه ،

وأصدرت عليه حكماً غيائياً بالنفى المؤبد من البلاد .

وتنقل النديم بين البلاد متنكراً في كل زى ؛ مصطنعاً كل لهجة : مفتحلاً
مختلف الشخصيات . وكانت له في هذا الاختفاء حوادث عجيبة ؛ ونراد
غريبة ، تدل على براعته ولبافته وذكاؤه ، وتجعل حياته في هذه الفترة أشبه
بالقصص البوليسية المثيرة .

قال عن نفسه يصف هذه الفترة من حياته :

« خرجت من مصر مخفياً فدرت في البلاد متنكراً ، أدخل كل بلد بلباس
مخصوص ، واتكلم في كل قرية بلسان يوافق دعواى التي أدعيها ، من قولى
إنى مغربى أو يمنى أو مدنى أو فيومى أو شرقاوى أو نجدى وأصلح لحيتى
إصلاحاً يوافق هذه الدعوى فأطيلها في مكان عند دعوى المشيخة ، وأقصرها
في آخر عند دعوى السياحة ، وأبيضها في بلد ، وأحمرها في قرية وأسودها في
في عزبة .. الخ » .

ولسكن هذا الاختفاء كان نعمة عليه من ناحية أخرى ، فقد أتيج له فراغ
كبير فشغل نفسه بالكتابة والتأليف . ولندع له الحديث عن نفسه . فقد كتب
لأحد أصدقائه أثناء اختفائه يصف حاله في كتاب طويل مسجوع جاء فيه :
« إن سألت عني فأنا بخير وعافية ، وحالة رائقة صافية ؛ لا أشغل فيكبرى
بما يأتى به الليل إذا كنت بالنهار ، ولا أتعب ذهني بتوالى الخطوب والأكدار
ولا أتألم من طول المدة ، ووقع الشدة ، لإعتقادي أن لكل شدة مدة ، متى
أنتهت جفت الأحوال ، وحسنت الحال ، فتراني فكبرى كليى ، وقلمى نديى
تارة أشتغل بكتابة فصول ، في علم الأصول ، وحيناً أشتغل بنظم فرائد في صورة
قصائد ، ووقتاً أكتب رسائل مؤلفة ، في فنون مختلفة ، وآونة أكتب
في التصرف والسلوك وسير الأخبار والملوك ، وزمناً أكتب في العادات والأخلاق

وجغرافية الآفاق ، ومرة أطوف الأكوان ، على سفينة تاريخ الزمان . وقد تم
لى الآن عشرون مؤلفاً بين صغير وكبير . . . »

وظل هذا الخطيب النائر على إيمانه الوثيق بقضية بلاده ، وبالرسالة الثورية
التي نذر لها نفسه ، ووقف عليها جهوده وحياته . ورغم ما كان يقاسيه من
متاعب وعذاب في وحدته وإخفافه الذي طال ، فقد ظل فؤاده يهفو نحو
« سيلان » الجزيرة النائية التي نفى إليها « عرابي » وزملاؤه ، وأستمر يمارس
مهمته كداعية لعرابي ومستشار له يكتب إليه الرسائل بامضاء مستعار يحاول
بها رفع روحه المعنوي ، ناقلاً إليه الأمل في أن تشور الأمة على الإحتلال
وتدعوه لقيادتها من جديد .

قال له النديم في رسالة طويلة يلتبس له العذر في الهزيمة :
« قد تكون الهزيمة لتقوية العزيمة ، وزيادة الإستبصار في الأحزاب
والأنصار ، وما علينا في هزيمتنا بفعل الخائنين عار » .

ويقول له :

« لقد بعث نفسك لله ، لا المظهر والجاه ، وقام معك الأمراء والقادة ،
والعلماء والسادة ، وقام أخوك النديم ينادى بلسانك ، ويترجم عن جنانك
فسرى صوتنا في البلاد ، وتلبه الناس من الرقاد ، وتبعنا من الوطن أمشاج ،
وتواردت علينا زمر وأفواج ، فكان لقيفنا العجيب ، على هذا الترتيب :

مخلص أدرك ما قصدنا ، فقام يرصد ما رصدنا .

ومتردد حائر ، مع النوازل دائر .

ومذبذب إن عظمت اللاأواء ، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء .

ومنافق ينقل عنا وإلينا ، ويحمل معنا وعلينا ، وعدو ينسب إلينا البدعة
وينصب لنا شرك الخدعة .. إلخ »

ويشرح له في رسالة أخرى حب الشعب له فيقول :

« وقد زاد محبوبك ، ممن كانوا أبغضوك عندما رأوا فساد أحوالهم ، وانعكاس
آمالهم ، فهم أشد شوقاً إليك ممن كانوا يجتمعون إليك . وإذا آتى منك كتاب
إلى بعض الأحباب ، دار به على الأخوان ، وهو فرحان ، فأنت في مصر وإن
كان جسمك في سيلان ، فذكرك في الألسن ورسمك في الأعيان .. »

وعندما دب الخلاف بين زعماء الثورة في المنفى ، واستفحل هذا الخلاف
حتى قاطع بعضهم بعضاً وتراشقوا بالتهم ، وعلمت بأمره صحف الإستعمار
فأخذت تهاجمهم وتتهمهم بأنهم لم يستهدفوا بثورتهم مصلحة الوطن وإنما
أرادوا تحقيق أطاعتهم الشخصية ، أنزعج النديم وأستولى عليه الحزن ، وكتب
إليهم من مخبئه رسالة شهيرة جاء فيها :

« إذا لم تكن عهودكم وثيقة ، ورابطة جمعكم أنيقة ، وعدتم إلى الديار ،
على التباعد والنفار ، ساءت بكم الظنون ، ومالت عنكم القلوب والعيون ،
وصرتم عرضة للدسائس ، ومرجعاً لأهل الخسائس ، وذكركم المؤرخون بالنقائص
وجردوكم من الفضل والخصائص ، وأنكرت أوروبادعوتكم الوطنية ، وربما كم
عدوكم متبجحاً بتهمة الهمجية . فأرجعوا إلى الأخاء والحق ، وألتزموا في المودة
والصدق ، ولا تسودوا وجوهنا بين أهل مصر ، ولا تنجلونا أمام نبهاء العصر .
إلخ » .

وبينما كان عبد الله نديم في قرية « الجيزة » مركز السنطة ، تعرف عليه
شرطى سابق فوشى به طمعاً في المكافأة ، فقبض على النديم في ٢ أكتوبر

١٨٩١ ونقل إلى السنطة ومنها إلى طنطا حيث حقق معه رئيس نياتها « قاسم أمين » الذى أحسن معاملته وعرف له قدره .

وكان للقبض على النديم دوى أعاد إلى الأذهان ذكرى الثورة وأحداثها وأثار الجدل فى الصحف ودوائر الحكومة ، وأنتهى الأمر بالعفو عنه مع نفيه من مصر إلى الجهة التى يريد ، فأختار « يافا » لأقامته .

* * *

ولم يطل بقاء النديم بالمنفى ، فقد توفى الخديو توفيق ليخلفه أبوه « عباس » ، فعفا عنه وسمح له بالعودة إلى مصر عام ١٨٩٢ .

وعاد النديم ليرى كل شئ فى وطنه وقد تغير بفعل الاحتلال الذى كان قد مضى عليه عشر سنوات . لقد استسلم الجميع ، وران اليأس على القلوب ، ولكن الثائر العظيم لم يستسلم ولم ييأس . وكانت عودته بمشروطة بعدم اشتغاله بالسياسة ، فأنجبه إلى الشباب من الجيل الجديد ، يبت فىهم دعوته كلما لقيهم ، ويزودهم بنصائح . وفى منزل لطيف سليم باشا قابل « مصطفى كامل » الطالب الشاب المتحمس ، فتوسم فيه الخير ، وخصه بالعناية والتوجيه .

ثم أصدر النديم مجلة « الأستاذ » وحصل على الترخيص باسم أخيه عبدالفتاح وأعلن أنها جريدة علمية فكاهية تهذيبية لا تتعرض للسياسة .

وبدأ النديم ينقد العيوب الاجتماعية فى مجلته الجديدة ، ثم تدرج فأتهم الأوربيين بتشجيع هذه العيوب حتى تنحل أخلاق الشرق . وانتشرت « الأستاذ » حتى أصبحت منافساً خطراً لجريدة « المقطم » التى كانت تحظى برعاية السلطات الإنجليزية والمصرية ، فأخذت « المقطم » تهجم النديم وتتهمه بأنه يهدف بمقالاته الاجتماعية إلى غرض سياسى .

وبدأ صوت النديم يعلو شيئاً فشيئاً ، ويخوض في أحاديث السياسة صراحة مفاصراً للخديو عباس ، مناهضاً للاحتلال . ثم أخذ ينقد السياسة البريطانية في مصر والهند بصراحة وجرأة ، فطلب اللورد « كرومر » نفيه من البلاد ، فأجيب إلى طلبه .

وودع عبد الله نديم قراءه في آخر عدد من « الأستاذ » دون أن يذكر السبب الحقيقي ، وختم وداعه قائلاً :

أودعكم والله يعلم أننى % أحب لقاكم والخلود إليكم
وما عن قلى كان الرحيل وإنما % دواع تعدت فالسلام عليكم
وخرج النديم إلى « يافا » في منتصف يونية ١٨٩٣ ، ثم أنهى به الأمر إلى الأستاذة حيث أمر السلطان عبد الحميد بتعيينه مفتشاً للمطبوعات بالباب العالي جرياً على سياسته في إرضاء أمثال جمال الدين الأفغانى والنديم من الناقمين الأحرار .
ودخل التأثير العظيم القفص الذهبي مع أستاذه القديم ، ليكون تحت أعين جواسيس السلطان ، وليعيش حياة هادئة ، لا عزاء له فيها إلا صحبته الدائمة للأفغانى .

ولسكن هذه الحياة لم تطل ، فقد أصيب بالسل ، ومات في العاشر من أكتوبر ١٨٩٦ وكان قد بلغ الرابعة والخمسين من عمره .

* * *

كان عبد الله نديم كاتباً اتجه إلى بساطة الأسلوب وسهولة التعبير في مقالاته السياسية والاجتماعية ، وكانت له مؤلفات كثيرة ، فقد ذكر « أحمد سمير » في ترجمته أن له من المؤلفات ما يعد بالآلاف ، ولسكن معظمها ضاع أثناء إختفائه أو حجز بالأستانة . وكان شاعرأ له ديوانا شعر يشتملان على أكثر من سبعة آلاف بيت . وكانت له آراء قيمة في السياسة والاجتماع . وكانت له كلمات

— ١٥٦ —

يرسلها فتجري أمثالا . ومن كلماته قوله :

« دولة بلا قانون فوضى وإن كثرت الرعاة » .

وقوله :

« مملكة يسوسها غارق وفي الشهوات مقبرة تزار ولا تسكن » .

وقوله :

« إذا ساعدت الأجنبي على أخذ بلادك فلا تفضب إذا نام في فراشك . »

وقوله :

« إذا اختلفت الأحزاب فكن مع أحفظها لوطنك » .

ولكن عبد الله نديم كان قبل كل شيء ، وبعد كل شيء ، خطيباً عظيماً .

قال عنه أحمد تيمور باشا :

« كان شهى الحديث ، حلو الفكاهة ، إذا أوجز ود المحدث أنه لم يوجز

لقيمته مرة في آخر إقاماته بمصر ، فرأيت رجلاً في ذكاء لإياس ، وفصاحة سحبان

وقبح الجاحظ ، أما شعره فأقل من نثره ، ونثره أقل من لسانه ، ولسانه الغاية

القصوى في عصرنا هذا .

مصطفى كامل

« أريد أن أوقف في مصر الهرمة مصر الفتاة »

مصطفى كامل

مصطفى كامل

شاب نحيل الجسم ، مشبوب العاطفة ، مضطرب الخيال ، يحلم بتحرير بلاده من الاحتلال الأجنبي ، فيهب وحده بغير حزب يؤيده ، أو جاه يسنده ، أو مال يعتمد عليه ، يصرخ في وجه أعظم امبراطورية لانقيب الشمس عن أملاكها مطالباً بحقوق بلاده ، فيفريق مواطنوه في دهشة على هذا الصوت الذي ارتفع بينهم وكأنما هو صوت المؤذن يسرى في هدأة الفجر يوقظ النيام ، ويبعث في النفوس الأمل ، فتشتعل من جديد جذوة الوطنية في القلوب الهامدة ، ثم يقضى في عمر الزهور وقد بعث في قومه نهضة جديدة ، وترك وراءه حزبا فتيا يحمل رسالته ، وشعباً قوياً يطالب بحقه في الحرية والاستقلال .

ذلك هو الزعيم الشاب مصطفى كامل الذي ظهر في فترة مظلمة من أتعس فترات التاريخ المصري الحديث ، بعد فشل الثورة العربية واحتلال بريطانيا لمصر ، فكانت حياته القصيرة إرهاباً بهذا البعث الجديد لشعب كاد يدركه اليأس . وعندما مات مصطفى كامل في الرابعة والثلاثين من عمره ، كانت تربة مصر تحتضن البذور التي ألقاها وتمهدها بكفاحه الرائع ، لتنمو بعد ذلك وتمنح عن ثورة الشعب الكبرى بعد أحد عشر عاماً من وفاته .

وإذا كنا نتحدث هنا عند مصطفى كامل الخطيب ، فذلك لأن الخطابة كانت وسيلته الكبرى لتحقيق رسالته الوطنية ، فقضى حياته يكتب ويخطب في مصر وأوروبا ، فهو بحق خطيب البعث الوطني الجديد الذي صنع الفجر الأول لتاريخ حركتنا الوطنية الحديثة .

ولد مصطفى كامل عام ١٨٧٤ ، وكان أبوه « على أفندي محمد » مهندسا

حربياً أحيل إلى المعاش ومصطفى في الثالثة من عمره . ويروى « على فهمى كامل » شقيق مصطفى كامل أن أباه كان يجمعهم مساء كل يوم ليسمر معهم فيروى لهم قصص التاريخ وسير الأبطال الفاتحين ، وكان أخوه الطفل « مصطفى » أكثرهم شغفا بساع هذه السير .

وعندما بلغ « مصطفى » الثانية عشرة من عمره توفي أبوه ، فكفله أخوه الأكبر « حسين واصف » الذى أصبح بعد ذلك وزيراً للأشغال ، وأقام « مصطفى » في منزل جده لأمه ، وأكمل دراسته الابتدائية في مدرسة القرية ، ثم التحق بمدرسة « الخديوية » ليتلقى دراسته الثانوية .

وفي خلال دراسته الثانوية بدأت تظهر مواهبه الخطابية وميوله الوطنية ، فأنشأ « جمعية الصليبية الأدبية » نسبة إلى الحى الذى يسكنه ، وكانت تعقد اجتماعات أسبوعية يخطب فيها مصطفى كامل . ويقول على فهمى كامل : « كان يقف خطيباً في الجمعية في مساء كل جمعة مرتجلاً ما تملى عليه البديهة الحاضرة فيملك الأساع والقلوب . . »

وذهب على مبارك باشا ناظر المعارف لزيارة المدرسة الخديوية ، وسمع مصطفى كامل يتحدث ويخطب فأعجب به وقال له « إنك أمرؤ القيس »

وكان « مصطفى » شجاعاً شديد الاعتزاز بكرامته ، يتصرف في هذه السن المبكرة كرجل ناضج ، ويبتعد عن العبث المألوف ممن كان في مثل سنه ، ويشغل نفسه بالمسائل العامة ، ويتعمق دراسة تاريخ بلاده .

وعندما أتم « مصطفى » دراسته الثانوية وحصل على شهادة « البكالوريا » ، كتب إلى أخيه على فهمى الذى كان ضابطاً بالسودان يقول انه قرر أن

يدخل مدرسة الحقوق « لأنها مدرسة الكتابة والخطابة ومعرفة حقوق الأفراد والأمم ، وأنت تعلم أنني أميل إليها كثيرا ، وعزمت كذلك على تأسيس جمعية أسميها « جمعية إحياء الوطن » . . .

وفي أكتوبر عام ١٨٩١ دخل مصطفى كامل مدرسة الحقوق وهو في السابعة عشرة من عمره ، وهناك التقى بزميله فؤاد سليم وأصبحا صديقين . وصحبه فؤاد إلى منزل أبيه لطيف سليم باشا بسوق السلاح حيث كان يجتمع طائفة من أهل الرأي والفكر والأدب ، فكان يستمع إليهم « مصطفى » وهم يتدارسون أحوال البلاد ، ريفكر فيما يسمع ، ويشارك في الحديث .

وفي العام الثاني من دراسته بالحقوق ، التحق بالدراسة المسائية في مدرسة الحقوق الفرنسية ، فكان يجمع بين الدراستين ، وأصدر مجلة سماها « المدرسة » جعل شعارها عبارة « حبك مدرستك . . حبك أهلك ووطنك » ومضى ينشر في جريدتي الأهرام والمؤيد مقالات وطنية ، ويحضر الاجتماعات في ندوة لطيف باشا سليم . وفي خلال ذلك عاد عبد الله نديم خطيب الثورة العربية من منفاه عام ١٨٩٢ فانصل به مصطفى كامل ، وسمع منه أسرار الثورة العربية وأسباب فشلها ، وكان لهذه الأحاديث والتوجيهات أثرها في أسلوب كفاح مصطفى كامل بعد ذلك .

وإن الإنسان ليعجب وهو يطالع ما كتب عن سيرة مصطفى كامل وأحواله خلال سنوات الدراسة . ذلك أنه يلمح كيف كان هذا الطالب يعد نفسه لدوره المقبل ، ويتهيأ لحل رسالته الوطنية ، وكأنما يحركه وحى خفي يناديه ويهتف به أن قم . . فإليك أنت الزعيم المنتظر . . !

وعندما أخفق « مصطفى » في امتحان النقل إلى السنة الثالثة ، سافر إلى باريس ليكمل هناك دراسة الحقوق ، ثم سافر إلى تولوز لكي يؤدي الامتحان (١١ م - خطباء)

النهائي مختصراً بذلك سنة أخرى من دراسته ، فحصل من جامعتها على أجازة الحقوق في عام ١٨٩٤ .

وكتب على الفور إلى أخيه على فهمى يقول :

عولت بمشيئة الله على الانتظام فى سلك رجال المحاماة ، لأدافع عن حقوق الأفراد ، ولو أتيح لى الخير ، وبلغت ما أتمنى ، لكنت المدافع عن حقوق الأمة بأسرها أمام العالم أجمع ، لأن مصر وهى جنة الدنيا ، لا تستحق أن يداس شرفها بالأقدام ، ونصبح فيها نحن أبناءها الأعرزاء ، ممقوتين غرباء . . . » .

ولكن مصطفى كامل لم يحترف المحاماة ، ولم يترافع فى قضية فرد أبداً ، وقرر منذ اللحظة الأولى أن يقف حياته كلها على المرافعة فى قضية واحدة ، هى قضية مصر .

ويروى أخوه على فهمى أنه عندما عاد إلى مصر أحضر معه صندوقين كبيرين مملوئين بالكتب والوثائق المتعلقة بالمسألة المصرية ، وأنه عكف على دراستها وتلخيصها وكأنه يستعد للمرافعة فى قضية كبرى .

* * *

عندما نهض مصطفى كامل بزمالاته ، كان الاحتلال البريطانى قد مضى عليه أكثر من عشر سنوات ، وكان اليأس قد ران على النفوس بعد فشل الثورة العربية واستسلام زعمائها ، وانصرف الناس إلى رعاية مصالحهم الخاصة ، والتمس الكثيرون رضا المحتل ليضمنوا المنصب والجاه .

وكانت هناك مع ذلك قلة من أهل رأى تفكير فى الحالة التى وصات إليها البلاد ، ويجتمع بعضهم للتشاور وتبادل رأى . كان لطيف باشا سليم مثلاً

يرى كما يقول على فهمى كامل « إنه لا بد من تكوين حزب منظم يعمل لصالح البلاد ويدافع عن حقها وكرامتها . . . » .

ولسكن هذا الحزب ظل فكرة تراود لطيف سليم وأصحابه ، واقتصرت جهودهم على الاجتماعات والندوات بعقدونها في الغرف المغلقة ، وهى الندوات التى كان يحضرها مصطفى كامل منذ كان يدرس الحقوق ، ولا شك أن ماسمعه فيها كان له أثره في تحديد اتجاهه وأسلوب كفاحه .

ويقول الأستاذ فتحى رضوان فى رسالته عن مصطفى كامل أنه يمكن تقسيم المصريين بعد محنة الاحتلال إلى ثلاث طوائف . طائفة كانت ترى المقاومة والنضال ولكنها كانت تتساءل كيف نقاوم ، وبماذا نقاوم . وطائفة ثانية اختارت الاستسلام وقبول الأمر الواقع والتعاون مع المحتل ، ويمثلها مصطفى فهمى ومحمد رياض . أما الطائفة الثالثة ، طائفة المعتدلين ، فكانت ترى من الخير أن نتوسط « فنصادق الأقوياء ونتعلم منهم ونحاكيهم ثم ننافسهم عسانا نستعيد ما فقدنا . . . » وكان الشيخ محمد عبده رمز هذه الطائفة . أما الطائفة الأولى ، طائفة المقاومة والنضال ، طائفة الفطرة السليمة ، والفريزة التى لم يفسدها اليأس فقد وجدت لسانها وقلبها فى مصطفى كامل . . . » .

والواقع أن مصطفى كامل لم يتردد فى اختيار طريقه ، فقرر أن يجهر بحق بلاده فى الحرية والاستقلال ، وأن يحول الأصوات الهامسة إلى زئير فى وجه الاحتلال وأن يطالب بريطانيا علناً وبأعلى صوت بالجلاء عن مصر ، وأن يقف حياته وجهوده كلها على تحقيق هذا الهدف العظيم .

ورأى أن السبيل إلى تحقيق ذلك تبدأ بمحاربة اليأس ، واستنهاض المهم ونشر الدعوة الوطنية بين المصريين ؛ وتحريك أشواقهم إلى الحرية ، وإثارة

كبريائهم الوطنى ، وبث الإيمان فى نفوسهم بقدرتهم على نيل حقوقهم واستعادة أمجادهم . وبذلك يخلق رأياً وطنياً عاماً يلتف حول مبادئه وينادى بها ويجاهد لتحقيقها

وكان يرى فى نفس الوقت أن ينشر الدعوة لقضية مصر فى الخارج ، وبذلك يشرح المسألة المصرية للرأى العام الأوروبى ، ويحمل الدول الأوربية على الاهتمام بها ومساعدة مصر على تحقيق أمنيتها المشروعة . وهكذا حدد مصطفى كامل طريقه وعرف دوره .

إنه دور الداعية للحركة الوطنية فى داخل بلاده وخارجها . أما فى الداخل فقد كان عليه كما يقول الأستاذ فتحى رضوان أن يثير الروح الوطنى القائم ، وذلك بتثبيت العقيدة ، وتحريك الإيمان ، وبعث الثقة بالنفس وإيقاظ الأمل ، ثم محاصرة العدو ، ومنازله وعدم مسالته أو مهادنته .

وأما فى الخارج فكان يهدف إلى بيان عدم شرعية الاحتلال ويريد أن يفضح كذب بريطانيا فى وعودها المتكررة بالجلاء ، ويثبت أحقية المصريين فى الحرية وجدارتهم بحكم أنفسهم ، ويوضح أن مصالح الدول المختلفة فى مصر تقضى عليها بمساعدة المصريين للتخلص من الاستعمار البريطانى .

وكانت الخطابة والكتابة وسيلته وعدته الكبرى فى الجهاد الشاق الذى وهب له حياته .

كان مصطفى كامل خطيباً موهوباً منذ صباه .

والخطابة موهبة طبيعية ، واستعداد فطرى ينمو ويصقل بالتجربة والممارسة والمران .

وقد روى أخوه على فهمى كامل فى كتابه أن نظارة المعارف أقامت حفلاً لتوزيع الجوائز على الطلبة المتقدمين عندما كان « مصطفى » تلميذاً فى مدرسة القرية الابتدائية ، وكان مصطفى هو الفائز بالجائزة من تلاميذ تلك المدرسة وحضر الخديو توفيق حفل توزيع الجوائز فلما جاء دور مصطفى لتسلم جائزته ، ألقى خطبة أثارت تصفيق الحاضرين وإعجاب الخديو الذى سأله عن اسمه فأجابته :

اسمى مصطفى كامل .

فهمس فى أذنه ضابط المدرسة :

— قل عبد سموكم مصطفى كامل .

ولكن مصطفى أعرض عنه ، وسأله الخديو عن عمره ، ثم عن اسم أبيه فقال :

— المرحوم على أفندى محمد المهندس .

فعاد الضابط المذعور يهمس فى أذنه :

— قل عبد سموكم . . .

ولكن الصبي لم يفعل ، وقال له الخديو :

— ففتح الله عليك .

— شكراً للأمر المعظم .

وبعد انتهاء الحفل قال مصطفى للضابط :

— ما كنت عبداً وما كان أبى عبداً لأحد ، ولو أجبت بغير الواقع

لكنت كاذباً . .

وهذه القصة تبين أن مصطفى لم يكن منذ صباه الباكر يهاب مواجهة الجموع والتحدث إليها ، فما بالك بمواجهة أمير البلاد في حفل عام ، والتحدث إليه بشجاعة تأبى النفاق وتتم عن اعتزاز بالنفس وتمسك بالكبرياء .

وفي المدرسة الثانوية أنشأ مصطفى كامل « جمعية الصليبية الأدبية » وكان يخطب في اجتماعاتها الأسبوعية وفي غيرها من الجمعيات . ولا شك أن نشاطه الخطابي في هذه الجمعيات قد أفاده ، وهما له الممارسة العملية لمواهبه ، وأكد ثقته في نفسه كخطيب .

ومما يروى أن على مبارك باشا ناظر المعارف زار المدرسه الخديوية ودخل فصل مصطفى ، وطلب من المدرس أن يدلّه على أقدر التلاميذ في كتابة الإنشاء فأشار إلى مصطفى كامل ، فطلب منه الوزير أن يرتجل خطبة فيما يريد أن يصنع بعد نيله شهادة الدراسة الثانوية ، فوقف مصطفى وارْتَجَلَ كلمة ، كان مما قاله فيها :

— ولقد علمت من أحاديث المرحوم أبي ، ودروس أستاذنا الفاضل معلم التاريخ ، أن أعظم الرجال شأنًا من يحرر بلاده وينقذ أمته من ربة الذل والاستعباد ، وسوف أحاول أن أكون ذلك الحرر الذي يخطب ويكتب ويضرب الأمثال ، مبشراً بما في الحرية من العزة والحياة ، ومنذراً بما في الذل من الموت والصغار ، وأرجو الله تعالى حكمته ، وجلت قدرته ، أن يوفقني إلى ذلك . . .

هذه هي إرهاصات الزعامة وبشائر الخطيب الكبير .

تلميذ في المدرسة الثانوية يسأله الوزير عن المهنة التي يريد اختيارها بعد انتهاء دراسته ، فلا يفكر في اختيار مهنة الطب أو الهندسة أو المحاماة ،

ولسكنه يقول بداهة إنه يريد أن يكون الحرر لبلادته من الاستبعاد .. اويقول
الأستاذ عبد الرحمن الراجحي :

— يجدر بنا أن نتساءل من أين جاءت مصطفى كامل هذه الروح الوطنية في
عصر اكتنفته عوامل اليأس والقنوط ، وكيف نهض وحده وهو في هذه
السن المبكرة ؟ لاتعليل لهذه النشأة إلا أنها قيس من نور العبقرية ، وقد أجهت
هذه العبقرية إلى إحياء الوطن ، وبعث الحركة القومية من مرقدتها ، ومن
مداد هذه العبقرية خط التاريخ دورا عظيما من أدوارها ، وكان مصطفى منشئ
هذا الدور ، إذ نفخ في الأمة من روحه ... الخ

وفي مدرسة الحقوق انفسح أمامه مجال الكتابة والخطابة ، فكان ينشر
المقالات في جريدتي الأهرام والمؤيد ، وأنشأ مجلة « المدرسة » ، ومارس نشاطه
الخطابي في الجمعيات التي كان على صلة بها ، وفي مدرسة الحقوق التي كان من
زعمائها . ولما زار الخديو عباس الثاني المدرسة خطب أمامه وألقى قصيدة من
نظمه . وقد رأينا كيف سلح نفسه بعد عودته من فرنسا بدراسة الكتب
والوثائق التي تتعلق بالقضية التي وهب حياته للدفاع عنها ، واستكمل بذلك
عدته كخطيب . فأى نوع من الخطباء كان مصطفى كامل ؟

إن الذين كتبوا عنه من مؤرخيه أو معاصريه الذين سمعوه على المنبر لم
يهتموا كثيراً بتحديد شخصيته وملاحظه الخطابية ، ولم يصفوه إلا بعبارات عامة
مبهمة تدل على إعجابهم ولسكنها لاتسكني لأعطاء صورة حية لمصطفى كامل على
المنبر . قال الأستاذ عبد الرحمن الراجحي في كتابه :

— هو أعظم خطيب أنجبته مصر الحديثة ، وأول خطيب سياسي جهر
بالاستقلال في عهد الاحتلال ، وأول زعيم اتخذ الخطابة وسيلة لبعث الحركة

الوطنية، ولا شك أن الحركة الوطنية مدينة لخطبه الجلية الرائعة بتطورها واتساع مداها، وكانت هذه الخطب من الحوادث الهامة في تاريخ الحركة القومية . كان خطيباً مفوهاً يجيد الخطابة باللغتين العربية والفرنسية . والخطابة بعد الوطنية، كانت أبرز الجوانب في شخصيته . كان إذاً جالس في محفل وتكلم مع الحاضرين بدوى صوته كأنه يلقي على السامعين خطبة من خطبه الرنانة ، وكان جمهورى الصوت يتكلم من أعماق قلبه المماوء يقيناً وإيماناً ، وكان له سلطان روحى على من حوله من السامعين . »

ويقول الأستاذ فتحى رضوان :

— لقد أتاح الله لمصطفى كامل خيالاً ولساناً وقلماً وهمة جعلته الداعية القوى للوطنية المصرية فى أوائل القرن العشرين .

وكتب الأستاذ محمد مسعود فى الكلمة التى قدم بها كتاب «مصر والاحتلال الإنجليزى» الذى نشر فى عام ١٨٩٦ وكان يضم أعمال مصطفى كامل وخطبه ومقالاته وأحاديثه فى العام الأول من جهاده :

— إذا ارتقى المنير ذلل له القول ، وسخر له الخطاب ، وتابعه الكلام متفق القرائن ، مطرد السياق ، حتى يستميل إليه القلوب النافرة ، ويرد الأهواء الشاردة .

والواقع أن مصطفى كامل كان يملك كل ما يحتاج إليه الخطيب العظيم .

شاب متوسط القامة ، رشيق القوام ، بهى الطلعة ، له وجه نبيل يوحى بالثقة ، وعيمان جليلتان تفيضان بالحيوية ، ينبعث منهما بريق هادئ يجذبك إليه ، وشارب طويل رقيق مغفول الطرفين كأنه علامة مميزة تشير إلى أن لصاحبه من الرجولة والنضج ما يعلو سنه . لا تكاد تجلس إليه حتى تشعر أنك

أمام شخص صريح مستقيم الخلق ، واثق بنفسه في غير غرور ، يقعد ذكاء وكبرياء .

وصوت قوى له جرس ورنين ، واضح الذبرات ، فيه عذوبة ورقة ، يعرف كيف يلونه عند الخطابة . كان يبدأ كلامه بصوت هادئ فيسترعى الانتباه وتعلق الأسماع بشفتيه ، ثم يرتفع شيئاً فشيئاً حتى تغمر نبراته الحلوة الرنانة أرجاء المكان . وصفته إحدى الصحف الأجنبية التي كانت تصدر بالإسكندرية وهي تعلق على خطاب ألقاه عام ١٨٩٧ بمسرح زيرينيا فقالت :

— أما صوته فحسن جهورى ، ذو رنة قوية ، ولذلك كان يسمع من كل أرجاء المسرح ، حتى استطاع كل من كان حاضراً ضمن هذا الجمع الحاشد أن يستوعب كل أقوال الخطيب ، التي كان يلقاها بعبارات فصيحة خالية من شوائب التعميد . »

وكان مصطفى كامل أنيق الملبس ، حسن الهندام ، وكان من عادته إذا ذهب للخطابة في اجتماع كبير من الاجتماعات التي كان يدعو إليها في المسارح وغيرها ، أن يرتدى « الردنجوت » فكانت أناقته تؤكد مظهره الوسيم النبيل . ولقد قيل إن مصطفى كامل لم يكن يرتجل خطبه ، والواقع أنه كان خطيباً مطبوعاً قديراً على الارتجال ، وله خطب مرتجلة في مناسبات كثيرة ، ارتجلها بالعربية والفرنسية تؤكد أصالته الخطابية .

ولكنه في المناسبات الكبرى ، عندما كان يدعو لعقد اجتماع لسباع إحدى خطبه ، كان يكتب خطبته كاملاً ، ثم يستوعبها في ذاكرته القوية ، حتى إذا وقف على المنبر كان مالمسك لعناصر الموضوع ، مطمئناً إلى المرجع أمامه ، ثم ينطلق في خطبته لا يكاد يعود إلى الورق الذي أعده ، تسعفه

ذاكرته المدهشة ، وطبعه الفياض ، ووضوح الفكرة في نفسه ، وقدرته الفائقة على التعبير .

وكان يخطب بأعصاب هادئة ، ويؤكد كلامه أحيانا بالأشارة الرشيقة ، ولم يكن مع ذلك كثير الحركة على المنبر ، وإنما هي يده يرفعها أو ينزل بها مشيراً بسبابته في موضع التوكيد .

أما أسلوبه الخطابي فكان أسلوباً قوياً متدفقا خاليا من زخارف الصناعة اللفظية . فأنت تقرأ خطب مصطفى كامل فلا تجد فيها سجعة مفقطة أو عبارة طنانة مبتذلة ، وهي مع ذلك نموذج رائع لما يمكن أن يقوله الخطيب في مثل ظروفه . كان يحاول بعث الروح الوطني ، وتعميق الشعور بحب مصر ، وتجميع الجهود لنوع من الثورة السلمية تطالب بالجملاء وتسعى لتحقيقه بالطرق المشروعة . كان يحاول ذلك في مواجهة قوى عاتية تتربض به ، وتحاول النيل منه وتشويه حركته وإتهامه بالتعصب الديني والتحريض على كراهية الأجانب وإثارة الفتنة والسعى لتكرار مأساة الثورة العراقية .

ولهذا كان عليه أن يتكلم في خطبه بحماسة الزعيم وكياسة السياسي الحذر ، فلا يطلق العنان للعبارات الحماسية الجامحة ، بل يحكم لسانه بعقله الذكي ووعيه المسئول .

وليس معنى هذا أنه كان يخشى مواجهة الاحتلال بصراحة ، فقد كان يفعل ذلك بشجاعة لا تهاب شيئا ، ولكنه كان يتحرز أن يتمسك عليه أعداؤه بشيء يسيئون به إلى الحركة الوطنية التي يتزعمها .

وكانت خطبه سهلة خالية من التعقيد لأنها صادرة من قلب يؤمن بما يقول فتجد طريقها مباشرة إلى قلوب سامعيه ، حاملة الحجة الدامعة ، والمنطق السليم ، والشعور الصادق .

وبنفس هذا الأسلوب البليغ كان يخطب بالفرنسية التي ألقاها فينتزع
أعجاب من يسمعه من الأجانب في مصر وأوروبا .

* * *

ومهما حاولنا أن ننقل شيئاً من مواقف مصطفى كامل الخطابية ، فلن
نستطيع أن ننقل للقارئ تلك الحياة الزاخرة التي كانت تنبعث منها وهو يلقاها
أمام جمهوره ، ولسوف تظل مجرد كلمات جامدة على الورق بعد أن فقدت
تلك الذبذبات الرنانة التي كانت تبهر ، والنفحات الحلوة التي كانت تسحر ،
والنظرات التي كانت تشع ناراً ونوراً ، وبعد أن سقط حجاب الزمن بيننا
وبين الخطيب ومنصته ، والزعيم وحماسته ، ولم يبق لنا إلا النصوص تتردى
من خلال سطورها أطياف شاحبة لمظاهر عظمة الخطيب .

لم يكد مصطفى كامل ينتهي من دراسته بفرنسا حتى تفرغ على الفور
لرسالته الوطنية الكبرى ، فعاد إلى فرنسا في العام التالي ليدعو لقضية بلاده
في الخارج ، وقدم عريضته المصورة الشهيرة إلى مجلس النواب الفرنسي ،
وأدلى بحديث سياسي إلى جريدة « الجورنال » ، ثم عقد اجتماعاً في جامعة
تولوز وألقى خطبة بالفرنسية شرح فيها قضية مصر وإعتداء بريطانيا عليها
ووعودها المتكررة بالجلاء ، وطالب فرنسا ودول أوروبا بمساعدة بلاده
لاسترداد استقلالها ، ثم نشر رسالة ضافية عن « أخطار الاحتلال البريطاني » .

وسمى مصطفى كامل إلى التعرف بمدام جوليت آدم ، فسكتب لها رسالة
جاء فيها :

— إنني لا أزال صغيراً ، ولكن لي آمالاً كباراً ، فأني أريد أن أوقف
في مصر الهرمة مصر الفتاة . هم يقولون إن وطني لا وجود له ، وأنا أقول

ياسميتى إنه موجود ، وأشعر بوجوده بما آنس له فى نفسى من الحب الشديد
الذى سوف يتغلب على كل حب سواه ، وسأجود فى سبيله بجميع قواى ،
وأفديه بشبابى ، وأجعل حياتى وفقاً عليه »

يا لها من رسالة تلخص برنامج مصطفى كامل وحياته كلها . . .
إنه يريد أن يوقظ فى مصر الهرمة مصر الفتاة .

وسوف يجود بقواه كلها فى سبيل وطنه ويفديه بشبابه ، هذا الوطن
الذى يحبه حباً شديداً سوف يتغلب على كل حب سواه .

وقد بر مصطفى بوعده ، ووفى بعهده ، فوقف حياته كلها على الجهاد
لبعث وطنه ، وطوى قلبه على حب مصر وحدها ، وعاش بغير زوجة تخفف
عنه متاعب الكفاح ، ثم سقط كما يسقط الجندي فى الميدان فذهب شهيداً فى
عمر الزهور .

كانت خطبه التى يلقيها فى مصر تهدف إلى تحقيق أغراض كثيرة . كان
يريد أن يوقظ فى قلوب مواطنيه حب بلادهم حتى يتعلقوا بها ويجاهدوا
لتخليصها من ذل الاحتلال . فهو يقول فى أول خطبة سياسية له بمصر ،
ألقاها فى ٣ مارس ١٨٩٦ بالمرشح العباسى بالأسكندرية :

— ألا تحبون مصر التى خيم عليها الشقاء ، وحل بها البلاء ، تناديكم وأنتم
حولها « ألا فانصرونى يا أعز البنين ، ألا فارفعو شأنى بين الأمم ، واجعلوا
لى مكاناً فسيحاً بين الشعوب الحية » . أجل . . إنكم تحبونها ، ويجب أن تحبوها
وتحنوا عنها كما يحنو المرء على أمه إذا أعتلت ، ويسعى فى خدمتها ويبحث
عن دوائها .

ولا يكن حبكم وقفاً عند الحب ، بل لتتجاوزوا ذلك إلى العمل لخيرها
واعلاء شأنها .

وإن يوماً تجتمع فيه قلوبنا على محبة بلادنا وخدمتها ، لهو يوم تحقيق الأمل ،
وعندئذ يحق لنا أن نقف أمام الأمم كافة وننادى بأعلى صوتنا وبكل فخر :
نحن بنو مصر الأحرار .

وفي خطبة أخرى له يتحدث عن مصر حديث العاشق الوهлан فيقول :

— يقول الجهلاء إني متهور في حبها ، وهل يستطيع مصرى أن يتهور
في حب مصر ؟ إنه مهما أحبها قلن يبلغ الدرجة التي يدعو إليها جاهلها وجلالها
وتاريخها والعظمة اللاتئة بها .

ألا أيها اللامون أنظروها وتأملوها وطوفوا بها ، واقرأوا صحف ماضيها
وأسألوا الزائرين لها من أطراف الأرض ، هل خلق الله وطناً أعلى مقاماً ،
وأسمى شأنًا ، وأجل طبيعة ، وأجل آثاراً ، وأغنى تربة ، وأصنى سماء ، وأعذب
ماء ، وأدعى للحب والشغف من هذا الوطن العزيز ؟ أسألوا العالم كله يجيبكم
بصوت واحد إن مصر جنة الدنيا ، وإن شعباً يسكنها ويتوارثها لأكرم
الشعوب إذا أعزها ، وأكبرها جناية عليها وعلى نفسه إذا تسامح في حقها .

إني لو لم أولد مصرياً لوددت أن أكون مصرياً .

قد يرى السفهاء أن الانساب لشعب مستعبد كالشعب المصرى مما
لا يليق بإنسان ! ولكن أى شرف يطعم الحر فيه أكبر من العمل لأحياء
الأمة التي سبقت الأمم كافة في العلم والمدنية والأدب ؟ أى رفعة يسعى الشريف
إليها أسمى من إنهاض شعب كان أستاذاً لشعوب البشرية ؟ أى سؤدد « ترمى
النفوس إليه أعلى من إخراج وطننا المصرى من الظلمات إلى النور وإحلاله
الحل الأول بين الأوطان الأخرى التي كانت في الدجمة الحالكة يوم كانت

بلادنا مشرقا للمعرفان ؟ .

وفي الاحتفال بمسور مائة عام على ولاية « محمد على » يقول من
خطبة طويلة :

— صبرا أيها الوطن الحبيب على بلواك ! فما ازدحم بموك اليوم إلا
لينشدوا أكبر المعصور وأعظم الأيام، ويجمعوا أمرهم بينهم على إحيائها بالجد
والعمل والوفاق والوثام . صبرا أيها الوطن العزيز صبرا ، فقد ناجت الضمائر
الضائرو تنافمت النفوس والخواطر ، وشعر كل مصرى بأنه الوارث لأفضل
الأوطان وأعز البلدان .

ثم يقول مذكرا مواطنيه بالأبجاد الحربية التي حققها أجدادهم بقيادة
إبراهيم باشا :

— ما هذا الجد الفخيم الذي يحدثنا عنه التاريخ ؟ أين ذلك المصري الذي
كان إذا جاب المدائن والممالك تحولت عن غيره الأنظار والتفتت إليه الشعوب
بعميون الأعجاب والاعتبار ؟

أين ذلك الذي إذا فخر القوم ببلادهم أعطى للمقام الأول ونال الشرف
الأعلى وعد وطنه في مقدمة الأوطان ، ومصره في الصف الأول من مصاف
الأمصار والبلدان .

أين عصر نقل عنه النافلون أن الدول غدرت بمصر وأحرقت أسطولها في
« نافارين » وأغرقت من بحارتها البواسل ستة آلاف ، وتقدم ضابط فرنسي
بالخبر إلى إبراهيم باشا ، فجز رأسه ساخرأ وقال « ما أنشئت السفن والبوانجر
إلا لتسكون فريسة النار أو البحار ، فليست بأسف عليها ، وإن والدى لقادر على
على أن يحدد مثلها في عام أو بعض عام »

أين ذلك العهد البعيد ليمرزي به المصري الحزين الأسيف ؟

أين هو ليبعث في القلوب الميته شيئاً من الحياة والقوة ، وبذل المصرى على حقيقة موقفه وقيمته ومكانته .

أين هو ليخطب فيكم بلسان الحال ، فيبلغ من نفوسكم مالا يبلغه لسان المقال .

ثم مضى مصطفى كامل يحارب اليأس في خطبه ، ويعمل على أن تنق الأمة بنفسها وبقدرتها على تحقيق آمالها في الحرية والاستقلال . وكان يقول :

— إن ثقة الأمة بنفسها هي الأساس الذي يبنى عليه مجدها وبشاد عزها وسوددها . ترى الأمة إذا اعتقدت الخير والقدرة في مجموعها وأفرادها تغلبت على الحادثات والأيام ، وقهرت الأعداء ، وأجتازت المصاعب غير هيابة ولا وجلّة .

وكان شعاره الذي أطلقه في هذا الشأن :

— لا حياة مع اليأس ولا يأس مع الحياة .

ويقول في إحدى خطبه :

— عجباً وألف مرة عجباً ! كيف تسيء الظن بنفسها أمة تغلبت على الأيام والحوادث ، وقانلت الليالي وما ولدت ، وقاومت تيارات الزمان أجيالاً طوالاً ، وأوقفتها وهي في منتهى قوتها . كيف يقول بعض أبناء هذه الأمة عنها إنها ماتت وزالت آثارها وأصبحت نسياً منسياً وهي التي اهتز لمجدها الشرق والغرب ، وسارت الركبان بأحاديث مفاخرها . كيف يقضى اليائسون عليها وقد كانت قبل عهد محمد على أكثر أدواء وأقل أملاً في الشفاء من الآن ثم عادت لها الحياة والقوة والجاه والعز ورفعة الشأن .

وفي أول خطبة له بالأسكندرية قال :

— إن في مصر فئة من الناس نسيّت أن الأمل داعي الأمل ، فلبست

ثياب اليأس ، وقضت بظنونها على مستقبل الوطن العزيز ، وجعلت مهمتها في الأمة تشبيط الممم وإقعاد العزائم ، فلا تنادى في المحافل والأندية إلا بأنه ليس لمصر حظ في المستقبل من الحرية والسعادة الإجتماعية ، وأن شعبها قد مات من زمن طويل .

وعندى أن الرجال اليائسين وإن كانوا أقل من القليل يضرون بلادهم أعظم الضرر ، إذ أن قتل العواطف الشريفة ، وإخاد نار الغيرة الوطنية هما أكبر جنابة على الوطن وأهله . فلمترك هؤلاء اليائسين في سفن يأسهم تصعدهم أمواج الأفكار وتهبط بهم حتى نصل بهم إلى شاطئ الخير والرفاهية فنذكرهم عندئذ بفساد مزاعمهم وخطأ آرائهم .

ويقول في إحدى خطبه الأخيرة :

— إن العامل الواثق من النجاح يرى النجاح أمامه كأنه أمر واقع ، ونحن نرى من الآن هذا الاستقلال المصرى ونبتهج به وندعوله كأنه حقيقة ثابتة ، وسيكون كذلك لا محالة . ففهما تعددت الليالي وتعاقبت الأيام ، وأتى بعد الشروق شروق ، وأعقب الغروب غروب ، فأنا لا نمل ولا نقف في الطريق ولا نقول أبداً : لقد طال الانتظار .

إننا وجهنا قلوبنا ونفوسنا وقوانا وأعمارنا إلى أشرف غاية اتجهت إليها الأمم في ماضى الأيام وحاضرها ، فلا الدسائس تخيفنا ولا التهديدات تقفنا في طريقنا ، ولا الشتاؤم تؤثر فينا ، ولا الخيانات تزعجنا ، ولا الموت نفسه يحول بيننا وبين هذه الغاية التي تصغر بجانبها كل غاية .

نعم . . . إننا لو تخطفنا الموت من هذه الديار واحداً بعد واحد ، لكانت آخر كلماتنا لمن بعدنا « كونوا أسعد حظاً منا ، وليبارك الله فيكم ويحمل الفوز على أيديكم ، ويخرج من الجماهير المئات والألوف بدل الآحاد للمطالبة بالحق

الوطني والحرية الأهلية والاستقلال المقدس .

بلادى . . بلادى . لك جى وفؤادى ، لك حياتى ووجودى ، لك
روحى ونفسى ، لك عقلى ولسانى ، لك لى وجنانى ، فأنت أنت الحياة
ولا حياة إلا بك يا مصر .

* * *

وكان على مصطفى كامل أن يوجه الشعوب الوطنى الذى أخذ يقنعه وينمو
إلى مخاصمة الاحتلال ومقاومته ، فأخذ يهاجمه فى خطبه ويدل على عدم
مشروعيته ويعدد مساوئه ، ويفند المزاعم القائلة بأنه أفاد البلاد وأنقذها من
الفوضى والفساد . ولم يكن هذا بالأمر الهين فى تلك الظروف التى كانت
الجنود البريطانية فيها تحتل البلاد ، واللورد كرومر هو الحاكم الفعلى ، والموظفون
الإنجليز يسيطرون على المرافق والوظائف الكبرى ، والوزارة المصرية تنفذ
أوامرهم فى استسلام كامل ، والانتهازيون يتملقون المحتل ليظفروا منه بالجاه
والمنصب . فكان على مصطفى كامل أن يستل الخوف من القلوب ويث فيها
الشجاعة حتى تنبض بروح المقاومة ، وذلك بغير أن يدفع بها إلى عنف لم
تهبأ لها وسائله . ولهذا كانت خطب مصطفى كامل فى هذا الشأن « مزيجاً
عجيباً جداً من الحماسة والاعتدال ، كما أنها جمعت بحذق ومهارة بين مخاصمة
الإنجليز وتأليب المصريين على احتلالهم وبين البعد عن الألفاظ الحماسية الرخيصة
الجوفاء » كما يقول الاستاذ فتحى رضوان فى كتابه الصغير القيم عن مصطفى كامل

وقد بدأ مصطفى كامل كفاحه الرائع ضد الاحتلال بحركة سياسية بارعة
فكتب رسالة إلى « جلادستون » زعيم الأحرار الذى كان رئيساً للوزارة
البريطانية عند وقوع الاحتلال والذى ألقى تصريحات سابقة أمام مجلس العموم
أعلن فيها أن الاحتلال إجراء مؤقت وأن بريطانيا تبحث عن وسيلة للخروج
من مصر بشرف . وجاءه رد « جلادستون » فى يناير ١٨٩٦ متضمناً قول
(م ١٢ — خطباء)

الزعيم البريطاني الذي كان قد تخلى عن الحكم « إن زمن الجلاء على ما أعلم قد وانى منذ سنين . »

ونشر مصطفى كامل الرسالتين في مصر وأوربا فكان لهما صدى عميق في الدوائر السياسية والوطنية .

وفي خطبته السياسية الأولى بالاسكندرية دعا المواطنين إلى نبذ العنف والتمسك بالحكمة والاعتدال، وأطلق شعاره المعروف « أحرار في بلادنا كرماء لضيوفنا . . » وقال إنه ليس من غرضه أن يندد بالأمة الإنجليزية « لأنى أترفع عن أن أدافع عن بلادى بالطعن والسباب ، فضلا عما أحس به دائما من وجوب احترام الشعب الإنجليزي » وقال :

— إن الخلاف بيننا وبين الإنجليز هو : هل زمن الجلاء عن مصر قد حان أو لم يحن ، فدول أوربا ذوات المصالح في مصر تقول معنا إن زمن الجلاء قد حان منذ أعوام ، والمستر جلا دستون زعيم الأحرار وأكبر سياسى إنجليزى يقول ذلك أيضاً . . .

ومضى يقول

— وإلا فهل يرضى أبناء إنجلترا أن يستعمل شرفهم آلة دنيئة لامتلاك بلاد حرة واستعباد أمة حرة ؟ وهل ترضى الأمة البريطانية الغيورة على مقامها واحترامها أن يقال عنها إنها لا شرف لها ولا احترام لكلماتها العلنية وعهودها الصريحة ؟

وفي نهاية الخطبة طلب مصطفى كامل من الحاضرين أن يرفعوا أيديهم إذا كانوا يوافقونه على مطالبة بريطانيا بالجلاء ، فرفع الجميع أيديهم فى حماسة بالغة وكتبت جريدة « المؤيد » تقول :

— إنها الخطبة الأولى التى أقدم على إلقتها شاب مصرى غيور ، عرف

واجب الوطن وضرورة التفانى في حبه المقدس بعد أن مر على الاحتلال الأجنبي أربعة عشر عاماً . ولقد استهوى الخطيب المسامع بحسن إلقائه وبلاغته منقطعه وغزارة مادته ولطيف اعتداله .

وكان لهذه الخطبة دوى عظيم في الاسكندرية ، تردد صدها في أرجاء مصر وظهر تأثيرها في نفوس المواطنين يوم عودته من الاسكندرية إلى القاهرة ، فكان توديعه بالمحطة مظاهرة وطنية اشترك فيها جمع حاشد من الناس يتقدمهم أعيان الثغر ، وقدموا لمصطفى كامل وساما من الفضة ، وأمطروه بالأزهار ، وهتفوا له عندما تحرك به القطار .

وأدركت سلطات الاحتلال خطر مصطفى كامل ودعوته إذا انتشرت ، وأرادت إرهابه والانتقام منه ، فدبرت محاكمة عسكرية لأخيه على فهمي كامل الضابط بالجيش عن تهمة وهمية ، وحكم بانزله إلى رتبة نفر . ثم دبوا مؤامرة أخرى لتجنيد مصطفى كامل حتى تسكت صوته ، ولكنه أحبط المؤامرة ، كما استطاع أن يحصل من الخديو على أمر بالعفو عن أخيه .

وخطب مصطفى في مسرح زيزنيا بالاسكندرية في اجتماع ضم أعضاء الجاليات الأوربية ، خطبة بالفرنسية ، كان مما قاله فيها :

— إذا كانوا يحسبون أنهم أوقفوني إلى الأبد ، إذ يظنون بسذاجة لامثيل لها أن الظلم الذي أوقعوه أخيراً بأحد أخوتي يضعف قواي أو يوهن عزيمتي أو يقلل من جهادي في سبيل سعادة بلادي ، فقد أخطأ ظنهم وخاب سعيهم ، لأن الضعف لن يعرف طريقه إلى نفسي ، وسوف استمر في الدفاع عن وطني العزيز بكل مالى من قوة ، وسوف أمضى في شرح قضية مصر ووصف آلامها والمفاداة في كل مكان بحقوقها المقدسة ، والمطالبة بحريتها واستقلالها ، ولن يوقفني عن ذلك إلا الموت .

ثم شرح في خطبته قضية الجلاء والسودان ، وكيف أن ما يطالب به لا يتعارض مع مصالح الأجانب بل يعزز هذه المصالح وقال :

— إننى أعلم جيداً أيها السادة أنكم تؤيدون الجلاء ، لأن ذلك يتفق مع مبادئ العدالة والشرف الدولى من جهة ، ولأن مصالحكم تقضى به من ناحية أخرى . أجل . . إن من مصالح الأوروبيين النازلين فى مصر أن يتحقق الجلاء ، لأنه اذا صارت إنجلترا مالكة لمصر فإن حياة الأوروبيين على ضفاف النيل تصبح مستحيلة ، ذلك أن إنجلترا سوف تضع يدها على كل شىء ، ولا تترك لغيرها شيئاً ، وتدعى عندئذ أنها الوكيله الوحيدة للمدنية فى وادى النيل متجاهلة مصالحكم أنتم وكلاء المدنية الأوربية فى العلوم والفنون ، كما أنكم وكلاؤها فى التجارة والصناعة . .

ومضى مصطفى كامل يشدد حملته على الاحتلال ، وأخذ يحوب البلاد شرقاً وغرباً ، متنقلاً بين عواصم أوروبا ، يكتب ويخطب ، ويعقد المؤتمرات ، ويدلى بالأحاديث ، ولا يترك فرصة إلا انتهزها رافعاً صوته بدعوته .

وكم أرهاق جسمه النحيل بالعمل المتواصل ، ولم تكن المصاعب والعقبات تثنيه عن طريقه أو تضعف من عزيمته ، بل كانت تزيد إيماناً وإصراراً .

فى عام ١٨٩٨ وقعت حادثة « فاشودة » عندما تقدم السكابتين الفرنسى « مارشان » على رأس حملة صغيرة واحتل هذا الموقع الفرنسى الهام فى السودان ورفع عليه العلم الفرنسى . وفهم المصريون أن فرنسا تهدف بذلك الى صد التيار الانجليزى فى قلب أفريقيا وفتح باب المسألة المصرية حتى تضطر إنجلترا

لتنفيذ وعودها بالجلاء . ولكن أمالهم خاب عندما أسرع « ككتشنر » واضطر « مارشان » الى اخلاء الموقع فانسحب ونفضت فرنسا يديها من الأمر كله .

كان هذا الحادث صدمة للحركة الوطنية ، وكتبت مدام جوليت آدم تقول عنها .

— « فاشودة . . . إنها الضربة القاضية ! إن غير واحد من سياسة فرنسا قد أفهم الخديو والوطنيين المصريين أن فرنسا ستتدخل لصالح مصر سريعاً وبصفة حاسمة ، وقالوا لهم إن بعثة « مارشان » هي الحاملة لراية استقلال مصر ، فصاروا جميعاً يعتقدون أن تحرير وطنهم سيأتى من السودان ، ولكن حادثة فاشوده قضت على آمال الوطنيين المصريين . .

وهب مصطفى كامل يحارب موجة اليأس الجديدة ويقول :

— اننا لم نياس ولن نياس أبداً من مستقبل الوطن العزيز . فإننا نعلم اليقين أن مصر مقبرة للامم الطاغية ، ونعرف أن حظ إنجلترا فيها سيكون كحظ الدول التي سبقتها . ولكننا اذا كنا غير يائسين من مستقبل بلادنا ، فأنا يائسون من أى تعصيد يأتينا من أوروبا ، وأصبحنا نوجه هممتنا ونشاطنا لتعليم الأمة وتربيتها بإنشاء المدارس حيث ينشأ الشباب على أشرف مبادئ الوطنية . . »

وهكذا أدرك الزعيم الشاب أن مصر يجب أن تعتمد على جهود أبنائها وجهدهم اذا أرادت أن تظفر بالاستقلال ، وأن الكفاح لتحقيق هذه الغاية سوف يطول ، فاندفع بكل قواه يمد الحركة الوطنية بمزيد من الجهد والعمل ويطارد شبح اليأس ، ويرسم طريق العمل البناء فى احدى خطبه :

— ما هذا السم القاتل الذى تناولته الأمة عن طيب خاطر ؟ ما هذا البلاء المدمر الذى حل بالبلاد وتساقط على رؤوس أهلها وهم إليه ناظرون ؟ كيف تنسى هذه الأمة العزيزة أنها هى التى فتحت وقهرت وضربت وانتصرت وبهرت العالمين بقدرتها وشدة بأسها ؟ ! لا ريب أن أصل هذا البلاء وجريئمة ذلك الداء إهمال أمر التربية الوطنية ...

ودعا مصطفى كامل إلى إنشاء المدارس الحرة التى تنشر التعليم القومى ، فأنشئت أول مدرسة تحمل اسمه فى عام ١٨٩٩ .

ثم رأى أن تكون له صحيفة يومية وطنية يتصل عن طريقها بالرأى العام ، فتكون له بمثابة منبر دائم يلقي منه آياته الوطنية ، وهكذا صدر العدد الأول من جريدة « اللواء » فى ٢ يناير ١٩٠٠ .

وعندما أبرمت إنجلترا وفرنسا « الإنفاق الودى » فى عام ١٩٠٤ وقد جاء فيه أن إنجلترا « ليس فى نيتها تغيير الحالة السياسية فى مصر » ، وتعهدت الحكومة الفرنسية من جانبها « ألا تعرقل عمل إنجلترا فى هذه البلاد لا بطلب تحديد أجل للاحتلال البريطانى ولا بأى صورة أخرى » ، وكان هذا الالتزام من جانب فرنسا يقابله التزام من بريطانيا ألا تعرقل عمل فرنسا فى مراكش ، أدرك الجميع أن فرنسا قد تخلت نهائياً عن مساندة الحركة الوطنية ، وأنها تأمرت مع بريطانيا على تقسيم مناطق النفوذ بينهما فى الشرق .

وعاد مصطفى كامل مرة أخرى يطارد اليأس ويبث الثقة فى النفوس ، وألقى خطبة فى مسرح زيزينيا بالإسكندرية فى ٧ يونيو ١٩٠٤ تحدث فيها عن الإنفاق الودى ، ومؤامرة بريطانيا وفرنسا على مراكش . وحمل على السياسة الإستعمارية الإنجليزية والفرنسية ، وهاجم سياسة الإستسلام التى يسلكها وزراء مصر ، ودعا إلى الثبات والكفاح وقال :

— إن الوطنية شعور ينمو في النفس ويزداد لهيبه في القلب ، ويرسخ في الفؤاد ، كلما كبرت هموم الوطن وعظمت مصائبه واشتدت كربه .

فإذا كننا قد افتخرنا بهذا الشعور الوطني ورمينا كل من تجاهله بالخيانة أيام كننا نؤمل الخلاص القريب والجلاء العاجل ، فضليق بنا أن نتعلق به اليوم أضعاف تعلقنا به بالأمس ، وأن نقول لهذا الوطن العزيز الأسيف : كلما تمكن العدو منك ، تمكن حبك من القلوب ، وتعددت واجباتنا نحوك ، واشتد تمسكنا بحقوقك .

إن الذي يسمع صوت ضميره منادياً في كل لحظة بوجوب خدمة الوطن وإعلاء شأنه يشعر بأن دم آباءه الذي يجري في عروقه يطالبه بتضحية النفس لتلك الأرض الطاهرة التي لا شرف له إلا بها ، ولا حياة بغيرها ، ولا رفعة بدون رفعتها ، ولا مجد إذا زال مجدها . إن الذي يسمع ذلك الصوت ، ويشعر بهذا الشعور لا يخاف العقبات والموانع ، ولا يخشى السباب والمطاعن ، بل يضي في طريقه ناظراً إلى الغاية التي طلبها ، والبعية التي تعلق بها ، واجداً من سهام الأعداء ما يجده الجندي في جراح الحرب من شرف وفخر ..

ثم كانت حادثة دنشواي .

ويقول الأستاذ فتحى رضوان إن الداعية كقائد الجيش يبقى متربصاً بعدوه الدوائر حتى إذا آنس في صفوفه ثغرة يستطيع أن ينفذ منها انطلق إليها بقوته جميعاً أو بأكثرها ليضمن تشتيت شمل خصمه والقضاء عليه . وكان مصطفى كامل كهذا القائد لا يزال يدور حول قلعة الإنجليز في مصر وقلعة حكمهم ، حتى كانت حادثة دنشواي فوقعوا في خطأ صارخ يختلف عن أخطائهم التي يرتكبونها كل يوم ، فشخذ مصطفى كامل قلمه وأطلق لسانه ، وجعل يصور للناس في ألوانها

القائمة . وأحست بريطانيا أنها العاصفة فأحنت رأسها كهادتها ، وسجبت اللورد كرومر طاغية قصر الدوبارة ، وعميدهم العتيد الذى يفاخرون إلى اليوم بهبقريته وطول باعه وشدة مراسه .

ذهب خمسة من الضباط الإنجليز لصيد الحمام فى قرية «دنشواى» . فأصابته طلقة طائشة فلاحه كانت فى جرنها وأشعلت النار فى الجرن ، فاستغاث شقيق زوجها وهجم على الضابط يحاول انتزاع بندقيته ، وتكاثر الأهالى ، وجاء زملاء الضابط لنجدته ، وجاء فى نفس الوقت شيخ الخفراء مع زملائه لتفريق الناس ، فتوهم الضباط الإنجليز أنهم يريدون بهم شراً ، فأطلقوا النار عليهم فأصابوا شيخ الخفراء وزميله وآخر من الأهالى ، الذين ثارت نائرتهم وهاجموا الإنجليز بالطوب والعصى فجرحوا بعضهم ، وأحاط بهم الخفراء وتحفظوا على بنادقهم وتمسكوا من حمايتهم من غضب الأهالى حتى جاء ضابط الشرطة . وفى خلال ذلك كان أحد الضباط وهو السكابتن بول قد هرب من القرية وظل يعدو حتى سقط مغشياً عليه ، وثبت من تقرير الطبيب الشرعى البريطانى أنه مات من ضربة الشمس .

هذا هو حادث دنشواى بإيجاز ، وقد هاجت له سلطات الاحتلال ، وأراد « كرومر » أن يتخذ ذريعة ليضرب ضربة ترهب المصريين ، وتعيد هيبة الإنجليز التى زعزعتها الحركة الوطنية التى أشعلها مصطفى كامل .

وفى أيام قليلة انعقدت المحكمة المخصوصة ، وصدر الحكم بإعدام أربعة من الأهالى وبالأشغال الشاقة والسجن والجلد على سبعة عشر شخصاً آخرين ونفذ الحكم علناً فى قرية دنشواى .

وكان مصطفى كامل مريضاً فى باريس عندما علم بما حدث ، فثارت نفسه

وكتب مقالا بعنوان « إلى الأمة الإنجليزية والعالم المتمدين » نشرته جريدة « الفيجارو » الفرنسية الشهيرة . وكان هذا المقال أروع ما كتب مصطفى كامل في حياته السياسية . ورغم مرضه ونصائح الأطباء قرر أن يهاجم الاحتلال في عقر داره . تقول مدام جوليت آدم في كتابها « انجلترا في مصر » :
 — لقد طلب منى طبيبه أن أستخدم نفوذى لحمله على السفر إلى « فيشي » للراحة والإستشفاء ، ولكنى لم أستطع منعه من السفر إلى لندن عقب حادثة دنشواى ، لأن إخلاصه لبلاده ، ذلك الإخلاص المتناهى ، كان عنده فوق جميع الإعتبارات الشخصية ، وفوق الحياة نفسها .

وسافر مصطفى كامل إلى لندن في ١٥ يولييه من عام ١٩٠٦ ، واتصل برجال الصحافة والسياسة وأعضاء البرلمان ، وأدلى بالأحاديث في الصحف ، وترجم مقاله عن حادث دنشواى ووزعه على الوزراء وأعضاء البرلمان والصحف ، ونجح في إثارة الرأى العام البريطانى حتى انبرى بعض النواب الأحرار يستنكرون تصرف اللورد كرومر ، وكتبت بعض الصحف والمجلات الانجليزية تذكر حكومتها بوعودها لمصر منذ بدء الاحتلال ، وتطالب بمنح مصر حكومة مستقلة .

وأقام مصطفى كامل وليمة كبرى بفندق كارلتون دعا إليها عددا كبيرا من رجال الصحافة والسياسة وأعضاء البرلمان ، وألقى فيها خطبة بالفرنسية كان مما قاله فيها : —

إن الحركة الموجودة في مصر هي حركة وطنية أصيلة لاشك فيها ، فإن الشعب المصرى متمسك باستقلال بلاده أشد التمسك . وإذا كان بعض الساسة الانجليز يتظاهرون الآن بنسيان الوعود والعهود التى قطعها رجالكم المسئولون علنا فإننا لم ننسها نحن أبداً ، بل لايزال كل مصرى يكررها وسوف يكررها على الدوام ، علما بأن العهود وكلمة الشرف لا تسقط بمضى المدة .. !

ومع ذلك فإذا فرصنا أن هذه الوعود والعهود لم تقدم فعلا من رجال سياستكم ، فإن من حق المصريين أن يطالبوا باستقلال بلادهم . إن إنجلترا لم تفتح مصر ولم تغزها ، بل دخلتها كدولة صديقة تريد توطيد عرش الخديو ومساعدة الشعب المصرى على أن يعيش عيشة الأمم المتمدنه . فمصر لاتسأل إحسانا عندما تطالب بحريتها ، بل تطلب حقاً شرعياً لانزاع فيه ، تطلب حقها فى الحياة والوجود . وإننى على يقين أنكم لو كنتم محلنا لشعرتكم بنفس شعورنا ، وسلكتم مسلكنا ، لأنه لا يوجد إلا مطلب واحد خليق بأن يشغل حياة الإنسان ، ألا وهو استقلال وطنه وعظمته .

وتروى مدام جوليت آدم فى كتابها أن السير « كامبل بانرمان » رئيس الوزراء طلب مقابلة مصطفى كامل بعد هذه الخطبة ، وتمت المقابلة فى « داووننج ستريت » ودار بينهما حديث عن الحالة فى مصر ، وأن مصطفى كامل قال له :
— أرجو أن تكون قد لمست الآن كيف نال عمالك بمصر من شرف إنجلترا بتلويثهم للعدالة .

وقد اعترف له رئيس الوزراء البريطانى بأن دنشواى « حادثة مؤسفة » ، ثم قال إنه لا يظن أن فى مصر رجالا أكفاء يستطيعون حكم البلاد إذ تركتها بريطانيا ، واسكن مصطفى كامل فند هذا القول ، فعرض عليه السير كامبل بانرمان أن يشكل الوزارة المصرية برئاسته ، فرد عليه الزعيم الشاب :
— أن وطنيتى تفرض على أن أرفض كل منصب حكومى مادام الاحتلال فى بلادى .

وأدرك رئيس وزارة بريطانيا أنه أمام زعيم وطنى حقيقى لا يسعى لمنصب أو جاه ولا يستهدف مصلحة شخصية .

وكان من نتيجة كفاح مصطفى كامل بعد مأساة دنشواى أن سحبت

بريطانيا عميدها كرومر من مصر ، وتم العفو عن المحكوم عليهم بالسجن ،
واتجهت السياسة البريطانية إلى ملاينة المصريين .

* * *

عاد مصطفى كامل إلى مصر ليضعف جهاده في سبيل قضية بلاده ، بينما
كانت صحته تسوء وتنهار تحت وطأة المجهود الشاق الذي يبذله ليل نهار .
فأصدر جريدة اللواء باللغتين الانجليزية والفرنسية ، فأصبحت له ثلاث جرائد
يومية تنشر دعوته الوطنية بثلاث لغات .

ورأى أن دعوته قد فشلت بين المصريين ، وكان يشعر بأن صحته تتدهور
يوما بعد يوم ، فأراد أن يطمئن إلى قيام حزب منظم يحمل اللواء من بعده
إذ سقط في الميدان . وهكذا قرر أن يدعو إلى إنشاء « الحزب الوطنى »
بعد أن رأى ثمار دعوته وقد نضجت في قلوب مواطنيه .

وفي الإسكندرية حيث كان يحب إلقاء خطبه الكبرى ، ألقى خطابا
ضافيا في مسرح زينينيا في ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٠٧ ، وقد سمي هذا الخطاب
« خطبة الوداع . » وقد بلغ عدد الذين ذهبوا لسماعه سبعة آلاف احتشد بهم
المسرح وحديقته والشوارع المحيطة به .

وكانما كان الزعيم الشاب يحس أنها خطبته الأخيرة ، وأنه يلقي إلى
أنصاره بوصاياهم ، فلم يترك جانبا من جوانب القضية الوطنية إلا شرحه وجلاه ،
ورد على كل تهمة وسؤال ، وحدد طريق العمل وأسلوب الفضال ، كل ذلك
في أسلوب متدفق وإلقاء ساحر . على أن أسلوب الخطيب وفصاحته وسحره
وفتنة إلقاءه لم يكن شيئا مذكورا بجانب الشجاعة وإنكار الذات وروح
التضحية والاستهانة بالخطر والمرض والموت ، وهى العناصر التى منها نسج
خطابه وخاط أنوابه .

تحدث عن الاتفاق الودى فكان مما قاله :

— ظن الساسة الانجليز أنهم إذا اتفقوا مع فرنسا على المسألة المصرية طويت أوراق هذه القضية الخطيرة ، وخفت كل صوت ، ومات كل أمل ، وحل اليأس محل الرجاء ، وصار الشعب المصرى أثرا كتلك الأثار القديمة التى يأتى السائحون لرؤيتها فى كل عام . ولكنهم أخطأوا خطأ كبيرا ، لأن العزلة التى صرنا إليها بعثت فينا روحا جديدا أرشدنا إلى الحقيقة التى لا قوام لشعب بدونها ، ولا حياة لأمة بغيرها وهى أن الأمم لا تنهض إلا بنفسها ولا تسترد استقلالها إلا بجهودها .

وتسكلم عن تهمة التطرف التى يرميه بها أعداء الحركة الوطنية فقال .

— نلقب بالتطرفين ! ولماذا ؟ لأننا نطالب بحقوق مصر واستقلالها لأننا نذكر انجلترا بشرفها ووعودها وعودها لأننا نقول لها بصوت الحق والإيمان القوى ، إن المستقبل يكفل لمصر هذا الاستقلال ، وأنه خير لها ألا تقاوم سير الحوادث ؛ والا تحاول إعدام أمة خلقها الله للحياة والعمل . متطرفون .. لأننا نعلن ثقتنا الكاملة بمستقبل بلادنا ، ونقول لهذه الأمة فى الصباح والمساء : اليوم عسر ، وغدا يسر ، اليوم أسر وغدا نحر ، اليوم احتلال وغدا استقلال ، اليوم عناء وشقاء ، وغدا رخاء وهناء . متطرفون .. لأننا نقول للأمة اعملى وحافظى على السكينة . إياك والقلق ! فهى تخدم العدو وتضر بالوطن ، إياك والانقسامات فأنها منشأ الخراب والدمار ، إياك وهوس العداوات الدينية فأنها آفة الآفات وجالبة الحن .

متطرفون . . لأننا نقول للأمة خذى من العلم أوفر قسط وتساحى بأسلحته ، واملاى وادى النيل من نوره ، وردى إلى الفقير حقه ونصيبه من هذا المنهل العذب .

متطرفون . . لأننا نرد تهمة العدو ، ونثبت للعالم كله أننا شعب متمدين ، وأنه ليس للتعصب بيننا وجود ، وأن الاسلام عامل قوى لترقية الأمة ونشر أنوار المدنية فيها .

متطرفون . . لأننا رفعنا أصواتنا محتجين على فظيعة الفظائع في دنشواي ، وعارضنا السياسة الانجليزية في دعاواها ، ووقفنا في وجه أعدائنا والحق سلاحنا ، والصراحة عدتنا ، والإقدام مطبقنا .

متطرفون . . لأننا نمثل مصر للأمم تتدفق حياة ، ونشخصها قوية ناهضة شريفة المقاصد ، أبية لاترضى الذل ، ولا تعرف الكذب والخداع .

متطرفون . . لأننا لا نطلب استعمار بلاد الغير ، ولا استعباد شعب من شعوب الأرض ، بل نقنع بطلب الاستقلال لوطننا .

فإن كنا نعتبر متطرفين لأننا نعلن ذلك كله ، فأكرم بالتطرف ، وباله من نخر أن نلقب بالمتطرفين !

من منكم لا يفخر بأنه متطرف ؟ وأيكم لا يريد أن يكون سائر المصريين متطرفين ؟ وهل يكون الاعتدال في هذه الحالة شيئاً آخر سوى الخوف والجبين والرياء ، واتباع سياستين ، ومخاطبة الناس باسائين ؟

عجبا . . عجبا ! ! أنقلب نحن بالمتطرفين لأننا نطلب استقلال وطننا من أشرف السبل ، وبأقوم الوسائل ، ولا نريد أن نتعداه بالإعتداء على أحد ، في حين أن الانجليز لم يكتفوا باستقلال وطنهم بل استعبدوا الأمم وتوسعوا في الاستعمار وملكوا البحار ، ولا يرال أكثرهم يقول : هل من مزيد ؟

هل يلقبون هم بالعقلاء لأنهم انجليز ، ونلقب نحن بالمتطرفين لأننا مصريون ؟ ! هل الوطنية التي تروق وتعجب هناك ، تؤذى وتؤلم هنا ؟ !

إن من يظن أن الانجليز يحبون الخونة يخطئ خطأ كبيرا . نعم لأنهم يستخدمونهم لأغراضهم ولكنهم يحتقرونهم أشد الاحتقار .

ولقد سمعت من يقول إننى شديد فى تفريع من خالفوا الواجب الوطنى ومالوا عن مصلحة البلاد ، فأجيبهم اليوم بأنه إذا صح التسامح فى بعض الأمور فى ظروف معينة ، فإن التسامح فى الوطنية لإعدام لها وقضاء عليها ، وأن من يتسامح فى حقوق بلاده ولو مرة واحدة يبقى أبدا الدهر مزعزع العقيدة سقيم الوجدان .

وتكلم مصطفى كامل عن حب مصر ووجداتها بهذا الحب الكبير ، ثم تكلم عن أعداء الحركة الوطنية ، وفند مغالطاتهم وحذر منها ، وتحدث عن سيئات الاحتلال ورد على الزعم القائل بأنه أصلح أحوال البلاد وأغناها وملاها عدلا ، واستشهد بما حدث فى دنشواى على بطلان دعوى العدل البريطانى ، وهاجم اللورد كرومر الذى توقع على المصريين فى الخطبة التى ألقاها عندما غادر البلاد .

ثم أشار مصطفى كامل إلى التهمة التى كان يحلو لأعدائه أن يرموه بها لى يوهموا البسطاء بأنه صنيعة تركيا فقال فى صراحة قاطعة :

— رمانا الطاعنون أيضاً باننا نريد أن نخرج الانجليز من مصر لنعطىها لتركيا كولاية عادية ، أى أننا نريد تغيير الحاكين لاطلب الاستقلال . فليعلم أعداء مصر أننا نطلب لها الاستقلال ونطلب لها ذلك الاستقلال بأعلى أصواتنا ، وعلى مسمع من أمم الأرض كلها ، وأننا إذا أخلصنا الود لأمة أو لدولة فإنما نعمل كغيرنا ، ونبتع ناموس الطبيعة القاضى بأن من انفتحت مصالحهم يجتمعون ويتناصرون .

ولا نستطيع أن نلخص ما قاله مصطفى كامل فى هذه الخطبة الجامعة

الرائعة ، وقد ختمها بدعوة الحاضرين وللمواطنين للدخول في الحزب الوطنى الذى كان يتأهب لإعلان تشكيله رسميا .

وقد عقدت الجمعية العمومية الأولى للحزب الوطنى فى ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٠٧ وحضر الاجتماع أكثر من ألف من المؤسسين واعتذرا أكثر من ثمانمائة مع تأييدهم لما يصدر من قرارات .

وافتح مصطفى كامل الاجتماع بكلمة حدد فيها أهداف الحزب وسياسته وقال :

— إننا إذا دعونا الناس للدخول فى هذا الحزب ، لاندعوهم باسم سلطة عالية أو حاكم نافذ الكلمة ، بل ندعوهم باسم وطنيتهم ، باسم شرفهم باسم حقوق وطنهم باسم كرامة الانسان ، باسم ذكريات آبائهم وأجدادهم ، باسم مصالح أبنائهم وأحفادهم .

ووافقت الجمعية العمومية بالإجماع على انتخاب مصطفى كامل رئيسا للحزب مدى الحياة ، فوقف مصطفى كامل وارتحل الكلمات التالية :

— إنكم حملتمونى طول حياتى حملا ثقيلا على كاهلى ، وإنى لأشكر لكم ثقتم بى ، هذه الثقة التى كانت عوننا لى فى كل أعمالى ، وأقول لكم إنكم أنتم قوتى وساعدى يا أبناء خير أمة أوقفت على خدمتها حياتى وقواى وعقلى وقلبى وقلعى ولسانى وصحتى . وكم من صديق قال لى أشفق على صحتك ، ولكن الواجب لبلادى ووطنى ينسينى هذه النصائح الثمينة . فإننا الآن إذا قبلت اختياركم لى رئيسا فإنما لثقتى بان كل واحد منكم أصبح حياتى وشعورى واعتمادى ، بل صار كل منكم فى الشعور الوطنى أكبر من مصطفى كامل .

وكان هذا آخر اجتماع عام شهده الزعيم الشاب .

— ١٩٢ —

وكانت هذه الكلمات آخر كلام له على المنبر .
كان المرض قد حطم كيانه الرقيق ، ولكنه تحامل على نفسه ليشهد
اجتماع تأسيس الحزب ويخطب فيه ، ثم عاد إلى فراش المرض حيث فاضت
روحه الطاهرة يوم ١٠ فبراير سنة ١٩٠٨
وسكت إلى الأبد صوت الخطيب الذي احترق ليضيء لأمته طريق
الحرية والاستقلال .

سعد بن مخلوق

أرغن هام به وجدانها وأذانٌ عشقته أذناها
كل يوم خطبة روحية كالزامير وأنغام لغائها
دلمت مصرا ولو أن بها فلوات دلمت وحش فلاها
أحمد شوقي

سعد زغلول

* * *

إذا كان بعض الناس قد اختلفوا في أمر سعد زغلول ، وعارضه بعضهم في حياته ، فإن أحداً لم يختلف في منزلته كخطيب ساحر ، قادر على الإقناع والتأثير . تلك ناحية يتفق فيها الخصم والنصير ، والمؤرخ والصدیق .

كتب أحد الأدباء من خصوم « سعد » يقول :

« إن كاتب هذه السطور كان من أولئك الذين يعارضون سعداً أوفر معارضة ، ويتميزون من سياسته في إحدى مراحلها غيظاً ، حتى أتيح لي أن أذهب إليه كارهاً في ليلة كان يخطب فيها الجماهير تمجيداً لعيد الجهاد الوطني عام ١٩٢٣ ، فلما أن بدأ يخطب ، دلفت عواطفى المتأججة خصومة إلى الفرار ، ولما أن اكتمل سحره في القول والتوجيه ، رأيت معارضتى له تنال من نفسى مكاناً غير محمود ، وعندما تركت الحفل وددت لو أن الأثير لا يعيد إلى أذنى تلك الكلمات التى فاض بها لسان سعد ، ذلك اللسان الذى لم تبخل المقادير عليه بما فى طوق اللغة أن تؤديه من التأثير . ووددت لو ظل « سعد » طيلة الدهر صامتاً لا يقول ، ساكتاً لا ينطق لسانه ، لأن الفيظ قد أوحى إلى نفسى أن نفوذ سعد قد هبأ له هذا السحر يزجيه من فيه ، فإذا هو لا يزيد فى خصومه وإنما يدفع اليه فى كل خطبة أنصاراً أوفياء . . »

هذه شهادة خصم لسعد ، وإذا كان الغرض الأول من الخطابة هو الإقناع والتأثير ، وكان نجاح الخطيب يقاس بمقدار ما يحقق من هذا الغرض ، فقد كان « سعد » على هذا القياس يبلغ بخطبه من ذرى النجاح ما تنقطع دونه

أنفاس كل خطيب . فقد كان يرسل في نفوس سامعيه تيارا من الجاذبية والسحر ، يهيم على الحاضرين ، فإذا أسماهم وعيونهم وقلوبهم معلقة بشفتيه وكأنما يمسك بيده مطرقة سحرية يضرب بها أوتار قلوبهم فيخرج النغمة التي يريد .

كتبت الأدبية النابغة « حى زيادة » مرة تقول :

« سمعت سعدا متكلا على المنبر ، فأدركت ثمة كيف الوجه العادى يصبح أجمل من الجمال وأوفر إغراء ، وكيف تهزأ حيوية الشيوخ بحموية الشبان فتجرفها جرف العاصفة لأوراق الخريف ، وكيف ينففتح الجفن الكثيف المتهدل عن بؤبؤ العين فينجلي البصر حساما استل من غمده ، وتشيع النظرات أنصلا تشق الصدور ، وكيف يشذ خطيب أحيانا عن أصول الخطابة وهو مع ذلك ينتزع قلبك من بين جنبيك ويمضى يتقاذفه ويلهو به وأنت من نشوتك لا تفريق ، وكيف يرتفع الصوت الخافت ويتعالى ويسود حيث تعصف فيه الأنواء وتزجر خلاله العواصف ، لتتجلى فيه إرادة شعب يقول : أنا . . . إلى موجود » .

* * *

كيف تهيأت لسعد زغلول هذه المقدرة الخطابية التي كانت آيته الكبرى وعده في زعامة هذه الأمة ؟

دخل سعد مكتب القرية ، حيث حفظ القرآن ، ثم تردد على دسوق حيث درس النحو والفقه ، ثم رحل إلى القاهرة حيث دخل الجامع الأزهر ، وثابر على حضور الدروس بين يدي الشيوخ النافعين من أنصار الإصلاح . وتعلمذ

سعد على الإمام الشيخ محمد عبده ، واتصل بجمال الدين الأفغانى واختلف إلى مجالسه .

وعندما عهدت الحكومة إلى الشيخ محمد عبده بتحرير « الوقائع المصرية » وهى الجريدة الرسمية ، اختار « سعد زغلول » ليكون مساعدا له ، وسعى حتى عيظه لتحرير القسم الأدبى بها ، فأصبحت هذه الصحيفة الرسمية ، صحيفة الثورة الفكرية فى ذلك الحين .

وفى تلك الفترة حفر القدر الخطوط الأولى للملامح سعد الخطيب ، إذ أتيت له الفرصة ليتعرف ملامحاته العقلية والبيانية ، ويتجه بها الوجهة التى تلائم مواهبه بالتعبير عنها فى صور الخطابة والبيان . كان يكتب فى صحيفة للجمهور ، ينادى بالإصلاح ، ويدعو للحرية والشورى ، فتعود مخاطبة الجماهير فى مقالات هى فى الواقع خطب مكتوبة ، وشحن بذلك مواهبه التى كانت كامنة فيه . ونقلته هذه الوظيفة من الأزهر إلى الحكومة ، ومن الإمامة إلى الطربوش ومن دراسة العلوم الدينية إلى دراسة العلوم القانونية .

ثم كانت الثورة العربية ، فألقى سعد بنفسه فى غمارها ، فسكرته بنارها ، ولما انقشع غبارها كان قد خسر وظيفته فأقدم على احترام الحمامة .

وكأنما كان القدر يوجه خطوات « سعد » ليهيئه لدوره العظيم . فقد كانت الحمامة أوفق ميدان لشحن مواهبه ، وتمرينه على الجدل الخطابى ، فلم يلبث أن ظهر وبهر ، فاقتاروه قاضيا فمستشارا فوزيرا .

وفى خلال هذه الفترة الطويلة من حياته فى القضاء والوزارة كملت تجاربه ، ونضجت مواهبه ، حتى إذا افتتحت الجمعية التشريعية التى انتخب عضوا فيها

ثم أصبح وكيلا منتخبا لها ، عاد « سعد » الخطيب إلى الظهور ، فإذا هو قوة أزعجت الحكومة . ثم عصفت الحرب العالمية الأولى بالجمعية التشريعية ، وهذا الخطيب العظيم ، حتى إذا وضعت الحرب أوزارها ، نهضت مصر تطالب بحقوقها ، وكان « سعد » الرجل الذي ادخرته الأقدار لتلك الساعة الحاسمة ، فبرزت مواهبه الخطابية المكنونة ، ورأى الناس هذا الشيخ المهيب الذي نيف على الستين ، يتقدم الصفوف ، ويخطب المصريين فيعبر عن آمالهم بفصاحته النارية ، فألقوا إليه قيادهم ، وقد أدركوا أنه الزعيم المنتظر .

وهكذا وصل الخطيب إلى طوره الأخير ، وامتزجت شخصية الخطيب بشخصية الزعيم .

* * *

كانت الطبيعة سخية على سعد ، فخبته كل ما يتمناه الخطيب ليكون بالغ التأثير في سامعيه .

وصفه عباس العقاد في كتابه عنه فقال :

— تراه فترى من النظرة الأولى أنك على مقربة من رجل ممتاز في الصورة كامتياز في الطبيعة . وطلعته تذكرك على الفور طلعة الأسد في بأسه ونبله وجلالة محياه . وليس بين الوجوه الأدمية ما هو أشبه بالأسد في قسماته ومهابته من وجه سعد زغلول . له قامة مديدة ، ووجه أقرب إلى البياض ، ورأس مستطيل في غير ضخامة ، وجبين يميل إلى السعة وينحدر قليلا إلى أعلى ، وعينان ثاقبتان فيهما انحراف قليل نحو اللحاظ ، يطبقهما أحيانا عند الحماسة والغضب فلا تنفتحان إلا بمقدار ما ينطلق منهما الشعاع كأنه سهم نافذ أو إيحاء منوم جبار . وله صدغان ناتئان ، وأذنان بسطاوان ، وأنف مفرج واسع المنخرين ، وفم أهرت الشدقين كما يصف العرب أفواه الخطباء المطبوعين ،

وذقنه من تحت ذلك بارزة في غير حدة ولا استعراض كثير ، تتم ملامح
البروز في ذلك الوجه فيلوح للوهلة الأولى كأنه مفصل من زوايا حديد لامن
اللحم والعظام . يحمل ذلك الوجه عنق راسخ على منكبين عريضين ، وصدر
فسيح أبيض واسع التجويف . أول ما تطالعك من رؤية « سعد » مهابة
بالغة تملأ ما حوله من فضاء . ويكون في المجلس من يكون فيه من كبار أو
صغار ، ومن أقوياء أو ضعفاء ، ومن كثرة أو قلة ، فلا يخطر لك وأنت تغشاه
أن في المجلس أحدا غير سعد زغلول . . »

أما صوته فقد قال عنه كاتب من خصومه :

— « كان صوته قوى النبرات ، فيه سحر وفيه أسر ، وفيه سلاسة وفيه
انسجام ، وفيه جاذبية . وكان إلى ذلك صوتا طيعا لا ينساق عن عى ،
ولا يمتضى عن تلسكو ، وإنما كان الزوبعة حين يهدد ، والعاصفة حين ينطلق ،
والموج حين يدوى ، والفغمة الساحرة حين يستقر . . »

وقال عنه الأستاذ عباس العقاد :

— « صوت رقيق ، لين الوقع على الأسماع ، يخفى فيه الجهد ، ويظهر
الارتفاع الذى يعم أجزاء المسكان ولو كان من أرحب ميادين الخطابة . فهو
صوت مرتفع لا شك في ارتفاعه ، إلا أنك إذا نظرت إلى صاحبه وهو يهدير
بالقول لم تر أوداجا تنتفخ ، ولا ملامح تلتوى وتقبط ، وأحسست بسهولة
القول وسهولة الصوت ، فأحسست بالقدرة التى تلازم السهولة والسيطرة التى
تملك الأسماع ، وليس بعد السيطرة على السامعين من مطعم لخطيب . . »

ووصفه الأستاذ فكري أبازة فقال :

— كان خريج الصحن الأزهرى أبلغ المرتجلين ، حباه الله حنجرة لوجها

للطرب لسكان أبرع المطربين . فيها النغم الطروب والنغم الحزين ، والجرس
الأجش وذو الحنين ، وذو اللين ، وفيها الرعد وفيها الأنين . . تلك كانت
منحة السماء ، وكانت سلاحه في السلم وفي الهيجاء . . »

ووصفه « مكرم عبيد » في خطبة له فقال :

« من منال تلهمه تلك الفصاحة النارية ، ولم يخرق قلبه ذلك الصوت
المتهدج . صوت ذهبي حار ، ذو رنين ورجفة ، رجفة الحماسة القتية لا الشيخوخة
الواهنة . صوت يشترك كل أعضاء الجسم في إخراجه من مكانه ، فتكاد تسمع
فيه أزيز نفسه ، وخفقان قلبه ، وغليان دمه ، وتساقط دموعه . تتفجر من فمه
الالفاظ جارفة قوية واضحة صريحة قاطعة ، رنين التمنون فيها كرنين القضاء المحتوم
ولهجته لهجة القائد الذي تعود أن يفتصر ولا بد أن يفتصر ، وخطابه فصل الخطاب . »

وكان سعد خطيباً هادئ الحركة ، يستوى على منصة الخطابة بقامته
المديدة المعتدلة ، تحيط به مهابة تملأ ما حوله من فضاء ، فإذا تكلم أحسست أن
ستين عاماً من تجارب الزمان تخاطبك على لسان هذا الشيخ المهيب ، وهو
ثابت في مكانه من المنصة كالطود الراسخ ، لا يكاد ينقل قدماً ، ولا يسرف
في حركة أو إشارة ، وإنما هو ذراعه يرفعه أو يمدّه في الحين بعد الحين ليستعين
به على توضيح غرضه . وقد يبسط يده في مواطن التوكيد وينزل بها كأنما هي
سيف يشق الفضاء ، فيقع توكيده من نفس السامع موقع القضاء المبرم . ومع
ذلك فإنك تقنع من سعد بهذا السكون فيزيدك روعة وتبجيلاً ، ويعنيك
بالطلعة المهيبة والنظرة الماضية عن الإفراط في حركات الخطباء الشبان .

هذه صفات « سعد » الخطيب ، فما هي خصائص هذا الخطيب العظيم ؟

* * *

كان « سعد » خطيباً بطبعه وتكوين فكره وملسكاته ، فهو إذا لم يخطب

تحدث كأنه يخطب ، وكان يفضل الأملاء على الكتابة ، لأن الأملاء ضرب من الخطابة . وفي ذلك يقول « سعد » في حديث له مع عباس العقاد :

— إن الكتابة أصبحت تتعبني أكثر من الكلام . أما بياناتي فأنتي إذا أملتيتها كانت كالخطب ، وإذا كتبتها بنفسى استحضرت موقف الخطابة . وهذا هو شأن الخطيب المطبوع الذى تتميزج الخطابة بدمه . وآية ذلك أن سعدا كان يغذى نفسه بالخطابة ، فكان يقف أحيانا فى مستهل حديثه إلى الجماهير متعباً متثاقلاً ، يستأذنهم فى ألا تزيد خطبته على دقائق ، فإذا انطلق وامتزجت بنفسه حماسة الجمهور ، استطالت هذه الدقائق إلى ساعات .

عاد سعد من رحلة الصعيد فى نوفمبر سنة ١٩٢١ متعباً ، وأشار عليه الأطباء بالتزام الدور العلوى من بيت الأمة وعدم استقبال أحد ، فلما حل موعد الاحتفال بذكرى عيد الجهاد فى ١٣ نوفمبر ، ألح فى أن يحضر الاحتفال فسمح له الأطباء على شرط ألا يخطب فيه ، فقبل ذلك . وذهب سعد إلى الحفل بادى الضعف ، وجلس يستمع إلى الخطباء من إخوانه وهتاف الجماهير يدوى فى أذنيه ويتردد صدهاء فى قلبه فيحرك فيه الشوق إلى الكلام ، وإذا به يندفع إلى المنبر ، ويخلع عنه معطفه ، ويلقى كوفيته ، ويرتجل خطبته التاريخية التى دامت أكثر من ثلاث ساعات ، وقد نبى تعبهم ومرضه ، وعاد أتم ما يكون صحة وعافية .

وفى يوم المؤتمر الوطنى الذى تم فيه إئتلاف الأحزاب سنة ١٩٢٦ كان سعد مريضاً ، فلما حان موعد المؤتمر قام من فراشه وذهب إلى الاجتماع يتحامل على نفسه - ولكنه حين أخذ يلقي على المؤتمرين خطبة الإفتتاح ، عادت إليه القوة ، حتى تهامس أولئك الذين كانوا من ساعة واحدة يغالبون دموعهم من الجزع حول فراشه . كانت هذه ظاهرة ملموسة فى سعد ، ولقد روى لى الأستاذ عباس العقاد أن أنصاره المقربين كانوا يعلمون ذلك عنه ، فكانوا إذا وجدوه

ضعيفاً أو متعباً ، حاولوا أن يستثيروه ليتحدث أو يخطب كى تعود اليه قواه...! وروى لى الأستاذ المهندس عبد المجيد بدر أنه ذهب لزيارة سعد فى بيت الأمة مع زميلين من أعضاء اللجنة التنفيذية العليا للطلبة ، وذلك بعد فوز سعد الساحق فى الانتخابات البرلمانية الأولى عام ١٩٢٣ وقبوله تشكيل الوزارة . وكان «سعد» مريضاً معتكفاً فى الدور العلوى، فلما علم بوجودهم ، دعاهم لمقابلته بحجرة نومه . ووجدوه فى فراشه لا يكاد يقوى على الحركة ، ووصيفته الألمانية « فريدا » ترجسوه أن يتناول الدواء ، وهو يصرفها ويأبى أن يتناول شيئاً . وسألهم فى صوت خافت :

— ماذا يقول الناس ؟

وأجاب عبد المجيد بدر بأن الناس يقولون أن سعداً بدأ يوزع الغنائم على أنصاره ، وأن التعيينات فى الوظائف تقوم على المحسوبية . وبدأ « سعد » يتكلم مدافعاً عن تعيين بعض أنصاره فى وظائف البرلمان والحكومة ، ولم يلبث أن جلس فى فراشه ، وأخذ صوته يتعالى وكأنه يخطب ، وعادت إليه الحيوية ومظاهر العافية .

وهكذا كانت نفسه تيجش بالخطابة ، فيةتحرك لسانه بالكلام وكأن قوة لا يستطيع مقاومتها تدفعه إلى الكلام دفعا .

ذلك هو وحى الجمهور يسرى فى الخطيب المطبوع ، وهو ما أشار إليه « سعد » فى إحدى خطبه فقال :

— « ما حيرت الشعر ولكن الشعر حيرنى ! هذا الجمع الكبير ، وهذا الهاتف والتهليل ، كل هذا حيرنى فلا أملك من العبارات ما أستطيع به أن أصف ما يخالج قلبى من عواطف الشكر التى أريد أن أقدمها لكم . لأنى ما وجدت لهذا الجمع عبارة ألقها ، ولكن هذا الجمع يقذف فى قلبى ، ويلقى على لسانى تلك العبارات التى يجرى بها فى . . » .

وهكذا كان سعد يأخذ من جمهوره ويعطيه ، يؤثر فيه ويتأثر به ، وكانت حماسة الجمهور تسرى إلى نفسه فيتدفق بالقول ، فيذكر هذه الحماسة وكأنه يلقي على نارها وقوداً جديداً يزيد اشتعالها ويؤجج لهبها .
وفي هذا المعنى قال « مكرم عبید » في إحدى خطبه :

« إن خطب سعد مظهر من مظاهر عظمته ، فلا تتجلى فيها روحه فقط ، بل روح الجمهور الذي يسمعه . وإن أخطب الخطباء من خطبت الجماهير فيه قبل أن يخطب فيهم . ولم أر في حياتي أقدر من سعد زغلول على التشرب بروح الجمهور واستكشاف شعور سامعيه بقوة غريزية . . . ولذلك نرى أن أكثر خطبه العظيمة قد خطبها على البديهة . وقد قال لي الرئيس مصداقاً لهذا إن أجمل عباراته جاءت به بدهة في أثناء الخطابة . . » .
ويقول « العقاد » في كتابه عن سعد :

— وكان أكثر ما يتدفق في خطبه عندما يتعدى التبادل بينه وبين سامعيه حد الشعور إلى المجاذبة بالكلام . . فإذا سئل ونوقش قليلاً تفتح في القول ، وأخذ من طوابع الملتفين به ما يوحى إليه فنون المقال المناسب لذلك المقام . وكان أسرع ما يكون إلى الإفاضة إذا تسكلم أمامه المتكلمون وأحسنوا التمييز والإلقاء ، فإذا أجابهم بعد ذلك جمع أغراضهم كلمها وتأهب للكلام ، كما يتأهب الفرس الكريم للإيقاض في مجال السباق » .

ولذلك كان سعد زغلول يرتجل خطبه ، ولم يكن يعد منها إلا الخطب الرسمية أو التي تضطره ظروف خاصة لإعدادها . ومع ذلك فقد كان في بعض هذه الأحوال يغلب عليه الارتجال فينحى الورق جانباً ويدفع كاسمیل جارقاً أمامه السدود والقيود .

يقول الأستاذ محمد إبراهيم الجزيري سكرتيره الخاص « كان تعبيره في

الارتجال أقوى من تعبيره في الرواية . وقد لاحظت ذلك كثيراً وصرحت له
به مرة فأجابني :

— صحيح ... أنا أجد ذلك في نفسي .

والواقع أن سعداً كان أبلغ المرتجلين ، تسعفه بديهية حاضرة ، وخاطر سريع
التلمية ، هما عدة الخطيب المرتجل في موطن الحرج .
وما أكثر ما يمكن أن يروى عن بديهية سعد .

حدث أن أقام له الأطباء الذين عاجلوه حفلة قبل مغادرته المستشفى ،
ابتهاجاً بشفائه من الاعتداء الأثيم الذي وقع عليه . وخطب سعد فشكرهم
بأسمائهم ، ثم التفت إلى أحدهم ولم يكن يعرف اسمه فسأله عنه ، ثم قال :
« إني وإن كنت لم أذكر أسماءكم فإن صوركم منقوشة على صفحات
قلبي ، وهي تحوط الرصاصة التي في صدري ، وتحفظني منها . . » .

وحدثني المهندس عبد الحميد بدر عن بديهية « سعد » وحسن تخلصه ، فقال
لأنه ذهب يزور سعداً في بيت الأمة بعد أن تخرج من « مدرسة المهندسخانة »
وعين مهندسا صغيرا في أحد مرافق القاهرة ، وكان سعد رئيسا لمجلس النواب ،
وفي مكتب « سعد » ببيت الأمة وجد عنده المهندس عثمان محرم وزير
الأشغال ، والأستاذ أحمد لطفي السيد ، فلما انصرف عثمان محرم أخذ « سعد »
يثنى على كفاءته كمهندس رى ، ويقول إنه يعرف كل ترعة ومسقى وقنطرة
في البلاد كلها . وكان « سعد » يتجه بحديثه إلى عبد الحميد بدر ، فقال له
لطفي السيد معاتباً ومداعباً :

— ما هذا يا باشا . . . أنا أفهم أن تزكى المهندس الصغير لدى الوزير ،
لأن تزكى الوزير لدى المهندس الصغير .

ولم يظهر الحرج على « سعد » لهذه « القفشة » التي تبدو في محلها، ولكنهم
ابتسم وقال على الفور مخاطباً لطفى السيد:
— علمت شيئاً وغابت عنك أشياء .

وسأل لطفى السيد :

— وماذا غاب عني ؟

وقال سعد :

— غاب عنك أن عثمان محرم نائب عن دائرة دسوق ، وأن عبد المجيد بدر
ناخب في نفس الدائرة ، فأنا أذكرى النائب لدى الناخب ، ولا أذكرى الناخب
لدى النائب .. !

* * *

كان سعد زغلول يتدفق بالكلام المرتجل فيلهب الحماسة ويخالب الألباب،
فإذا قرأت كلامه بعد ذلك أدهشك أنك لا تقع فيه على عبارة جاحضة أو كلمة
نايبة أو منطق سقيم . وإنما هو الكلام للوزون والأحكام المسببة كأنما هو
سلسلة من القضايا المنطقية يخاطب بها العقل قبل أن يثير الشعور .

استمع إليه يخطب في وفد مدينة طنطا الذي سعى إلى بيت الأمة يهنئته
بالعيد في ٨ يونية سنة ١٩٢١ ، فيقول في ختام كلامه رداً على اتهامات
حصوله :

— يقولون إن لنا أغراضاً شخصية . ولكن ماهي هذه الأغراض؟ أن نطلب
مالاً وعقدنا منه والحمد لله الكفاية؟ أم نطلب مناصب وقد عرضت علينا الوزارة
فرفضناها؟ أم نطلب جأها وقد أنزلت الأمة الضعيف المائل أمامكم منزلة لم يحام
بها حالم؟ ليس لنا غرض إلا المصلحة العامة ، وهي فوق كل شيء ، وليس لنا
إلا عامل واحد هو الإخلاص للوطن . . . »

واستمع إليه يقول في خطبة مريحة وهو رئيس للوزارة :

« إن حرية كل واحد منكم محدودة بحرية غيره ، فكل فرد حر في أن يفكر ويتكلم ويكتب ، بشرط ألا يسب ولا يشتم . وقد نص الدستور على ذلك بقوله إن الحرية مكفولة في حدود القانون . أنا لست رئيس حزب ، ولكني وكيل أمة ، قلت ذلك مراراً ، وكررتة تكراراً . قلته عقب خروجي من منفى ، وقلته بعد عودتي منه ، وسأقوله دائماً وأعمل به ، فلا أحابي شخصاً لمبدئه السياسي ، ولا أتعرض لآخر لآرائه السياسية . ولكني أحسن لمن يعمل لمصلحة الوطن وأنكل بمن يسئ إليه ، فمن عمل صالحاً فلنفسه وللأمة ، ومن أساء فعلياً لائم ما فعل . ولو أكرم ابن سعد لحقت عليه كلمة العقاب .. »

وفي هذين المثالين نسمع سعداً يرتجل كلامه وكأنه يلقي طائفة من القضايا المنطقية ، وهو مع ذلك يلهب به الشعور ويشعل حماسة الجمهور .
ويقول الأستاذ العقاد في ذلك :

« قد لا تعجبك من كل قائل تلك الكلمات الموزونة ، والأحكام المسببة والقضايا المقيسة ، ولكنك إذا وقع من نفسك توكيده موقع القضاء المبرم ، واشتعلت في نفسك شدته كما يشتعل الحريق المضرم ، واطمأنت بك عظمتة اطمئنان الطود الأعظم ، فهناك ليست الكلمات الموزونة كلمات موزونة ، وليست الأحكام المسببة أحكاماً مسببة ، وليست القضايا المقيسة قضايا مقيسة ، بل هي عاصفة جارفة ، كأقوى ما تكون المبالغة في اجتراف السامع ، وكأضنى ما تكون العرصات الجامحات في خروجها على المنطق والتحليل والتعليل ، لأنها قطعة من نفس قوية انتقلت إليك ، فنقلت معها القوة كما هي في جوانح صاحبها ، فلا حاجة بها إلى مبالغة المبالغين ولا جموح الجاهلين .. »

والواقع أن سعدا كان يجمع بين خصلتين قلما تجتمعان لخطيب . كان يجمع بين القدرة على الاقتناع ، والقدرة على إثارة الحماسة والشعور ، فهو في خطبه وكلامه يخاطب العقل والشعور جميعاً . لهذا كان « سعد » خطيباً شعبياً ، كما كان خطيباً برلمانياً . كان بشخصيته الساحرة وروحه القوى المشتعل ، وبلاغته المتدفقة خطيباً شعبياً يعرف كيف يلهب شعور الجماهير . وكان بقوة عارضته وبراعة تدليله وروعة منطقته خطيباً برلمانياً ممتازاً ، يعرف كيف يهجم ويدفع ، ويجادل ويقنع . ولا يتسع المجال لدراسة مفصلة نستعرض فيها مواقف « سعد » الخطابية في الجمعية التشريعية عندما كان عضواً فيها ووكيلاً منتخبا لها ، أو في البرلمان الحديث بعد إعلان دستور سنة ١٩٢٣ ، فهذا حديث يطول ، وتضييق عنه هذه الصفحات . وما أذكر كثير المواقف الرائعة الجديرة بالتسجيل في حياة سعد البرلمانية . وحسبنا أن نذكر هنا بعض المواقف التي تتمثل فيها خصائص « سعد » الخطابية التي أشرنا إليها .

دخل « سعد » البرلمان الأول في سنة ١٩٢٤ رئيساً للوزارة الدستورية الأولى ، وتقدم إلى البرلمان بخطبة العرش شارحاً برنامجه وزارته . وقد جاء في هذه الخطبة إن الحكومة مستعدة للدخول مع الحكومة البريطانية في مفاوضات حرة من كل قيد لتحقيق الآمال القومية بالنسبة لمصر والسودان . ولم تلبث الأندية الخاصة والعامة أن امتلأت بالمناقشات في خطبة العرش ، وأخذ بعض الناس يشككون في معانيها ، وقال خصوم « سعد » إنه قد فترت حماسته بعد أن تولى الحكم ، فلم يعد يذكر الاستقلال التام لمصر والسودان بصراحة المعهودة . ووجدت هذه الأحاديث صدى لها بين الشيوخ ، فإذا بلجنة الرد على خطاب العرش تضع مشروعا للرد يتضمن تفسيراً لعبارتين في الخطاب . وكان سعد قد أعلن في أحاديثه وخطبه قبل ذلك عندما شاعت تلك الأقاويل أنه

إذا قرر النواب تعديلاً في خطبة العرش ، فإنه يعتبر ذلك طبقاً للعرف الدستوري عدم ثقة بالوزارة يفرض عليه ترك الحكم . وجاء « سعد » إلى مجلس الشيوخ في جلسة ٢٤ مارس ١٩٢٤ لمناقشة مشروع الرد على خطاب العرش ، وتلى مشروع اللجنة الذي يتضمن تفسيراً للعبارة التي ذكرناها . وتكلم بعض الأعضاء في الموضوع ، ثم وقف « سعد » ليدافع عن خطاب العرش ، فألقى خطبة تتمثل فيها تلك الخصائص التي ذكرناها .

بدأ كلامه يخاطب عقول الأعضاء ، فشرح لهم وجهة نظره بأسلوب منطقي ، حتى إذا اطمأن إلى أنه وصل من إقناعهم إلى ما يريد ، ألقى إليهم ببعض الجمل المشتعلة ليثير شعورهم بعد أن أقنع عقولهم ، فإذا به يلهم جو المجلس ، وإذا الأيدي تتحرك بالتصفيق ، وإذا الحناجر تنطلق بالهتاف معلنة انتصاره في معركة الأولى للمجلس .

قال سعد في خطبته :

« أيها السادة . . . إني لا أريد في هذا الموقف أن ألقى خطاباً سياسياً ، ولا أريد أن أبين غامضاً في خطبة العرش ، فإن خطبة العرش قد تليت عليكم يوم افتتاح المجلس ، فصفتكم لها تصفيقاً حاداً في أكثر من موضع ، وكانت أول جملة صفتكم وهتفتكم لها هي الجملة التي يدعى بأنها مبهمه ، وهي الدخول في مفاوضات حرة من كل قيد ، بقصد تحقيق الأمان القومي بالنسبة لمصر والسودان ، وأن المعنى الذي فهمتموه في ذلك الوقت ، والذي استفزكم للتصفيق والهتاف ، هو المعنى الذي قصدته الوزارة من تلك الجملة .

أريد أن أقول إننا نحن الوزراء لسنا أجنب عنكم . نحن قسم من البرلمان تخصص لتنفيذ أفسكاره وآرائه والتعبير عنها . فالوزارة في خطبة العرش تعبر

عن أفكار البرلمان وآرائه ، فإن كانت أحسنت التعبير عنها فيها ونعمت ، وإن لم تسكن فد أحسنت التعبير ، فالبرلمان يرد بما يدل على أنها لم تحسنه . . وهذا الرد قد يكون تعديلاً ، وقد يكون تفسيراً ، وقد يكون تأويلاً ، وكل هذه عبارات معناها أن الوزارة التي تولت وضع هذا الخطاب وتولت التعبير عن أفكار البرلمان ، قد أساءت التعبير عنه ، فإذا كان الأمر كذلك ، فالوزارة التي تخصصت للتعبير عن أفكار البرلمان وتنفيذ آرائه لا يمكنها أن تبقى بعد هذا في مراكزها .

ثم يفيض « سعد رغول » متابعاً هذه السلسلة من القضايا المنطقية فيقول :

«التفسير المراد إدخاله إما أن يكون مفهوماً من الخطبة أو لا يكون مفهوماً منها . فإن كان مفهوماً منها فهو عبث محض . لأنه إذا كان كل قارئ للخطبة يفهم منها ما يفهمه من التفسير ، فإذاً لا حاجة للتفسير ، وأما إذا كان لا يفهم منها المعنى الذي يراد تفسيره ، ويراد أن يلقي في ذهن السامع أو القارئ شيء جديد ، فهذا مالا تقبل معه الوزارة البقاء ، لأنه سيكون بمثابة لطمة لا تتحملها وزارة أجهدت نفسها في وضع المبادئ وتحرير المعاني لخطبة العرش .

نبشوني يا حضرات الأعضاء . . . أخبروني . . . ما الذي يراد بالأمانى القومية ؟ .

هل فهمتم من الأمانى القومية معنى آخر غير الاستقلال التام ؟

الأمانى لغة جمع أمنية ، والأمنية هي ما يتمناه الإنسان ، والقومية نسبة للقوم ، والقوم هم المصريون ، والمصريون ما الذى يتمنونه ؟ يتمنون الاستقلال (م ١٤ — خطباء)

التام . وإذن فالأمانى القومية هى عبارة عن الاستقلال التام لمصر
والسودان . .

إن كان للأمانى القومية معنيان ، معنى هو الاستقلال التام ، ومعنى
آخر أقل من هذا الاستقلال ، كنت أفهم لهذا التفسير معنى . . ولكن إذا
لم يكن هناك تعدد فى المعنى ، وكانت العبارة لا تدل إلا على معنى واحد هو
الاستقلال التام ، فأنا لا أفهم معنى لتفسير هذه العبارة إلا الرغبة فى إرضاء
الخصوم ، فهل ترضون بذلك ؟ إننى لا أقبل على شرفى وشرفكم أن نتطوح
إلى هذا الحد ، فتجرح كرامتى إذا كنت أقبل تفسيراً لكلمة واضحة ،
خصوصاً على يد مجلس اعتمد على ثقته فى إدارة شئون البلاد . كيف أقبل أن
اشترك فى عمل مع مجلس يضمن على بلفظة ، ويقول لى رغماً عنك ، وإرضاء
للخصوم ، أفسر كلامك مع كونه واضحاً ؟ أنا لا أقبل ذلك مطلقاً ، فالواقف
بين أيديكم هو الذى يصيح ، صباح مساء ، مطالباً بالاستقلال التام لمصر
والسودان . . .»

ثم مضى الخطيب العظيم يمزج المنطق بالحماسة بعد أن ملك زمام الموقف ،
ويقول :

« ما هى خطبة العرش ؟ إنها الخطة السياسية التى تجرى الوزارة عليها .
هذه الخطة السياسية معروفة أيها السادة ، فقد كتبت بدماء الشهداء ، ونقشت
على قلب كل مصرى ، وهى السعى للحصول على الاستقلال التام لمصر
والسودان . هذه هى الخطة التى جرت الوزارة عليها قبل أن تتولى الحكم ،
وبعد أن تولته . إنها خلاصة للخطب التى سمعتموها ، والمقالات التى قرأتموها
والبيانات التى شرت عليكم . فهل يخطر فى بال أحد أن الوزارة تريد أن
تتلاعب بالأفهام ، وأن تغمص وتبهم لكى ترضى قوماً على حساب مصالح

الوطن ؟ كلا وألف مرة كلا ! إني أشكر اللجنة على أنها قالت إنها واثقة كل الثقة بالوزارة ، أشكر اللجنة وحضرة المقرر ، ولكفى أرجوه وحضرات إخوانه أن يلتفتوا إلى أن هناك فوزاً أجدر منه وأليق ، وهو التصديق على خطبة العرش دون تفسير .

ثم التفت إلى مقرر اللجنة وهو يختم كلمته قائلاً :

« تقول إنك واثق بي ولستكن تأتيني بما يرضى خصوصي ، وتقول كما يقول الخصوم ؟ تقول إني واثق بالوزارة ولستكني أطلب التعديل ؟ الوزارة لا تحتل هذا ولا يمكنني باعتباري وطنياً ، ورئيساً للحكومة ، ومعتقاً للمبادئ الدستورية ، أن ألمح ولو من بعيد أن هنالك عدم ثقة مهما غُطيت ، ومهما لفت ، ومهما سُتِرت . لا يمكنني بعد هذا أن أبقى دقيقة واحدة في منصة الحكم . . . » .

بهذا الأسلوب المنطقي كان « سعد » يرتجل خطبه في البرلمان ، بل كان هذا طابعه حتى في أشد خطبه إثارة للحماسة . ولقد أدلى في عام ١٩٢٤ بحديث إلى مراسل إحدى الصحف البريطانية ، قال فيه للمراسل :

« اقرأ جميع خطبي تجد أنني لم ألق كلاماً على عواهنه ، بل جعلت لكل كلمة مستنداً ، فقررت وقائع وقدمت أدلة » .

وهذا هو رأي سعد في خطبه ، لا يلقي الكلام على عواهنه ، بل إن أشد خطبه اشتعالاً وأعظمها توهجاً وإثارة للحماسة ، تثبت بعد ذلك للتحليل المنطقي والقراءة الهادئة .

حدث في أثناء نظر الميزانية أن تكلم أحد المعارضين محتج على عدم تقديم ميزانية مفصلة المبلغ الذي تدفعه الحكومة للسودان . وقامت بينه وبين

سعد زغلول رئيس الوزراء مناقشة قرر فيها سعد أنه يوافق العضو المعارض على اعتراضه ولكنه لا يملك إجابته لأن ميزانية السودان تضعها حكومة السودان التي لم تقدم ماطلبته الحكومة المصرية من بيانات في هذا الصدد ، وقرر أنه يأمل أن تحل هذه المسألة بالمفاوضة مع الحكومة البريطانية ولكن النائب المعارض أخذ يطعن في مبدأ المفاوضة ، ويطلب من الحكومة أن تجد طريقة أخرى . وطالت المناقشة بينه وبين سعد على غير طائل ، فقام « سعد » وارتجل خطبة قال فيها :

— يراد منا أن نقدم ميزانية السودان ، ونحن لم نضع له الميزانية ، بل السودان هو الذى يضع ميزانيته ، فنحن لا نستطيع أن نقدمها لأنها ليست تحت يدنا ولم نضعها . وأنا أقول بأنه كان يجب أن تكون ميزانية السودان معنا ، وأن نكون نحن واضعيها ، ويجب أن نسعى لذلك ؛ وأنا ساع له ، ومعتمد على قوة الأمة وعلى حقها في هذا ، ولدى الأدلة القاطعة والحجج القوية . ولكن لمن أقدمها ؟ الحضرتك . . . ؟ ! نحن نريد حقوقنا ، وأمامى طريق مفتوح أريد سلوكه لأصل إلى غايى ، ولكنك لا تريد ذلك .

فماذا أصنع إذا كنت تطلب ميزانية السودان ، وتمنعنى فى الوقت نفسه من مخاطبة واضعى اليد عليه . . . ؟ ! إما أن تتبع طريقي وإلا فدلنى على خير منها . أما أن تطلب منى أن أفعل شيئاً ولا تدعنى حراً فى أن أسلك الطريق الذى أراه موصلًا لما تريد ، فذلك فوق مقدورى . وإن أردت أن تطاع ، فمر بما يستطيع . . . »

وبعد أن أفاض « سعد » فى هذا المعنى بهذا الأسلوب المقتضى ، الذى خاطب به عقول الأعضاء ، عاد يخاطب عواطفهم ، ويستثير شعورهم ، ويقول :

« المسألة جد لا هزل ، وعمل لا كلام . نحن هنا نتحمل مسؤولية كل أمر نقرره ، فيجب علينا قبل أن نصدر قراراً في هذه المسائل الهامة أن ندرمها وألا نطيع الهوى ، بل نستشير العقل والحكمة . فـ فكر في ذلك جيداً ولا تسع لإحراجي ، لأنني لا أريد إلا ما تريده الأمة ، فإذا أخرجت زغولاً فقد أخرجت الأمة . أجل . . إنني لا أسعى في سياسة غير سياسة الأمة ، والذي يرشدني ويدفعني إلى ذلك صوت في ضميري صرخ قبل أن يصرخ في قلب أي إنسان ، وهذا الصوت يناديني دائماً للقيام بالواجب . اختر لك أحد أمرين إما أن تأمرني بالمفاوضة أو لا تأمرني . وفي الحالة الأخيرة يجب عليك أن تترك السودان وتكتفي بأن نتكلم معاً . . . إنني أيضاً أعرف الخطيئة والألفاظ المنمقة ، كـ تقوية إيمان الأمة ، وعدم توجيه مجهوداتها للخيال ، أستطيع أن أقول كل ذلك وزيادة ، وأنا أخطب منك . . » .

ثم ختم خطبته بهذه العبارة المشتعلة التي أثار بها عاصفة من التصفيق والهمتاف :

نحن في مرا كـ زنا لا ندين بها إلا للأمة ، ولا نخشى إلا صوتها ، فإن رأيتم فينا إعوجاجاً فقوموه — لا بالسنتسكم — بل بـ سيموفسكم .

* * *

كانت في سـ مد فكاهة حاضرة على البديهة ، يستمعين بها أحياناً في خطبه ، فتكون كما يقول « العقاد » نوعاً من المنطق المختصر ، لا فرق فيه بين النكتة اللاذعة والحجة الصادقة .

كان يحطّب في نادى « سيروس » ، وتحدث عن نصريخ ٢٨ فبراير الذي اعترف فيه الانجليز باستقلال مصر مع تحفظات أربعة تهدر هذا الاستقلال ،

فشبهه التصريح والتحفظات بالذاقة التي وضع صاحبها في رقبتها خذاء ثم مضى بها إلى السوق . وكانت الفاقة جميلة قوية ، فأراد أعرابي أن يشتريها ، فقال له صاحبها إنها بغير الخذاء المعلق في رقبتها تساوى ديناراً واحداً ، ولكنهما مع الخذاء تباع بألف دينار . ولما كان الأعرابي إنما يريد الفاقة دون الخذاء فقد عرض ذلك على صاحبها الذي قال له إنه لا يبيع الفاقة بغير الخذاء ، فقال الأعرابي متحسراً :

— والله إنها للمليحة . . لولا الملعونة في رقبتها . . !

قال « سعد » ذلك ثم ضحكك ، فدوى المكان بتصفيق السامعين وضحكهم . ولقد يذكر الذين حضروا هذا الحفل أنه عندما هدأت عاصفة الضحك والتصفيق ، وسكت الناس ، كان أحد المستمعين ما يزال مسحوراً بضحكة سعد ، فما كاد « سعد » يعود إلى الكلام حتى وقف يصيح في عصبية حادة :

— الله يا باشا . . دا أنت ضحككتك حلوة . . حلوة قوى !

وهذا هو أثر « سعد » في سامعيه . هذا الأثر الذي جعل فلاحاً من قنا يبكي وهو يسمعه يخطب في الاحتفال بعيد النيروز ، ثم أفاق لنفسه وهو شيخ لم يتعود البسكاء ، فطفق يعجب لنفسه ويسال من حوله .

— لماذا أبسكى ؟ أمات أبى ؟ أمات أمى ؟ أغرقت مرا كبرى ؟ أأجذب زرعى ؟ وما هذا الرجل بيسكىنى ؟ أساخر هو ؟ أفاتن هو ؟ والله لا أدرى . وكانت اسعد قدرة كبيرة على إرسال جملة واحدة تحمل من المعاني ما تحمله الخطبة الكاملة .

كان يرتجل هذه الجمل الحاسمة ، الزاخرة بالإقناع والتأثير ، فلا تلبث أن تصبح من الجمل الماثورة في أفواه الناس .

وقف بخطب في ٢٥ أبريل ١٩٢١ ، وكان الخلاف قد وقع بينه وبين حكومة عدلى يكن بشأن رئاسة وفد المفاوضات مع الانجليز . وكان « سعد » يرى أن تكون له رئاسة الوفد ، باعتباره الوكيل عن الأمة التي اختارته للتحديث باسمها والمطالبة بحقوقها . أما الحكومة القائمة في ظل الحماية البريطانية والتي لا تستطيع الاستمرار في الحكم إلا برضاء الحكومة البريطانية وموافقتها ، فانها لا يمكن أن تمثل الشعب المصرى في مثل هذه المفاوضات .

أراد « سعد » أن يصور هذه المعانى كلها ، فاختص حججه في جملة واحدة عندما قال « جورج الخامس يفاوض جورج الخامس . . »

ووقف بخطب في الحفلة التي أقيمت لتكريم « صادق حنين » عندما فصلته وزارة « عدلى يكن » في تلك الأيام بسبب تأييده لسعد ، فاستهل كلامه قائلاً :
— لا أقول اصادق حنين إلا كلمة واحدة : كفالك شرفاً أن فصلتك الوزارة العدلية . . !

وقال في إحدى خطبه مشيراً إلى وزراء ذلك العهد :
— « لترك هؤلاء الفقر المساكين المسجونين في سجون وظوائفهم ، فأنهم ليسوا أهلاً لخصومتنا . »

وكان في مكتبه يوماً بيت الأمة وعلم ان رجال الشرطه يضربون الوفود الهاتفية ، فخرج إلى الشرفة مفضباً كاللايث انتهك عرينه ، فرأى بعض الضباط المصريين يحملون العصي ويطاردون الناس في فناء البيت ، فصاح فيهم قائلاً :
— « أقسم بالوطن وعزته لو تركتم وشانكم لسكنتم لفا لا علينا »

فترأخت أيديهم وألقوا عصيهم وانسحبوا من الدار .
هذا هو سعد الخطيب . وصفه الكاتب الأديب أحمد حسن الزيات فقال

—٢١٦—

— لم ير التاريخ المصرى بل الشرق قبل سعد خطيباً بليل اللسان ، ندى
 البصوت طلق البديهة ، دامغ الحجة ، حافل الخاطر ، رائع البيان ، أنيق اللهجة
 حسن السميت ، يزواج بين المنطق والشعر ، ويعاقب بين الأقماع والأمتاع ،
 ويرأوح بين الجد والهزل ، ويتصرف فى فنون القول تصرف الشاعر بركة
 الأسلوب ، والفيلسوف بدقة الفكر ، والموسيقى بجمال الأيقاع ، وكل ذلك فى
 هالة من الشخصية المهيمنة الجذابة تساعد بلاغة اللسان والعين واليد بشعاع إلهى
 باهر ، ينفذ إلى النفوس المتكبيرة فتتضع ، وإلى الأذهان المتكبيرة فتتدمع ،
 وإلى القلوب اللينة فتتمايع .

خطباء الحروب

« إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين . . »
قرآن كريم

خطباء الحروب

قد يبدو للنظرة العابرة أن الخطابة ليس لها موضع في الحروب ، حيث الكلمة الأخيرة للقوة ، وحيث لا تسمع إلا أصوات القذائف تحمل الهلاك والدمار ، وحيث :

السيف أصدق إنباء من السكتب في حده الحد بين الجد واللعب ولكن الواقع أن للخطابة قديما وحديثا أثرها الكبير في الحروب ، فهي الوسيلة الأولى لبث الحماسة في نفوس المقاتلين ، وتقوية الروح المعنوى ، وهو أمر ضرورى لكسب الحرب .

أما في الزمن القديم ، حيث كانت الحروب أقل تعقيدا وأبسط أسلوبا ، إذ كانت النجاما بين جيوش محدودة العدد ، في رقعة محدودة من الأرض ، يحمل كل فريق أسلحة متماثلة من سيوف ورماح ونبال ، فقد كان للشجاعة أثر حاسم في الفصر ، لأن المقاتل لم يكن يخوض المارك داخل دبابة أو مصفحة ، ولم يكن يصيب عدوه وبينهما المسافة الشاسعة ، وإنما كان يلقيه وجهها لوجه فيكون بينهما نزال وصراع ، الغلبة فيه للسكى الشجاع .

وفي تلك الحرب لم يكن القواد يديرون المارك من مكابهم وراء خطوط القتال ، بل كانوا ينزلون مع جيوشهم إلى الميدان ، ويشاركون في القتال ، فكان اتصالهم لذلك مباشرا بالجنود . وكان من المألوف أن يخطب القائد جنوده قبل المعركة ليشعل فيهم نار الحماسة ، لأن الجندى القوى الروح الذى يؤمن بالفكرة التى يحارب فى سبيلها أقدر على الحرب من سواه .

وقد حفظ لنا تاريخ الحروب القديمة الشواهد التى تؤكد هذه الحقيقة ،

كما حفظ لنا كثيرًا من الخطب الرائعة التي خطبها القواد ، والتي أصبحت جزءاً من تاريخ تلك الحروب .

وحسبنا من تلك الشواهد شاهد واحد مما نعلمه عن حروب المسلمين في صدر الأسلام . فقد قهر المسلمون بجيوشهم القليلة الفرس والروم ، وبسطوا سلطانهم على الشام ومصر وشمال أفريقيا ، ثم عبروا البحر إلى الأندلس ، وكونوا أمبراطورية ضخمة امتدت من الهند إلى فرنسا ، وكان أكبر عامل لهم على النصر هو ذلك الإيمان القوى ، وتلك الحماسة الدينية التي كانت تدفع بالجندي منهم إلى القتال وهو يتمثل بقول الشاعر

ولست أبالي حين أقتل مؤمنا على أى حنب كان في الله مصرعى

كانوا يؤمنون بأنهم جنود الله ، يحاربون في سبيل دينه ، فسكانوا يقبلون على القتال وهم يؤمنون بأنهم فائزون على كل حال ، فن عاش وانتصر فله الفتيمة والفخر ، ومن استشهد فله الجنة ، فكانت جيوشهم القليلة العدة والعدد تفتصر على الجيوش الجرارة التي تساق إلى الحرب وليس لجنودها ما للعرب من حماسة وإيمان . وصدق الله تعالى حين يقول في كتابه الكريم « إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون » هكذا كان يحارب الجندي المؤمن ، الذي تمتلئ نفسه بالقوة ، وتفويض حماسة وإيمانا . ولقد كان لخطب القواد أثر كبير في إشعال هذه الحماسة . فهذا خالد بن الوليد ، سيف الله المسلول ، اعتاد أن يخطب جنوده خلال المعارك . هذا هو يقف بين الصفوف التي كانت تتأهب للاتحام بالروم في فلسطين ويخطب قائلا :

— أيها الناس

« انصروا الله ينصركم ، وقاتلوا في سبيل الله ، واحتسبوا أنفسهم في سبيل الله ، وأصبروا على قتال أعدائكم ، وقاتلوا عن حريمكم وأولادكم ودينكم . واعلموا أن ليس لكم ملجأ تلجأون إليه ، وممكن تكمنون فيه . فأقرنوا المفاكب ، وقدموا المضارب ، ولا تحملوا حتى آمركم بالحملة . ولتكن السهام مجتمعة إذا خرجت من القسي كأنها تخرج من كبدة قوس واحد ، فإنه إذا تلاحقت السهام رشفاً كالجراد لم يخل أن يسكون فيها سهم صائب » . . . إلى آخر ما قال .

وهذا طارق بين زياد يعبر البحر إلى أسبانيا عند الصخرة التي سميت باسمه ، ثم يقف في جيشه خطيباً ، فيلقى على جنوده خطبته الشهيرة التي يقول في أولها :

— أيها الناس —

أين المفر ؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر . واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مأدبة اللثام .

وهل ننسى الحرب الصليبية التي شغلت القرن الثاني عشر ، لقد كان الخطباء من رؤساء الأديان هم الذين يشبهون نارها ، ويذكرون أوارها ، بخطبهم التي كانت تدفع إلى التعصب الديني ، حتى لقد روى أن القديس برنار ، وكان خطيباً بارعاً ورئيساً لأحد الأديرة في فرنسا ، كان إذا نزل ببلدة ليخطب فيها أخفى الأمهات أولادهن ، والزوجات أزواجهن ، خوفاً من إغراء الخطيب لهم بالتطوع ، لأنه كان إذا خطب في الحضر على قتال المسلمين امتلأت قلوب سامعيه .

ولسكن ما هو أثر الخطابة في الحروب الحديثة ؟

لأشك أن أسلوب الحروب قد تغير تغيرا كاملا ، فأصبحت الجيوش تحشد بالملايين ، وساعد العلم الحديث على ابتكار الوسائل الجديدة ، فعرف عصرنا الحرب الميكانيكية التي تعتمد على الدبابات والطائرات والصواريخ ، وفضعت الصلة المباشرة بين القائد وجنوده ، لأن القائد يدير المعارك بوسائل العلم الحديث وهو جالس في مقر قيادته بعيدا عن خطوط القتال . وقد لا يرى الجندي قائده إلا مهبورا في الصحف . ومع ذلك فإن الخطابة في الحروب الحديثة أثرها الملحوظ ، وأن تغير أسلوبها تبعاً لتغير أسلوب الحرب وظروفها . ولما كان من المستحيل أن يجمع المحاربون في مكان واحد ، فإن الجنود تسمع الخطاب مذاعة بالراديو ، وتتلقى النداءات الحماسية في شكل أوامر يومية . وليس بالنادر مع ذلك أن يستعرض القائد بعض الفرق جنوده ويلقى عليهم خطبة يسمعونها ويقرؤها زملاؤهم في النشرات . إن المدفع في حاجة إلى رجال يقومون عليه ، والدبابة تتطلب رجالاً يوجهونها ويستخدمونها ، وكل آلات الحرب وأدواتها لا تعمل وحدها ، فلا بد لها من جنود ، وبقدر شجاعة هؤلاء الجنود وحماستهم يسكون أثرها حاسماً فعلاً .

وهذا هو رأى أحد أبطال الحرب العالمية الثانية . فقد وقف القائد الشهير « مونتهجومري » في إحدى مدن إيطاليا يودع الجيش الثامن قبل سفره إلى بريطانيا ليتولى قيادة الجيوش البريطانية المعدة لغزو أوروبا ، فكان مما قاله في خطبته :

— وإذ سألتهموني ما هو العامل الجوهرى الأول للانتصار في الحرب ، فأنى أقول لكم إنه العامل البشرى إذ يجب أن نذكر أن الدبابات والسيارات المدرعة أو البوارج ليست هى التى ستكسب هذه الحرب ، بل هم الرجال الذين يحر كونها ، وهذه الحقيقة مهمة جدا ، فإن العامل البشرى هو المحور الذى يدور حوله كل شئ . »

هذا هو مقاله « مونتيجورى » ، فإذا كانت حالة الجنود المعنوية وشجاعتهم عاملا مهما في النصر : فإن الخطابة في صورها المختلفة أهم وسيلة لبث الشجاعة وإثارة الحماسة في نفوس الجنود .

ومن ناحية أخرى فإن ويلات الحرب الحديثة لم تعد قاصرة على الجنود في ميادين القتال ، بل شملت المدنيين من غير المحاربين في بيوتهم ، وأصبحت المدن والقرى في خط النار الأول ، بعد أن حملت الطائرات والصواريخ إليها الموت والدمار بالليل والنهار . لذلك كان من الضروري الاحتفاظ بالقوة المعنوية للأهالى المدنيين أيضاً ، والا انهيار الشعب قبل أن تنهار الجيوش في الميدان . وهنا يبدو الدور الهام الذى تلعبه الخطابة في الحروب الحديثة . وقد عرفت الحكومات لها هذا الخطر ، فأنشأت وزارات خاصة للدعاية والأعلام ، وسمعنا نوعا آخر من الخطب الحربية ، تلك التى يلقها الساسة والزعماء يستنفرون بها شعوبهم للحرب ، ويثنون فيهم القوة على احتمال ويلاتها . وهل ينسى أحد الأثر الذى كان لخطب ونستون تشرشل ، رئيس وزراء بريطانيا خلال الحرب العالمية ، في الحالة المعنوية للشعب البريطانى ؟ إننا مازلنا نذكر تلك الخطب الرائعة فى الأيام العصيبة التى تلت انهيار فرنسا ، عندما وقفت بريطانيا وحيدة فى الميدان ، وهتلر يرسل إلى سمائها مئات من طائراته أفواجا متعاقبة تمطر المدن الآمنة بالقنابل ، فتقتل المدنيين وتنتشر الدمار ، وزعيم ألمانيا النازية يهدد بمحو المدن البريطانية من الوجود ، ويلوح فى الوقت نفسه للشعب البريطانى بنفن الزيتون قائلا إنه ييسط يده للشعب البريطانى لأنه لا يرى معنى لاستمرار هذه الحرب . ولعله كان يقصد بذلك إلى تحطيم روح الشعب البريطانى كى يحمل زعماءه على عقد الصلح مع هتلر .

وكان تشرشل الرجل الذى ادخرته الأفئدة لتلك الساعة الحاسمة ، فوقف وسط الخرائب والموت والآلام كالجبل الراسخ ، وارتفع صوته بخطبه الفارية توحى إلى الشعب بالثبات والصمود والتصميم فيقول :

— نحن نحارب بمفردنا ، ولكننا لا نحارب من أجل أنفسنا فقط ، ونقف بلا خوف ولا وجل فى انتظار المعركة المقبلة . وإذا استطاع الغزاة أن يضيعوا أقدامهم فوق أرض انجلترا ، فإنهم لن يجدوا تسليما وإلقاء للسلاح ، ولن يجدوا شعبا مهينا يقبل الذل ، ولكننا سنفقاتل وندافع عن كل قرية وكل مدينة ، وسيفقاتل سكان لندن نفسها فى كل شارع من شوارعها حتى يلهتهم العدو فى جيشه العظيم . وإننا لنفضل أن نرى لندن وقد تحولت أنقاضا وأكواما من الرماد ، من أن نراها مستعبدة فى خضوع واستكانة . . »

ويقول فى خطبة أخرى :

— ليس من الوهم أن أقول إن هذه الأمة قد عقدت النية على أن تفوز أو تموت ، فما أعظم الفوز الذى نالته روح هذه المدن المهتمة على شرماتستطيعه النار والقنابل . إن كل واحد يفخر بأنه تعرض لنار العدو ، وبأنه يشاطر الجنود والبحارة ما يتعرضون له من أشد التجارب فظاعة ، ولا شك فى أن هذا العهد هو عهد بطولة عظيمة فى تاريخنا ، وأن نور الجهد يسطع فوق رؤوسنا . . »

ثم يقول فى خطبة أخرى :

— سنقاتل فى فرنسا ، وفى البحار ، وفى المحيطات ، وسنفقاتل فى الجو بقلوب قوية ، وسندافع عن جزيرتنا مهما كان الثمن ، وسنفقاتل فى الحقول ، وفى الشوارع ، وعلى رؤوس الجبال ولن نلقى السلاح ، وإذا فرض — وهو مالا أعتقده لحظة واحدة — وخضعت هذه الجزيرة أو جزء منها وتضورت جوعا ، فستواصل إمبراطوريتنا الفضال فيما وراء البحار ، وتستمر فى كنفاحها

إلى أن يأذن الله بظهور عالم جديد . . فمن أعماق المحن والتضحيات ينبعث
من جديد مجد بنى الإنسان «
بمثل هذه الكلمات كان تشرشل يغذى روح الشعب البريطانى حتى استطاع
أن يكسب الحرب .

وفى مواجهة تشرشل كان يقف « هتلر » ذلك العبقرى الجنون الذى
هب على العالم كالأعصار المدمر ، وكان بدوره خطيبا من طراز فريد . وكذلك
كان « موسولينى » حليفه وأستاذه السابق ، مؤسس الحركة الفاشية . ولكننا
لا نتحدث فى هذا الكتاب عن الخطباء المعاصرين .
وحسبنا أن نختار من خطباء الحروب ، نابليون بونابرت ، أعظم عبقرية
عسكرية ظهرت فى العصور الحديثة .

ناپليون بوناپرت

« لقد حول بوناپرت معاركه الأولى بسحر بيانه »
« إلى انتصارات كبيرة فجعل لها مكاناً في التاريخ »
« إميل لودفيج »

نابليون بونابرت

ليس هذا الفصل ترجمة لحياة نابليون ، فإن تاريخ هذا القائد الكبير معروف مشهور ، ولكننا نتحدث عنه كخطيب .

ولقد يقال ما شأن هذا القائد بالخطابة وقد قضى حياته في الميدان ، وبني مجده على الانتصارات الحربية ، وأقام امبراطوريته على أسنة الحرب ؟ والواقع أن نابليون كان في الصف الأول من خطباء الحروب ، ولعله كان أعظمهم جميعاً .

إن من يقرأ الخطب والنشرات التي كان يذيعها نابليون في الجنود يشعر بما كان في كلامه من بلاغة وقوة وإشراق ، فكان أسلوبه يمثل ما في الطبع الفرنسي من حماسة مشبوبة وخيال مضطرم .

تلقى نابليون علومه في مدرسة « بريان » ، ثم في المدرسة الحربية بباريس وكان « دومارون » أستاذه في الأدب يشبه كتابته بحجارة الصوان الحماة في البركان . وقد نشأ مشغولاً بالعلوم والآداب والفنون ، يحترم أهلها ويقدرهم ، وظل يحتفظ معتزلاً بلقب « عضو الجمعية العلمية الوطنية » وقد ورد في مذكرات « دي بوريان » كاتبه وكاتم سره أنه قال له يوماً بعد أن شهد تمثيل إحدى روايات « كورنيل » :

— لو كان رجل مثل كورنيل يعيش في أيامي هذه لا اتخذته وزيراً الأول وكان نابليون يقرب إليه الممثل « تالما » الذي كان يستطيع أن يعد نفسه صديقاً للإمبراطور ، وقد قيل إن « تالما » كان يعلمه الإلقاء .

على أن نابليون كان قبل كل شيء رجل حرب ، بنى نفسه بحسامه مجداً

كسف مجد « هانيبال » ، وغطى على مجد الأسكندر ، وأنسى الناس مجد قيصر
ونبع في فنون الحرب نبوغاً لم يشهده التاريخ من قبل ، وانتصر في ستين معركة
أثار غبارها وخاض غمارها .

ومهما قيل في العوامل والأسباب التي كانت تسكن له هذا النصر ، فلا
شك أن نابليون نفسه كان العامل الأول في هذه الانتصارات . كانت له شخصية
ساحرة جعلته معبود الجنود ، ما يكاد يظهر لهم بمعطفه الرمادي الطويل ،
وحذائه العالي ، وقبعته المثلثة الأركان تعلو رأسه المستدير ، وتقاطيعه التي
كأنما قدت من الصخر ، وما يكاد يلوح لهم بقامته القصيرة وعينييه الراقبتين
الرماديتين ، وكتفيه اللتين تتمثل فيهما القوة الهائلة ، حتى تسرى فيهم حساسة
جارفة تطلق أسننتهم بالهتاف وتبعث فيهم الشوق إلى القتال .

وليس أدل على قوة تأثيره في الجنود من أنه عندما هرب من جزيرة
« إلبا » لم يكن يعتمد على شيء سوى هذا الحب الذي جعل الجنود على طول
الطرق يهرعون إليه هاتفين مهللين . وقد أرسلت فصيلة لصدده والقبض عليه ،
فالتقت بالجنود الذين كانوا معه عند عمر « لافريه » ومنعتهم من المرور ، فأسرع
نابليون وترجل عن جواده ، فصاح قائد الفصيلة يأمر جنوده بالاستعداد
لإطلاق النار ، ولكن نابليون تقدم إليهم وصاح فيهم قائلاً :

— ما بالكم أيها الرفاق ؟ ألا تعرفونني ؟ أنا الأمبراطور . ألا ترون
قائداًكم ؟ . إذا كان بينكم من تحدثه نفسه بقتل قائده وأمبراطوره فماذا
أكشف له عن صدري .

قال ذلك وكشف عن صدره فتراخت أذرع الجند ثم ارتفع هتافهم بحياة
الأمبراطور ، وأستأنف العاهل زحفه إلى باريس ووراء الجيش الذي أرسل

لحاربه ، فدخلها دون أن تطلق قذيفة أو تراق نقطة دم .

وكان نابليون يعرف قوة تأثيره في الجنود ، ويدرك قيمة ظهوره بينهم فكان دائم الاتصال بهم ، يستغل حبهم له في إثارة حماسهم بالخطب والنشرات والكلمات المثيرة التي كان يلقيها عليهم خلال المواقع .

وكانت لنابليون كلمات قصيرة مرتجلة تقوم مقام الخطب الطويلة ، فقد يلقي جملة واحدة تحمل من المعاني والتأثير ما تحمله الخطبة الكاملة .

في الحملة المصرية التقى بجيش مراد بك عند الأهرام ، فلما رأى ذلك الأثر الخالد الذي يمثل حضارة ترجع إلى أربعة آلاف من الأعوام ، صاح في جنوده : — إنكم ستقاتلون الآن المتسلطين على القطر المصري ، ولكن اعلموا أن أربعين قرناً تطل عليكم من قمة هذه الأهرام . .

وفي إحدى المعارك اندفع نابليون وسط المعركة حيث كانت تنساق القذائف والقنابل ، فعلت أصوات المحيطين به من قواده خوفاً عليه فصرخ فيهم قائلاً :

— لا تخافوا يا أصحابي .. فإن القنبلة المعدة لقتلي لم تصب بعد !

* * *

كان نابليون في كثير من الأحيان يخطب جنوده قبل المعركة يستفهم للقتال . ففي حملة إيطاليا الأولى عام ١٧٩٦ وهي أول حملة هامة انتصر فيها عندما كان قائداً صغيراً ، تولى قيادة جيش قليل العدد والمؤن والذخيرة ، ولم يكن معروفًا لدى كبار ضباطه الذين زعموا أن ذلك الشاب الصغير ذا الوجه النحيل والقامة الضئيلة ، والذي أبرز لهم صورة عروسه مفاخرًا بها ، لا يمكن أن يكون تعيينه إلا نتيجة المحاباة . ويقول « مسينا » أحد قواده في تلك المعركة : « ولكنه بعد أن وضع على رأسه قبعة القيادة ، ظهر كأنما زاد في الطول قدمين

وبدأ يناقشنا في مراكز فرقنا ، وفي الروح المعنوى و رسم لنا الخطة التى نسير عليها ، ثم أعلن أنه سيقوم فى الغد باستعراض الجيش و يبدأ مهاجمة العدو فى اليوم التالى ، وكان يتكلم بثؤدة وروية وثقة حتى أفنec كل من سمعه بأنه جدير بقيادة الأبطال . . . »

وفى الصباح استعرض الجيش وخطب فى جنوده قائلاً :
أيها الجنود

والله إنكم لجياع عراء ، وإن الوطن مدين لكم بالكثير ، ولكنكم عاجز عن إمدادكم بشيء . وإن الصبر والبأس الذى ظهر منكم بين هذه الصخور ليدعو إلى العجب والاعجاب ، وسأمضى بكم إلى أخصب بقاع الأرض ، وستقع فى أيدينا أغنى الأقاليم والمدن ، فأمامكم الثروة الواسعة والمجد الأئيل ، وإن صبركم وتجلدكم لن يجدياكم غير الشرف . . . فياجنود فرنسا ، هل تنقصكم فى ذلك الشجاعة . . . ؟

ويقول أميل لودفيج فى كتابه الرائع عن نابليون :

— وحول بونايرت معاركة الأولى بسحر بيانه إلى انتصارات كبيرة ، وجسم أهمية هذه الانتصارات فجعل لها مكاناً فى التاريخ ، وأدخل فى روع الأمة أنها أصبحت حرة ، وفى روع الجيوش أنها حققت كل شيء ، وأن كل شيء أصبح لها . ولقد جاء فى بلاغه للجيش بميلانو « أيها الجنود . لقد تدفقت كالمسيل من أعالي جبال الأبنين فاستوليت على ميلانو . نحن أصدقاء جميع الأمم ولا سيما أحفاد بروتس وسبيون وأولئك العظماء الذين اتخذناهم قدوة لنا . من ثمرات انتصاراتكم التى ستبهر الأجيال المقبلة سوف يعاد بناء السكايتول وتنصب فيه تماثيل الأبطال التى اشتهر بها ، ويحرر الشعب الرومانى الذى لم يذق غير الاستعباد منذ قرون . وسوف

تمودون إلى بلادكم فيقول أبناء الوطن حينما يشيرون إلى الرجل منكم : « لقد كان هذا في جيش الحملة الإيطالية . »

ثم يتساءل لودفيج :

— من هو القائد الذى يخاطب الجنود بمثل هذه الكلمات المغرية ؟ ومن ذا الذى يخاطب الخيال والمشاعر بدلاً من الدعوة إلى الطاعة كبونا بارت ؟ وعندما أعد الحملة المصرية وسافر معها إلى طولون في طريقه إلى مصر خطب في جنوده قبل الرحيل فقال :

— منذ سنتين توليت قيادتكم ، وكان الشقاء نخياً عليكم ، وقد أنفقتم كل شيء حتى ساعاتكم لاتباع ما تسدون به رمقكم ، فوعدتكم بازالة شقائقكم ، وسرت بكم إلى إيطاليا حيث توفر لكم كل شيء . فهل حققت وعودى لكم ؟

فصاح الجنود :

— أجل

فاستأنف خطابه قائلاً :

— ولكن اعلموا أنكم لم تصنعوا حتى الآن شيئاً مذكوراً للوطن ، كما أن الوطن لم يفعل شيئاً لكم . وهأنذا الآن أمضى بكم إلى بلاد تسجلون فيها لكم مجداً يزرى بكل مجد أحرزتموه من قبل ، وتؤدون للوطن خدمات نتوقعها من أبطال الحرب الذين لا يشق لهم غبار . إنكم ستعرضون لمخاطر جديدة مع إخوانكم البحارة ، فكونوا معهم على متن السفن شاعرين بالمعاطف التى يمتاز بها الأشخاص الذين تهمس في قلوبهم أصوات الواجب الوطنى . تمودوا أعمال الملاحه وأنتم على المراكب ، واقذفوا الذعر على أعدائكم فى البحر والبر ، وكونوا كجنود الرومان الذين دوخوا قرطاجنة فى البحر وظفروا بها وهم فى سفنهم فى عرض اليم . . »

— ٢٣٤ —

وعندما احتاجت حملته في أسبانيا إلى مدد جديد ، قرر أن يقذف في المعركة بكتائبه القديمة التي تعودت الظفر بالأعداء ، واستعرض هذه القوات وخطب فيها قائلا :

— أيها الجنود

إنكم بعد أن جررتم أذيال النصر على ضفاف الدانوب والفيستول عدتم فعبرتم ألمانيا . والآن أرى أن الشرف الوطني يضطرنى أن أجتاز بكم فرنسا دون أن أمنحكم دقيقة واحدة من الراحة .

— أيها الجنود

إننى محتاج إلى شجاعتكم ، فإن الفهد الكريه الذى يقبع فى أرض أسبانيا والبرتغال يلوث تربتهما . فليقر مذعورا عندما يراكم . هلموا بنا نبلغ بأعلامنا المظفرة أعمدة هرقل ، ونثأر اللاهانات التى أرادوا أن يلحقوها بنا . وستنالون جزاء على أعمالكم سلاما طويل الأجل ، ويسرا مقبلا . إن الفرنسى الحقيقى لا ينبغي له أن يذوق طعم الراحة قبل أن يحطم الحصار البحرى فتفتح فى وجهه البحار وتصبح حرة .

أيها الجنود

إن كل ما فعلتموه ، وكل ما تفعلونه فى سبيل سعادة الشعب الفرنسى ومجده سيخلد فى قلبى إلى الأبد . . . »

ولنستمع اليه يخطب الجنود قبل أن يهاجم جيوش النمسا التى انتهزت فرصة غيابه وانقضت عليه :

— إن أرض المخالفة قد انتهكت حرمتها ، وأن القائد النمساوى يريد أن نفر

هاربين من وجه جيوشه وأن نترك نصرة حلفائنا ، ولكنى قدمت بسرعة
الـبرق .

أيها الجنود

لقد كنتم تحفون بي حين جاء عاهل النمسا إلى في «مورافيا» وقد سمعتموه
يلتمس شفقتي ، ويقسم على أن يحفظ لى صداقة ثابتة . ولما كنا قد ظفرنا
بالنمسا في ثلاثة حروب ، فلنا الفضل عليها في كل شيء . أما هي فقد نقضت
عهدها ثلاث مرات متوالية . ولكن ما أصبناه من النصر في الماضي يضمن لنا
ما نتوقه من نصر في المستقبل . سيروا بنا ، وليعلم العدو عندما تقع عينه علينا
أننا المنتصرون . . .»

وفي معركة «أوسترتز» حيث ظفر نابليون بأمبراطورين ، وهزم جيشين
عظيمين ، خاطب جنوده وهو يستعرض الكتائب المصطفة للقتال قائلا :

-- أيها الجنود

بنبغي لنا أن نختم هذه الحرب بصاعقة لا تبقى ولا تذر .

فرفع الجنود قبعاتهم على رؤوس الحراب وصاحوا هاتفين بحياة الأمبراطور .
وكان تاريخ المعركة يوافق ذكرى تتويج نابليون امبراطورا ، فكان الجنود
يعتبرون أنفسهم في احتفال بذكرى التتويج . وفي الليلة السابقة للمعركة تفقد
نابليون المعسكر متفكرا فعرفه الجنود ، والتفوا حوله ، ورفعوا المشاعل على
رؤوس الأوتاد ، ودنا منه فارس من أقدم الفرسان فخطبهم قائلا :

- مولاي . . إنك لست في حاجة إلى تعريض حياتك غدا للخطر ، فأنا
أعدك باسم فرسان الجيش ألا نجعلك تقاتل إلا بعينيك ، وسفأتيك غدا
بأعلام الجيش البروسي ومدافعه لنحتفل بتذكرك بتتويجك . .

— ٢٣٦ —

وقد بر الجيش العظيم بوعدة للامبراطور ، ووقف نابليون يخطب جنوده
بعد المعركة ويوجه إليهم هذا الكلام البليغ الرائع :

— أيها الجنود

إلى راض عنكم ، لقد كنتم عند ظنى فيكم فخلعتم على ألويتكم حللا لا
تبلى من المجد . فى أقل من أربع ساعات حطمت جيشاً يربو على مائة ألف
مقاتل بقيادة أمبراطورين . أربعون علما ، ومائة وعشرون مدفعا ، وعشرون
قائدا ، وثلاثون ألفا من الأسرى ، تلك هى نتيجة هذا اليوم المشهود . لقد
أصبح السلم قريبا ، ولكنى لا أريده إلا كما وعدتكم قبل عبورى الراين ، أى
سلما أكيدا يكون فيه الضمان لنا والمكافأة لخلقائنا .

أيها الجنود

عندما وضع الشعب الفرنسى هذا التاج على رأسى كان كل اعتمادى عليكم
لتحفظوا له مجده اللامع الذى بدونه لا قيمة له فى نظرى .

أيها الجنود

سأعيدكم إلى فرنسا بعد أن نحقق كل ما يكفل المناء للوطن ولكم ،
فتسكونوا موضع الإعجاب والتكريم ، وتستقبلكم الأمة بسرور وفخر ،
وحسبكم يومئذ أن يقول الواحد منكم « لقد شهدت أوستراتز » ليسمع من
حوله يقولون : « إنه لبطل . . »

وفى أثناء إقامة نابليون فى « شمبرون » بعد معركة أوستراتز عرض
الجيش فلما وصل إلى الفصيلة الأولى من الفرقة الرابعة ، وكان قد تمزق شملها
فى المعركة وأضاعت علمها ، وقف نابليون وخاطبهم قائلا :

— أيها الجنود . ماذا فعلتم بالراية التي سلمتكم إياها ؟ لقد أقسمتم على أن تبذلوا أرواحكم في سبيل الدفاع عنها ، فكيف وفيتهم بعهودكم ؟

فأجابه قائد الفصيلة بأن حامل الراية قتل في المعركة فلم يبصره أحد بسبب الدخان الكثيف ، وأن الفصيلة لم تقصر في أداء الواجب ، فإنها مزقت شمل فرقتين وغنمت عامين قدمتهما لجلالاته . فصمت العاهل برهة ، ثم طلب من الضباط والجنود أن يقسموا على أنهم لم يبصروا حامل الراية مجددا فاقسموا على ذلك جميعا ، فانبسط أساريه الجامدة ، وقال لهم مبتسما :

— وإذن أعيد إليكم رايتكم .

* * * *

هكذا كان نابليون يخطب جنوده قبل المعارك ليثبت فيهم الحماسة ويستنفذهم للقتال ، كما كان يخطب فيهم أحيانا بعد المعارك ليثني عليهم ويشكرهم لحسن بلائهم ويعددهم لقتال جديد .

وكان نابليون يصدر نداءات ونشرات تفيض بلاغة وقوة . فعندما فر من جزيرة إلبا وعاد إلى فرنسا ، أعد نشرات للشعب والجيش ، وبما قاله في نشرته للجيش :

— أيها الجنود

إننا لم نقهر . لقد سمعت نداءكم وأنا في المنفى فاقبلت إليكم غير مكترث بالمهالك . إن قائدكم الذي اختارته الأمة للجلوس على العرش ، وكنتم ساعده الأيمن ، وعماد عرشه ، قد عاد إليكم فهاجموا إليه . انزعوا هذه الأعلام التي نبذتها الأمة ، وانشروا الراية المثلثة الألوان التي حملتموها في أيامنا العظيمة . لقد تجرع جنود الجيش العظيم كؤوس المهانة ، وامتهنت ندوبهم المقدسة ،

واعتبرت انتصاراتهم جرائم ، وبطولتهم تمردا .

أيها الجنود

تعالوا واجتمعوا تحت لواء زعيمكم وسيسمى إليكم النصر مسرعاً . وسيطير
النسر بألوانه الوطنية من قبة إلى قبة ، حتى يبلغ أبراج كنيسة نوتردام ،
وحينئذ تستطيعون أن تفاخروا بأظهار ندوبكم . وعندما تدرككم الشيخوخة ،
يحيط بكم مواطنوكم ليسمعوا منكم باحترام وإعجاب رواية ما كان من مجد ،
يستطيع الواحد منكم أن يقول بفخر « وأنا أيضاً كنت من رجال ذلك الجيش
العظيم الذى دخل مرتين فينا وروما وبرلين ومدريد وموسكو ، وأنقذ باريس
من الوصمة التى لطختها بها يد الخيانة .. »

وقد ذكرنا كيف نجح نابليون فى إثارة حماسة الشعب والجنود ، فانضمت
إليه على طول الطريق الفصائل التى أرسلت لصدده ، ودخل باريس دون أن
تراق قطرة من الدم ، وعاد إلى قصر التويلرى محمولا على أكتاف ضباطه
القدماء . وفى الصباح عرض الجنود الذين كانوا فى العاصمة وخطب فيهم
قائلا :

— إننى قدمت إلى فرنسا فى تسعمائة رجل معتمدا على محبة الشعب والجنود
فلم يخب أملى .

أيها الجنود . أقبوا شكرى العميق ، فأن الفخر الذى جنيته من أعمالنا مرجعه
إليكم . إن عرش البوربون غير شرعى ، فقد أقامته أيدي الأجانب بعد أن هدمته
الأمة وواقفت على هدمه المجالس الوطنية ، وليس فيه ضمان إلا لمصالح فريق يسير
من المدعين المتعجرفين . إننا سنزحف لنطرد من أرضنا أولئك الأمراء الموالين
للأجانب . نحن لا نبتغى التدخل فى شئون الأمم الأجنبية ، ولكن الويل لمن
يتدخل فى شئوننا .. »

وعلت أصوات الجنود بالهتاف للامبراطور ، واتفق في هذه اللحظة أن وصل جنود الفرقة التي كانت معه في جزيرة إلبا ، فلما رأهم نابليون صاح قائلاً : — هؤلاء هم ضباط الفرقة التي صحبتني في الضراء ، فكلمهم أصدقائي وأعزائي . هؤلاء الشجعان أشخاص من جميع الفياق يذكرونني بالأيام العظيمة التي لا يزال ذكرها عزيزاً لدى ، وجميعهم تزين أجسامهم ندوب شريفة أصابتهم في المعارك الخالدة ، وقد أعادوا إليكم راية النسر التي ألفت عليها الخيانة والأحوال السيئة غشاء محزناً ، ولكنها عادت بفضلكم إلى الظهور . فأقسموا على أن تجعلوها دائماً في المكان الأسمى الذي تدعو إليه مصلحة الوطن ، ولیمجز عن النظر إليها الخونة ومن تحدّثهم النفس بغزو بلادنا ... »

وأقبلت إليه وفود من المتطوعين تطلب السلاح للدفاع عن الوطن فخطب فيهم قائلاً :

— قدمت وحدي معتمداً على سكان المدن والقرى وجنود الجيش ، ولقد حققتم جميعاً ثقتي فيكم ، وأقبل ما تقدمونه لي ، وسأعطيكم سلاحاً ، وسأجعل عليكم ضباطاً لا تزال آثار الجروح بادية عليهم ، وهم الأبطال الذين تعودوا أن يروا العدو هارباً أمامهم ..

وهكذا أخذ نابليون يستنهض فرنسا للسير معه من جديد ، وأعلنت الدول الأوروبية التي باغتها فراره أنها لن تضع السلاح حتى تقضى عليه . وأسرع نابليون إلى لقاء أعدائه على أرض بلجيكا ، وخطب جنوده للمرة الأخيرة فقال لهم :

— أيها الجنود

اليوم تذكار معركتي « مارنجو » « وفريد لاند » اللتين قررتا مصير أوروبا مرتين . وقد أظهرنا حينئذ من كرم الخلق مثل ما أظهرناه بعد معركتي أوسترلتز ، ووجرام ، ووثقنا في أقسام وعهود الملوك الذين أبقيناهم على عروشهم ، ولكمهم قد خانوا عهودهم وتآلبوا علينا ، وأرادوا العبث بسيادة فرنسا وحقوقها المقدسة . فلنزعجهم للملاقاتهم . أولسنا نحن وهم كما كنا عليه من قبل ؟

أيها الجنود

أمامنا سير عفيف ، ومعارك ضارية ، ومتالف لا مندوحة لنا عن اقتحامها ، ولكننا سنظفر بالنصر إن نحن ثبتنا . لقد دنت الساعة التي يكون فيها شعار كل فرنسي في صدره قلب : إما أن أنتصر أو أموت .

وألقى نابليون بنفسه في أتون المعركة ، ولكن آماله تحطمت في سهل واترلو ، وعاونت الطبيعة على فشل نابغة الحروب ، فتخلل الفجر عنه لآخر مرة وللأبد .

وترك نابليون جيوشه المهزومة في الميدان ، وألقى بنفسه في غمرة القضاء والقدر ، فطوت به الأقدار إلى جزيرة سانت هيلانة .

ولم تكن له فرصة لتوديع جيوشه التي أحبها ، ولكنه كان قد ودع هذا الجيش قبل ذلك عندما تنازل عن العرش في المرة الأولى قبل نفيه إلى جزيرة إلبا . ففي يوم رحيله من « فونتينبلو » اصطف جنود الحرس الامبراطوري ليودعهم قبل الرحيل . ورفع نابليون يده مشيرا إلى أنه يريد أن يتكلم فساد سكون رهيب ، وأرهب الجميع آذانهم لتلتقط الكلمات الأخيرة التي يوجهها الامبراطور إلى رجاله الشجعان . وقال نابليون :

— يا ضباط وجنود حرسي القدماء ، أستودعكم الله فقد سعدت بكم عشرين عاما ، وكنتم دائما موضع نخري . إن الدول المتحالفة قد جندت أوروبا كلها ضدي . وقد خان قسم من الجيش واجبه ، وشاءت فرنسا لنفسها حظا آخر . إنني أستطيع أن

— ٢٤١ —

أخوض بكم وبالشجعان الباقين على ولائى حرباً أهلية تدوم ثلاثة أعوام ،
ولسكن ذلك يسكون وخيماً على فرنسا ويخالف الغاية التى أريدها .

لا تروا الحالى ، فأنى أكون سعيداً جداً حين أعلم أنكم سعداء . لقد كان
الموت مستطاعاً لى ولا شىء أسهل على من ذلك ، ولسكنى أسير دائماً فى طريق
الشرف . وقد بقى على أن اكتب تاريخ ما فعلناه .
لها الضباط والجنود

لا تنسنى لى معانقتكم جميعاً ، ولسكنى أعانق قائدكم ، تعال يا جنرال .
وعانق نابليون قائد الحرس ، ثم طلب راية الحرس فقبلها وقال :

— أيتها الراية العزيزة . فليكن لهذه القبلة دوى فى أفئدة جميع
الشجعان . الوداع يا أولادى ، ولتصحبكم دائماً تمغياتى الطيبة ، فاحفظوا
ذكرى .

بعض مراجع الكتاب

- ١ - خطباء اليونان تأليف ج . ف . دبسون ترجمة أمين سلامة.
- ٢ - قصة الحضارة تأليف ويل ديورانت ترجمة محمد بدران .
- ٣ - دائرة المعارف البريطانية .
- ٤ - ديموستين - - من سلسلة أعلام الحرية تأليف قدرى قلعجي .
- ٥ - نهج البلاغة .
- ٦ - الكامل لابن الأثير .
- ٧ - تاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبري .
- ٨ - العقد الفريد لابن عبد ربه .
- ٩ - البيان والتبيين للجاحظ .^٥
- ١٠ - عبقرية الإمام اعباس محمود العقاد .
- ١١ - سيف بنى مروان لعبد الرازق حميدة .
- ١٢ - الحجاج - حياته وخطابته لعلى صافى حسين .
- ١٣ - ميرابو تأليف الوزير الفرنسى « بارتو » .
- ١٤ - دراسات تاريخية تأليف لورد ماكولى .
- ١٥ - عبد الله النديم للدكتور على الخديدي .
- ١٦ - سلافة النديم لأحمد سمير .
- ١٧ - مصطفى كامل بقلم عبد الرحمن الراعى .
- ١٨ - تاريخ مصطفى كامل بقلم على فهمى كامل .
- ١٩ - مصطفى كامل بقلم فتحي رضوان .

— ٢٤٤ —

- ٢٠- سعد زغلول بقلم عباس محمود العقاد .
- ٢١- مصطفى كامل بقلم أحمد رشاد .
- ٢٢- إنجلترا في مصر بقلم مدام جوليت آدم .
- ٢٣- آثار الزعيم في عهد وزارة الشعب بقلم محمد ابراهيم الجزيري .
- ٢٤- مجموعة خطب سعد زغلول .
- ٢٤- تاريخ نابليون الأول بقلم إلياس الحويك .
- ٢٦- نابليون تأليف إميل لودفيج وترجمة عادل زعيتر .
- ٢٧- مجموعة البلاغ الأسبوعي ، الرسالة ، والصحف اليومية .

كتب صدرت للمؤلف

- | | | |
|------------------------|--------------------------------------|------|
| ١ - الذهب المقدس | مجموعة قصص قصيرة | ١٩٥٦ |
| ٢ - نساء خالدات | صدرت عن الدار القومية للطباعة والنشر | ١٩٦٥ |
| ٣ - التوعية الاجتماعية | دار ومطابع الشعب | ١٩٦٦ |

رقم الإيداع بدار الكتب ٤٦٥٣ لسنة ١٩٦٩

المطبعة الفنية الحديثة
٢٠ شارع الأصمعيان ٨٦٤٨٧١ ت



مكتبة الإنجلو المصرية